العدد ٢٧/٢٨ ، ١٩٧٠

قضايا

الشؤون السوفيتية

يصدرها

معهد دراسة الشؤون السوفيتية

في ميونيخ ، المانيا الغربية

عدد خاص

عن الشعوب الاسلامية

في الاتحاد السوفييتي

(المجلة) نشرة دورية يصدرها معهد دراسة الشئون السوفييتية فى مدينة ميونيخ بألمانيا الغربية مرة كل ثلاثة أشهر، فإذا رغبت أيها القارىء الكريم فارسل بمقالاتك وبحوثك المختلفة إلى رئيس تحرير المجلة أما الاعلانات والاشتراكات وكذلك الواردات الأخرى فترسل الى مدير المعهد على العنوان المذكور أدناه.

كما يسر رئيس التحرير ان يقوم بنشر المقالات التى ترسل إليه إذا اعتبرها صالحة للنشر ويدفع أجر المقالات التى تنشر حسب تعريفة المعهد فى هذا الشأن، أما المقالات التى لا تنشر فتعاد الى كاتبها عند طلبه، والمرجو من كاتبى المقالات ان يحتفظوا بنسخة لديهم حيث ان المعهد غير مسئول عن ضياع الأصل.

يمكن اعادة أو اقتباس المواد فى "المجلة" جزئياً بشرط الاشارة الى مصدرها. ويرجو رئيس التحرير ان يتسلم دائماً نسخة من المنشورات التى احتوت على معلومات أو مواد نشرت فى "المجلة" من قبل، كما يرجو أيضاً الحصول على اذنه قبل اعادة نشر مقالات بأكملها.

الآراء المنشورة فى "المجلة" أو فى مطبوعات أخرى للمعهد تعبر عن آراء كتابها فقط ولا يجوز اعتبارها وجهة نظر المعهد: Institute for the Study of the USSR,

.8 Munich 22 — Mannhardtstrasse 6 — Germany

Bulletin ..... DM 44.— or $12 (in English, 12 issues per year)	**Dergi** ..... DM 4.— or $1 (in Turkish, 4 issues per year)
Studies on the Soviet Union ..... DM 44.— or $12 (in English, 4 issues per year)	**Estudios sobre la Unión Soviética** .. DM 4.— or $1 (in Spanish, 4 issues per year)
Analysis of Current Developments in the Soviet Union (mimeographed) (in English, 52 issues per year) ... DM 40.— or $10 (in Russian, 52 issues per year) ... DM 40.— or $10 (in Spanish, 26 issues per year) ... DM 20.— or $5	**Majallah** ..... DM 4.— or $1 (in Arabic, 4 issues per year) **Problèmes Soviétiques** ..... DM 8.— or $2 (in French, 2 issues per year)
Review of Soviet Medical Sciences DM 16.— or $4 (in English, 2 issues per year)	**Sowjetstudien** ..... DM 8.— or $2 (in German, 2 issues per year)

For Air Mail Delivery, please double the rate. — All rates subject to change without notice.

Herausgeber und Verlag: Institut zur Erforschung der UdSSR, e.V., München 22, Mannhardtstrasse 6, Telefon 22 06 81-84. — Printed in Germany by Wiesbadener Graphische Betriebe GmbH, Wiesbaden.

مجلة

الشؤون السوفيتية

العدد ٢٨/٢٧ ، ١٩٧٠

رئيس التحرير
سليمان محمد تكينر

معهد

دراسة شؤون الاتحاد السوفيتى — ميونيخ

محتويات العـدد

مقـــدمـــة ٣

آذربيجـان ٥
بقلم: سليمان محمد تكينر

القـــرم ٣٠
بقلم: الدكتور اديكه مصطفى كريمال

القوقـاز الشماليـة ٤٩
بقلم: بارازبى بايطوغان

التركستان ٦٨
بقلم: نور الدين محمد اولوغ بك

فنون الشعوب الإسلامية فى الإتحاد السوفييتى ٨٨
بقلم: بيرم رضا

الجزء الأول: آذربيجان ٨٨

الجزء الثـانى: القوقاز الشمالية ١١٢

الجزء الثالث: التركستان ١٢٣

دراسات عن أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى

يعيش عشرات الملايين من المسلمين فى آذربيجان وايديل اورال والقرم والقوقاز الشمالية وتركستان. وهم شعوب لها تاريخ مجيد وحضارات عظيمة أدت دورها فى تطور حضارة الانسان وتقدمه. ولقد صارت هذه الأقطار الاسلامية جمهوريات يقال أنها مستقلة ضمن المجموعة السوفييتية، باستثناء أهل القرم الذين أبعدوا عن بلادهم منذ عام ١٩٤٤ بأمر جائر من موسكو بنى شعب بأكمله.

وفى هذا العدد الخاص من " المجلة " نقدم لقرائنا مجموعة دراسات عن أحوال المسلمين فى آذربيجان والقرم والقوقاز الشمالية وتركستان. وفى عدد قادم من " المجلة "، فسوف نقدم لقرائنا بمشيئة الله الدراسات الخاصة بأحوال المسلمين فى ايديل اورال. وعسانا بذلك ان نوفى حقاً الى أهله.

هيئة التحرير

آذربيجان

بقلم: سليمان محمد تكينر

تقوم جمهورية آذربيجان الاشتراكية السوفييتية على جزء من أرض آذربيجان هو آذربيجان الشمالية وتمتد الحدود الطبيعية لآذربيجان من الأناضول الشرقية حتى بحر قزوين ويشقهـا نهر اراس بالعرض فيقسمها الى آذربيجان الجنوبيـة التى تتبع الامبراطورية الايرانية، وآذربيجان الشمالية الـتى تقوم على أرضهـا جمهورية آذربيجان الاشتراكية السوفييتية والتى هى موضوع دراستنا.

تمتد حدود جمهورية آذربيجان الاشتراكية السوفييتية من جهة الشمال بامتداد سلسلة جبال القوقاز الـكبرى الى جبال القوقاز الصغرى حتى جبال طاليش. ومن جهة الشرق يحدها بحر قزوين. وتجاورهـا من الشمال جمهورية داغستان السوفييتية، ومن الشمال الغربى جمهوريتى أرمينيا وجورجيا السوفييتيتين، أما من الجنوب فتنتهى حدودها عند حدود الامبراطورية الايرانية (آذربيجان الجنوبية) والجمهورية التركية.

كـانت مساحة أراضى جمهورية آذربيجان السوفييتية عام ١٩١٩ حسب ما جاء فى احصاءات ذلك العام ٩٤ ألف و ١٣٧ كيلو متر مربع، ولـكن مساحتها تضاءلت الآن الى ألف كيلومتر مربع[١] بعـد ان استقطعت منها أراضى أقليمى قاريازى وبورجالى وأعطيت الى جورجيا فى أعقاب احتلال القوات الشيوعية لها، ثم تنازلت حكومة آذربيجان السوفييتية عن اقليمى القازاق وزنكيزور الى أرمينيا. وأدى ذلك الى قطع الاتصال المباشر بينها وبين اقليم نخشيوان.

تتميز أراضى آذربيجان بتنوع الطبيعة فيها تنوعاً كبيراً. فى المناطق الشرقية والوسطى توجـد سهول فسيحة، وفى المنطقة الجنوبية منها وخصوصاً فى الجنوب الغربى توجد جبال

---

(١) "صويتسكـايا ايستوريتشسكـايا انسيكـلوبيديا"، المجلد الأول، موسكو عام ١٩٦١، ص ٢٢٥ .

شاهقة تغطى قممها الثلوج طول السنة، وفى شمالها توجد السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، وفى الشمال أيضاً توجد شبه جزيرة آوشاران، وهى منطقة سهول منخفضة بوجه عام وتتخللها بعض التلال وهى المنطقة التى حفرت فيها أولى آبار البترول فى آذربيجان.

ويشق أرض آذربيجان نهران رئيسيان هما نهر كور ونهر اراس. وتوجد فى وديانهما أخصب أراضى آذربيجان الزراعية، وكان لهما دائماً أكبر الأثر فى حياة البلاد الاقتصادية. كما يلاحظ ان معظم المدن الصناعية الكبرى تقع فى وادى نهر كور. وأهم البحيرات بحيرة كوكشة وبحيرة كوك كول.

يعتبر بحر قزوين روح الاقتصاد الآذربيجانى نظراً لارتباط صناعات البترول به وغناه بالأسماك وأهميته كطريق ملاحى بالاضافة الى العديد من الصناعات الكيمائية التى تعتمد على المواد الخام التى تستخرج منه.

وأرض آذربيجان غنية بالمعادن. فبالاضافة الى البترول والغاز الطبيعى يوجد الكثير من المعادن الهامة مثل النحاس والحديد والكوبالت والرصاص والذهب والفضة والمنجنيز والكبريت والبيريت والأملاح المعدنية والصودا. كما يتوفر فيها الفحم والمرمر والكاولين وغيرها من مواد البناء الطبيعية. وتوجد كذلك كثير من العيون المائية الطبيعية التى تتمتع بشهرة واسعة فى مجال العلاج والاستشفاء(٢).

السكان

كان عدد سكان آذربيجان فى عام ١٩٥٩ هو ٣٦٩٧٧٠٠ نسمة(٣)، ثم زاد الى ٥١١١٠٠٠ حسب تعداد يناير (كانون الثانى)(٤) ١٩٧٠. وكان عدد الاتراك من سكانها فى تعداد ١٩٥٩، وهم الذين تصفهم المراجع السوفييتية بأنهم " اتراك آذربيجان" أو "الترك" أو "الآذريون" ٢٤٩٤٤٠٠ نسمة(٥). والجدول التالى يبين عدد السكان واجناسهم نقلا عن تعداد ١٩٥٩ :

---

(٢) "بويوك صويت انسيكلوبيديسى"، المجلد الأول، الطبعة الثانية، موسكو عام ١٩٤٩، ص ٤٣٥، ٤٤٠، و "صويتسكى آذربيجان"، باكو عام ١٩٥٨، ص ٤٩–١٠٤ .

(٣) "آذربيجان فى تسيفراح ١٩٦٤ غودا"، باكو عام ١٩٦٤، ص ٢٠ .

(٤) الأزفستيا، موسكو، ١٩/٤/١٩٧٠ .

(٥) "آذربيجان فى تسيفراح ١٩٦٤ غوداً"، السابق ذكرها، ص ٢٠ .

الجنس	العدد	النسبة المئوية الى مجموع السكان
الاتراك الآذريون	٢ ٤٩٤ ٠٠٠	٦٧,٥
الروس	٥٠١ ٣٠٠	١٣,٥
الأرمن	٤٤٢ ١٠٠	١١,٩
الداغستانيون	١٢١ ٤٠٠	٣,٣
اليهود	٤٠ ٢٠٠	١,١
الاتراك التتر	٢٩ ٥٠٠	٠,٨
الأوكرانيون	٩ ٨٠٠	٠,٧
الجورجيانيون	٩ ٥٠٠	٠,٣
الأقليات الأخرى	٣٣ ٥٠٠	٠,٩

وكان عدد الاتراك الآذريين فى كل الاتحاد السوفييتى كما جاء فى تعداد السكان لعام ١٩٥٩ هو ٢ ٩٣٩ ٦٠٠ منهم ١٥٣ ٦٠٠ فى جورجيا و ١٠٧ ٧٠٠ فى أرمينيا و ٧٠ ٩٠٠ فى روسيا و ١١٠ ٠٠٠ فى الجمهوريات التركستانية.

لغة البلاد

اللغة التركية الآذرية إحدى اللهجات التركية الجنوبية التى قال عنها البروفيسور صويلوفيتش عالم التركيات انها لهجة أهل الجنوب الغربى أى لهجة التركمان(٦) وكذلك سكان جنوب القرم(٧).

أثبتت الاكتشافات الأثرية ان الانسان الأول عاش فى هده المناطق منذ العصر الحجرى القديم. وان العصر البرونزى بدأ فيها قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة تقريباً، فقد عثر الأثريون على كثير من الآثار التى تنتمى الى ذلك العصر مثل بعض المراجل التى كانت تستخدم فى صهر الحديد الزهر وفى صقل الخامات، وعثر على بعض قوالب من الحجر لصب الفئوس ورؤوس الحراب، كما عثر على بعض أدوات الزينة والحلى المصنوعة من الزهر وبعض أطباق من الفخار منقوشة بأشكال الحيوانات.

ولقد سجلت النقوش السيريانية من القرن التاسع ق.م. ان دولة ميديا القديمة كانت تشمل جزءاً هاماً من أرض آذربيجان. وفى القرن السابع ق.م. نشبت الحرب بين ميديا والسيريانية وانتهت بانتصار ميديا وبذلك صارت أقوى دولة فى عصرها فى ذلك الجزء

(٦) "بويوك صويت انسيكلوبيديسى"، المجلد الأول، الطبعة الأولى، ص ٦٣٥ .
(٧) نفس المرجع السابق .

من العالم. وكانت عاصمتها هى مدينة " اكباطان " (مدينة همذان حالياً). وفى عام ٥٥٢ ق.م. ثار الفارسيون على ميديا واستولوا على اكباطان عام ٥٥٠ ق.م. ثم جاء الاسكندر الأكبر فى القرن الرابع ق.م. ففتح كل هذه الأراضى ومنها ميديا. وبعد وفاته تأسست دولة ميديا—اتروباتان المستقلة على جزء من أرض ميديا القديمة هى ميديا الصغرى. ومعنى كلمة " اتروباتان " من اليونانية القديمة " بلاد النار" ويشير ذلك الى انتشار عبادة النار (المجوسية) بين أهالى تلك البلاد.

واسم آذربيجان اسم متطور. فقد كان الفارسيون القدماء يسمونها " ادربراغان " أو " أتربايكان " أو " اذربايغان " ثم جاء فى مصادر أرمنية باسم " اترباتاكان " أو " اتربايكان "، وفى مصادر سيريانية " ادربيغان " ثم أطلق عليها العرب " آذربيجان " وهى التسمية الحالية.

فى أوائل القرن الثالث الميلادى زحفت جيوش الفرس الساسانيين على آذربيجان تبغى الاستيلاء عليها وأخذها من البيزنطيين. وامتدت الحروب بين الجانبين أعواماً طويلة. ثم انتهى الأمر بأن عقد الجانبان إتفاقية فى عام ٣٨٠ الميلادية حصل الساسانيون بموجبها على آذربيجان والاقاليم الشرقية من أرمينيا وجورجيا. وظلت آذربيجان تحت حكم الساسانيين حتى جاء الفتح الاسلامى على أيدى العرب فى القرن السابع الميلادى، واحتلت جيوش العرب جميع تلك الأراضى(٨).

ولقد ثار جدل كبير حول تاريخ استيطان العنصر التركى فى آذربيجان. وحاول فريق من المؤرخين السوفييت إثبات حدوث ذلك الى تاريخ متأخر، ولكنهم فى النهاية سلموا بالحقائق وأقروا بأن العنصر التركى استوطن آذربيجان منذ زمن سحيق(٩)، وأنه طور حياته الحضارية على أرضها(١٠)، بل وأنه أثر فى لغات سكانها الأقدمين الذين عاشوا فيها قبله(١١)، ويروى المؤرخ زكى وليدى طوغان ان العنصر التركى كان يؤلف طبقة الحكام فى آذربيجان فى أيام دولة " السقا " الايرانية بعد ان فرضوا سلطانهم عليها وأخضعوها بالقوة(١٢).

---

(٨) "استوريا آذربيجان"، المجلد الأول، باكوعام ١٩٥٨، الصفحات ٢٧—٢٨، ٤٢—٤٣، ٥٠—٦٧، ٧٩—٨٤.

(٩) المرجع السابق، ص ٩٤/٩٨.

(١٠) نفس المرجع السابق.

(١١) نفس المرجع السابق.

(١٢) الاستاذ زكى وليدى طوغان: "بو كونكى توركستان وياقين ماضيسى"، الطبعة الثانية، اسطنبول، ص ٨٧، الصادر فى عام ١٩٤٢.

وظلت آذربيجان تحت حكم العرب منذ الفتح الاسلامى الى أن تأسست دولة الأتراك السلاجقة فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. ثم ما لبثت الدولة السلجوقية ان انهارت وانقسمت الى دولتين مستقلتين، احداهما دولة الاتابكة وعاصمتها فى "كنجة" والأخرى دولة شيروان شاه وعاصمتها فى "شماخى" ثم جاء الغزو المغولى فى أوائل القرن الثانى عشر، ومنذ ذلك الوقت بالذات أخذت آذربيجان صبغة تركية خالصة(١٣).

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قامت الدولة الصفوية التى امتدت حدودها من سلسلة جبال القوقاز الكبرى حتى الخليج الفارسى ومن نهر الفرات حتى حدود تركستان وشملت آذربيجان ضمن ما شملت. وكانت اللغة الرسمية هى اللغة التركية الآذرية(١٤).

وبعد قيام الدولة العثمانية استولى الأتراك العثمانيون على كثير من أملاك الدولة الصفوية بعد سقوطها فى أوائل القرن السادس عشر، ثم إمتدت الحروب بين العثمانيين والايرانيين على مدى قرنين من الزمان. وكانت روسيا قد بدأت نهضتها فى ذلك الوقت واستغل الروس فرصة انشغال الايرانيين والأتراك بالحرب الدائرة بينهم فبدأوا حركة توسع هائلة فى آسيا وخصوصاً فى الأراضى المحيطة ببحر قزوين لمحاولة فتح طريق بين أوروبا والهند عن طريق نهر ايديل فبحر قزوين. وهكذا ظهرت روسيا لأول مرة فى التاريخ كقوة عالمية لها أهميتها الحقيقية. ولقد تناول مؤرخوا السوفييت هذا الموضوع بما يلى:

ان انشاء حاميات روسية على سواحل بحر قزوين كان له أهمية قصوى بالنسبة لروسيا. كما ان فرض الحماية الروسية على امارات وخانيات القوقاز وآسيا الوسطى (أى التركستان) كان امراً اعتبرته روسيا فى ذلك الوقت واجباً ألقى على عاتقها القيام به. وكان من المحتم ان تنزل قواتها الى سواحل بحر قزوين للقيام بهذا الدور(١٥).

ولما بلغ الضغط الروسى حداً خطيراً ولم يستطع أهل تلك المناطق ان يصمدوا وحدهم لهجمات الروس المتكررة على بلادهم، بعث كل من حاجى داوود بك ملك داغستان الجنوبية وصورحاى خان امير شماحى الى السلطان العثمانى يستنجدان به طالبين مساعدة الدولة العثمانية العسكرية لدرء العدوان الروسى. وكان الروس(١٦) قد حاولوا فى عام ١٧٢٣ ثم فى عام ١٧٧١ ثم فى عام ١٧٩٦ الاستيلاء على تلك البلاد ولكن أهلها دافعوا عنها ببسالة وردوا المغيرين على أعقابهم.

---

(١٣) "بويوك صويت انسيكلوبيديسى"، المجلد الأول، الطبعة الأولى، ص ٦٦٠.
(١٤) "آذربيجانسكايا س.س.ر."، موسكو عام ١٩٥٧، ص ١٢.
(١٥) المرجع السابق، ص ٢٩٦.
(١٦) نفس المرجع السابق.

وفى عام ١٨٠١ حين تدخلت روسيا فى شؤون بلدان القوقاز الجنوبية وجورجيا وفرضت عليها " الحماية " كانت آذربيجان قد تحولت الى مجموعة من الخانيات (والخانية دولة شبه اقطاعية مستقلة الكيان)، وكانت خانية كنجة هى هدف الروس الأول. وكانت هذه الخانية قد تولى حكمها خانات من اسرة زيادخان منذ القرن السادس عشر. وكان آخر خاناتها الملك جواد الذى اشتهر بشجاعته وعدالته وبطولته. وحين طلب منه الروس بقيادة الجنرال سيسيانوف التسليم، رفض ودافع عن مدينته ببسالة نادرة الى ان استشهد الى جوار مدفعه. وهى المعركة التى قدم فيها المجاهدون ألفى شهيد بجانب الجرحى، كما بلغ عدد الاسرى من أهلها ثمانية عشر ألف مجاهد. اما خسائر الروس فيها فكانت أفدح وفقدوا من القتلى أضعاف من استشهدوا من المجاهدين. وبعد استيلاء الروس على المدينة غيروا اسمها الى " أليزاوتيل " على اسم زوجة قيصرهم الكسندر الأول(١٧).

وبعد سقوط خانية كنجة واصل الروس عمليات الغزو واحتلال بقية آذربيجان. فاستولوا على خانيتى باكووكوبا عام ١٨٠٦، ثم خانية شكى عام ١٨١٥، ثم خانية شماحى عام ١٨٢٠ ثم خانية قارابغ عام ١٨٢٢. وجدير بالذكر ان اغتيال الجنرال سيسيانوف فى باكو كان عملا فدائياً وطنياً أوقع قيادة الجيش الروسى فى حيرة بالغة وارتباك شديد.

ويزعم المؤرخون السوفييت مثل زملائهم المؤرخون الروس من العهد القيصرى، ان تدخل روسيا المتحضرة انما كان بدافع من الاشفاق على آذربيجان " المتأخرة ". وفى عام ١٩٦٤ إحتفل السوفييت فى باكو احتفالا عظيماً بذكرى مرور ١٥٠ سنة على انضمام آذربيجان بمحض ارادتها الى روسيا(١٨). ولو ألقينا نظرة عابرة الى الوراء لوجدنا ان حركة "الديسمبريين" التى يمكن بحق ان نصفها بأنها أول حركة تقدمية فى روسيا القيصرية، قامت بعد عشرين سنة من احتلال الروس لآذربيجان. فأين إذن روسيا " المتحضرة " من آذربيجان " المتأخرة " وقد كانت روسيا لا تزال تعيش فى ظل نظام اقتصادى واجتماعى تتجلى خصائصه فى نظام الرق والعبودية الذى كان يطبق فيها على الفلاحين الروس، وهو ذلك النظام الذى يسمى "كريبوستنوى".

ولقد وردت فى كتاب " السياسة الاستعمارية لروسيا القيصرية فى بلاد آذربيجان " المطبوع فى موسكو عام ١٩٣٦، كلمة عن المشروع الذى وضع فى روسيا القيصرية لمحاولة تطبيق نظام الكريبوستنوى فى آذربيجان بعد احتلالها. ورفع المشروع الى مجلس

---

(١٧) الاستاذ الدكتور جعفر اوغلى: "آذربيجان ادبياتنده استقلال مجادلسى"، اسطنبول عام ١٩٣٢، ص ١٢.
(١٨) "كوميونست"، باكو فى ٣٠/٥/١٩٦٤.

الشورى الروسى عام ١٨٣٣ للتصديق عليه. ولم يلجأ الروس الى اتخاذ مثل هذه التدابير الا لأنهم كانوا يفتقرون الى سند لوجودهم الاستعمارى فى آذربيجان وفى القوقاز الجنوبية بأسرها. فقد ورد فى المواد أرقام ١١، ١٨، ١٩ من ذلك المشروع ان نبلاء الروس لهم حق توطين عبيد يشترونهم من روسيا فى آذربيجان، كما لهم الحق فى بيعهم للنبلاء المحليين الآذريين، ولهم فيما اشتروه الحق المطلق فى التصرف الكامل بما فيه حق قتلهم.

ولقد أبدى الجنرال باسكيفيتش المتخصص فى شؤون القوقاز رأيه فى ذلك المشروع بناءاً على طلب القيصر نيقولا الأول فقال:

واما عن موضوع توطين العبيد من الفلاحين فى القوقاز، ففى رأيى يجب قبل كل شىء اعفائهم من شرط بقائهم فى ملكية النبلاء الروس، لأن نظام الاسترقاق غير موجود فى الأقاليم الاسلامية فى القوقاز حيث يطلب توطينهم، ويكون الحال أكثر غرابة إذا ما أريد تطبيق هذا النظام فى بلاد آذربيجان مع اجازة تملك النبلاء المحليين لهؤلاء الفلاحين الروس(١٩).

كانت الأرض فى خانيات آذربيجان، طبقاً لشريعة الاسلام ملكاً للدولة فى شخص الملك. وكان الفلاح يزرع الأرض مقابل اداء ضريبة عنها للدولة. وكذلك كانت الأراضى التى تحت تصرف الملاك. ونجد فى احصاءات الكتاب السنوى القوقازى الصادر عام ١٩١٧ وفى الاحصاءات الرسمية لوزارة الزراعة لجمهورية آذربيجان القومية عام ١٩١٩، ان الأراضى الصالحة للزراعة — وهى عامة بنسبة ٧٥٪ — كان الفلاحون يملكون ما نسبته ٥٧,٧٪ منها، والارستقراطيون يملكون ٢٣,٣٪، وأما الـ ١٩٪ الباقية فكانت تملكها الأسرة القيصرية(٢٠).

وفى عام ١٩٥٥ صدر فى باكو كتاب باسم "ضم آذربيجان الى روسيا ونتائج هذا الضم فى مجالى الاقتصاد والثقافة فى القرنين التاسع عشر والعشرين" ووصف الاحتلال الروسى لآذربيجان بأنه عمل تقدمى. وقد تولى الكاتب السوفييتى فادايف الرد على ما جاء فى هذا الكتاب من ادعاءات فى نقد خاص طبعه معهد التاريخ والفلسفة التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية فقال:

ومن الجلى ان الذين حلوا فى الحكم محل الخانات من قوادنا المركزيين المختارين من بين الضباط الروس والذين أخذوا يطبقون فى آذربيجان السياسة القيصرية الرجعية الجائرة،

---

(١٩) "قفاسيا"، العدد ٩، ميونيخ عام ١٩٥٢، ص ٢٣.

(٢٠) نفس المرجع السابق.

كانوا يعاملون الأهالى المحليين أسوء معاملة. فكان الموظفون من رجال حكومة القيصر يرسون فى القوقاز الجنوبية قواعد نظم الاستعمار بتنفيذهم أساليب عسكرية إقطاعية(٢١).

وفى الوقت نفسه وصف فادايف موضوع " التأثير الايجابى للاحتلال الروسى على الثقافة الآذرية " بقوله :

واما الادعاء القائل بأن الثقافة الروسية قد أثرت على تطور الثقافة الآذرية منذ انضمام آذربيجان الى روسيا، فهراء لا يمثل الحقيقة، حتى ولو سلمنا جدلا بأن الثقافة الروسية الدموقراطية التقدمية قد أدت ذلك الدور الذى ينسب إليها، فان الثقافة القيصرية الرجعية الاقطاعية المشبعة بمبادىء الاستعمار قد عرقلت من جهة أخرى تطور الثقافة الاذربيجانية(٢٢).

الثورات الديموقراطية وقضية الاستقلال

كان أمر قيام نظام حكم ديموقراطى فى روسيا القيصرية أمنية من أمانى الشعب الآذربيجانى مثلما كانت أمنية جميع الشعوب التى خضعت لنظام الحكم القيصرى. ولذلك كان لثورة ١٩٠٥ برغم فشلها أكبر الأثر فى أزكاء نور الأمل فى قلوب تلك الشعوب وحثهم على النضال من أجل تحقيق أملها. كما ان اعلان الدستور فى روسيا كان من أهم العوامل التى شجعت المناضلين من اجل الديموقراطية على زيادة نشاطهم فانتشرت المطبوعات تردد مطالب تلك الشعب السياسية والثقافية.

وفى آذربيجان دار الجدل بنوع خاص حول مشاكل ادخال تدريس العلوم التكنولوجية فى مدارسها، واستعمال اللغة التركية الآذرية فى التعليم، والمطالبة بأن توضع المؤسسات الدينية والأوقاف تحت إدارة موظفين ينتخبهم المسلمون، والمطالبة بحق المسلمين فى إنشاء الجماعات الثقافية وجمعيات البر، والمطالبة برفع جميع قيود نظام الانتخاب التى وضعت للحيلولة دون انتخاب نواب من المسلمين فى البرلمان والمجالس البلدية، والمطالبة بالمساواة فى الحقوق السياسية والمدنية بين المسلمين والروس. وانشئت عدة تنظيمات علنية وسرية فى ذلك الجو السياسى المشبع بالآمال فى تحقيق الأهداف. وكان فى مقدمة هذه التنظيمات " جماعة المسلمين لعموم روسيا " التى ترأسها السياسى الآذربيجانى

---

(٢١) "فوبروسى استوربى"، العدد ٣، موسكوعام ١٩٥٦، ص ١٦٨ .
(٢٢) المرجع السابق، ص ١٧٠ .

على مروان طوبجى باشا. وكـان الهدف الأول لهذه الجماعة هو ضمان الحقوق السياسية والوطنية وتطوير الثقافة القومية والحصول على الحرية الدينية بطريق القانون(٢٣).

وفى ٣ يونيو (حزيران) ١٩٠٧ أصدر القيصر نيقولا الثانى قراراً بحل البرلمان الروسى وتعديل قانون الانتخاب . وكـان من أثر هذا الاجراء الرجعى ان نقص عدد النواب المسلمين فى البرلمان من عشرة نواب الى ستة فقط. ولم يكن هذا التخفيض لعدد النواب المسلمين فى البرلمان الروسى أمراً حدث بالمصادفة، فان المنشور الذى أرسله ستوليبين رئيس الوزراء الروسى الى لوكيانوف رئيس المجلس الدينى الأعلى فى عام ١٩١٠ يوضح الموقف توضيحاً كـافياً من جوانبه السياسية. فقد جاء بذلك المنشور ما يلى:

ان الصراع القائم بين العالمين المسيحى والاسلامى لم ينشأ لسبب دينى فقط، بل علينا ان ندرك أنه صراع له طبيعة سياسية وثقافية دولية. وهنا يكمن بالتأكيد السر فى النجاح الذى أحرزته الدعوة الاسلامية فى الآونة الآخيرة. وان لنجاح هذه الدعوة فى وطننا روسيا لخطورة كبرى، إذ ان مسلمى روسيا وان كـانوا ينقسمون فيما بينهم الى شعوب وقبائل مختلفة تتحدث بلهجات تختلف عن بعضها بعض الاختلاف، الا اننا لا يجب ان ننسى اطلاقاً انها جميعاً من أصل تركى واحد يتحدث الجميع نفس لغته(٢٤).

وبعد صدور المرسوم القيصرى المؤقت فى ٤ مارس (آذار) ١٩٠٦ الذى ضمن لغير الروس حق تأسيس الجمعيات، أرسل وزير داخلية حكومة روسيا منشوراً الى حكـام الولايات التابعة للامبراطورية الروسية يشكو فيه من الأوضاع التى نشأت لا سيما بعد صدور ذلك المرسوم. وجاء فى ذلك المنشور ما يلى :

ان حركة تأسيس الجمعيات تنطوى على نشاط يؤدى الى ايقاظ الوعى السياسى بين الأهالى والى بعث الروح القومية فى البلاد. ولهذه الأغراض نفسها تؤسس جمعيات تحت اسماء مختلفة غايتها توحيد صفوف غير الروس من أجل تحقيق مطالبهم القومية. لذلك وبناء على المادة السادسة من الفصل الأول من المرسوم الصادر، يجب عدم منح تصريحات بتأليف مثل هذه الجمعيات(٢٥).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ان الوزير فى منشوره المشار إليه، طلب تسجيل أسماء " دعاة هذه الحركـات الاسلامية الخارجة على القانون " واتهم كثير من المثقفين

---

(٢٣) الدكتور تشارلز و. هوستلر : "توركن اوند صوفيتس"، فرانكفورت و برلين عام ١٩٦٠، ص ١٦٥.
(٢٤) ل. كـليموفيتش: "اسلام ف. تسارسكوى روسيسيى"، موسكو عام ١٩٣٦، ص ٢٢٥–٢٢٦ .
(٢٥) المرجع السابق، ص ٢٢٦ .

الذين يتحدثون باللغة التركية الوسطى بانهم "جواسيس لتركيا"(٢٦). وحرم النشاط السياسى على زعماء المسلمين الذين تعرضوا لضغوط سياسية شديدة مما اضطر بعضهم الى الهجرة الى تركيا.

ولقد أثار هذا الموقف الروسى ثائرة المثقفين المسلمين فى آذربيجان ونشطت الأحزاب السياسية وأثبتت انها دخلت مرحلة جدية فى تنظيم حركات التحرير الوطنى. وكان فى مقدمتها لحزب المساواة الشعبى الآذربيجانى الذى أعلن برنامجاً سياسياً قومياً وتقدم الأحزاب جميعاً فى خوض المعركة من أجل استقلال البلاد. ووجه محمد أمين رسول زادة رئيس تحرير صحيفة "آجيق سوز" لسان حال حركة التحرير الوطنى الآذربيجانى، وبصفته زعيماً لحزب المساواة الشعبى الآذربيجانى نداءاً الى جميع المسلمين فى روسيا جاء فيه:

وحتى الدولة المنتصرة لن تستطيع فيما بعد ان تستهين بمبادىء القومية والحرية...

وانه على الجماعات القومية التى ترجوا تدعيم كيانها كشعوب مستقلة ان تدرك أولا وقبل كل شىء حقيقة أهدافها، ثم عليها ان تلتف حول مبادىء ثابتة وغايات هادفة، اما الجماعات التى لا تتمتع بمثل هذه القوى ومثل هذه الصفات فانها لن تستطيع ان تقف على قدميها ولن تستطيع ان توصل صوتها الى احد(٢٧).

وعلى أثر انفجار الثورة الديموقراطية فى روسيا فى فبراير (شباط) ١٩١٧، انعقد مؤتمر مسلمى روسيا فى موسكو من ١–١١ مايو (أيار) وقام بدراسة مشروع "الاستقلال الداخلى ضمن كيان روسيا الفدرالية" وهو المشروع الذى قدمه للمؤتمر محمد رسول زادة ووافق المؤتمر عليه بأغلبية ٤٤٦ صوتاً ضد ٢٧١ صوتاً(٢٨).

ولقد لعب هذا الحزب دوراً هاماً كذلك فى المؤتمر الذى عقده مسلموا القوقاز بمدينة باكو فى ابريل (نيسان) ١٩١٧، وحصل على أصوات ٤٠٥ آلاف ناخب من ٦٣٠ الف اشتركوا فى الانتخابات التى أجريت لاختيار نواب مسلمين للمجلس التأسيسى الروسى(٢٩).

وكما هو معروف، لم يستطع السياسيون الذين تولوا الحكم فى روسيا بعد ثورة فبراير (شباط) ان يحافظوا على سلامة البلاد، ولا هم استطاعوا ان يتجاوبوا مع مطالب الشعب فى روسيا، ولم يكونوا ذوى فطنة أو مرونة كافية لكى يحتفظوا بمواضعهم من المسؤولية فى حكم روسيا، فلم يلبث البلاشفة ان استولوا على الحكم فى اكتوبر (تشرين الأول)

---

(٢٦) المرجع السابق، ص ٢٤٩–٢٥٠.
(٢٧) "آجيق سوز"، العدد ١، باكو فى ١٩١٥/١٠/٢.
(٢٨) الاستاذ جيرهارد فون مينده. "دير ناسيونالى كامف دير روسلاند توركن"، برلين عام ١٩٣٦، ص ٣.
(٢٩) و. ويتنسكى: "لاديمقراسى جيورجيين"، باريس عام ١٩٢١، ص ١١٣.

من نفس العام (١٩١٧). فالبلاشفة الذين وعدوا الفلاحين بالأرض، والعمال بالمصانع، والشعوب بالاستقلال، لم يرو بأساً من انتخابات حرة للمجلس التأسيسى معتمدين على ما أطلقوه من شعارات تتجاوب بحماس مع مطالب جميع فئات الشعوب الروسية. ولكن جاءت نتيجة الانتخاب مخيبة لآمالهم، فلم يحصلوا الا على ١٧٥ مقعداً مقابل ٧٠٧ مقاعد حصل عليها الاشتراكيون الثوريون. وفى ٥ يناير (كانون الثانى) ١٩١٨ اجتمع المجلس وانتخب جرنوف زعيم الاشتراكيين الثورين رئيساً له بأغلبية ساحقة. ثم أدرك البلاشفة أنه لا سبيل لهم للحصول على السلطة بطريق دستورى، فلجأوا فى اليوم التالى الى تهديد خصومهم بالسلاح وتمكنوا من حل المجلس التأسيسى.

أما الشعوب التى خضعت للسيطرة الروسية، فانها من جهتها كانت عازمة على المضى فى طريق الاستقلال مهما كانت الظروف. وفى الفترة التى تلت تلك الأحداث اجتمع ممثلوا القوقاز الجنوبية من المجلس التأسيسى فى مدينة تفليس فى ٢٢ ابريل (نيسان) ١٩١٨ مستندين الى حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها وأعلنوا فى بيان صدر عن برلمان القوقاز الجنوبية تأسيس جمهورية القوقاز الجنوبية الديموقراطية الفيدرالية. ولكنهم على أثر جدال فكرى أساسى حول موضوع " الحرب والسلام " رجعوا عن فكرة الاتحاد الفدرالى وقرروا تأسيس دول قومية مستقلة. وبناءاً على ذلك أعلنت حكومة جورجيا استقلال البلاد التام فى ٢٦ مايو (أيار) ١٩١٨ وكانت القوقاز الشمالية قد سبقت باعلان استقلالها فى ١١ مايو (أيار) من نفس السنة. ولم يكن هذا بالطبع ما يرتاح إليه البلاشفة أو يسكتوا عليه، فعهدوا الى القوميسير البلشفى ستيبان شاوميان بمهمة عرقلة حركات الاستقلال للشعوب القوقازية جميعها. وعلى أثر فشله فى مهمته، لم يجد بدأ فى شهر مارس (آذار) ١٩١٨ من اثارة الفتنة معتمداً على تعاون غير المسلمين من سكان باكو مع الجنود الروس العائدين من ميادين الحرب، وجرت فى المدينة مذابح عامة انتهت بان أقام البلاشفة على دماء الوطنيين من أهالى البلاد حكومة سوفييتية موالية لموسكو. وهذه الفتنة التى تصفها المراجع التاريخية السوفييتية والكتاب السياسيون السوفييت بأنها " معركة الكادحين الاشتراكيين الآذربيجانيين فى سبيل الثورة "(٣٠)، وصفها الشعب الآذربيجانى بأنها " مذبحة مارس " التى كلفت أهل البلاد زيادة على تحطيم مراكز العبادة والثقافة والفن فيها، استشهاد ١٨ الف مسلم. واستمر هذا الحكم الدموى فى باكو مدة خمسة شهور،

---

(٣٠) ز. ابراهيموف: "آذربيجان امكجيلزنيك سوسياليست انقلابى ايجن يابدقلرى صاواش"، باكو عام ١٩٥٧.

عادت بعدها حكومة جمهورية آذربيجان الى حكم البلاد فى ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ بفضل مساعدة القوات المسلحة التركية.

وعاشت جمهورية آذربيجان القومية فى سلام وأمان ما يقرب من سنتين وهى تحترم حقوق الانسان وتطبق مبادىء الحرية بكل ما فى هذه الكلمة من معان. وعلى قصر مدة بقائها فى الحكم، فقد أدت خدمات جليلة وشرعت فى أعمال عظيمة لصالح البلاد، وفى مقدمتها صدور قانون الاصلاح الزراعى، وقانون العمل، وقانون ضمان حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، وانشاء مصرف للدولة، وانشاء جامعة فى باكو — تلك الجامعة التى لم يستطع الشيوعيون ان يخفوا الحقيقة بشأنها. ففى الكلمة التى ألقاها حيدر علييف زعيم الحزب الشيوعى فى آذربيجان بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على انشاء الجامعة فى باكو فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٦٩، اضطر علييف ان يذكر الحقيقة وان كان بطريق غير مباشر فقال:

ومع أن تاريخ تأسيس جامعة باكو قد وافق تاريخه ستة أشهر قبل تحقيق النصر النهائى للثورة الآذربيجانية الا اننا نستطيع القول بأنها ثمرة نظام الحكم السوفييتى(٣١).

ولم يخجل علييف من ان يضيف الى كلامه القائم على المغالطة ان جامعة باكو انما قد إنبثقت من اتجاهات وأفكار وليدة مبادىء ثورة اكتوبر(٣٢). والواقع هو ان أعضاء البرلمان الآذربيجانى الذين صوتوا فى أول سبتمبر (أيلول) ١٩١٩ لصالح مشروع القانون بانشاء هذه الجامعة لم يستلهموا أفكار ثورة اكتوبر فى مواقفهم ولم تكن اتجاهاتهم وليدة مبادىء ثورة اكتوبر كما يدعى علييف، مع استثناء عضو واحد فى البرلمان هو النائب الشيوعى الوحيد على حيدر كارايف والمرشح الوحيد فى الانتخابات عن الحزب الشيوعى الاشتراكى الآذربيجانى.

ونعود الى موضوع جمهورية آذربيجان القومية المستقلة التى لم تعش سوى عامين اثنين من يوم اعلان استقلال آذربيجان وتأسيس الجمهورية فيها فى ٢٨ مايو (أيار) ١٩١٨ الى ان انتهت على يد قوات الجيش الأحمر التى احتلت آذربيجان فى ٢٧ ابريل (نيسان) ١٩٢٠. وكانت الدول الحليفة، التى كسبت الحرب العالمية الأولى، قد اعترفت باستقلال آذربيجان وبالحكومة الجمهورية فيها فى مؤتمر فرساى اعترافاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض. بل ان لينين كان قد طلب من حكومة جمهورية آذربيجان مساعدته فى

---

(٣١) "باكينسكى رابوتشى"، باكو فى ١٩٦٩/١١/٢.

(٣٢) نفس المرجع السابق.

الحرب الأهلية الروسية، ولـكن لم يلبث ان انقضت على هذا العرض اللينينى مدة وجيزة حتى احتلت الجيوش البلشفية أراضى جمهورية آذربيجان المستقلة، ووصفوا هذا الغزو بأنه " الثورة والتحرير". وما حدث حقيقة فى آذربيجان لم يكن الا عدواناً على أراضى وسيادة دولة مستقلة، ثم قاموا بتمثيل مسرحية " لجنة الثورة " التى وضعوا على رأسها عدداً من المرتدين ممن حضروا مع جيش الغزو. واذاعت موسكو ان لجنة الثورة هذه " استنجدت " بالجيش الأحمر وطلبت منه تدخله رسمياً ليناضل فى صف آذربيجان " ضد الرجعية والتدخل الامبريالى الأجنبى " فلم يسع الحكومة الروسية السوفييتية الا ان تقدم " تحالفها الاخوى " لمن طلبوا نجدتها. ثم أرسلت قيادة الجيش الأحمر الحادى عشر برقية الى لينين تبشره " بتحرير باكو" جاء فيها :

ان الـكادحين الآذربيجانيين قد استقبلوا الجيش الأحمر الذى حررهم من مظالم الرأسمالية بسرور بالغ، كما أنهم حيوه تحية من أنقذهم من هذه المظالم(٣٣).

وجدير بالذكر هنا ان لينين كتب بخط يده على هامش تلك البرقية ملحوظة وجهها الى مساعدة ستالين قائلا :

هل ترى نشر هذه البرقية فى الصحف ؟ وبعبارة أخرى انه حتى لينين نفسه لم يكن يدرى ان كـان من الصواب نشر أخبار ذلك التزييف على صفحات الجرائد.

أمـا البرقية التى أرسلتها لجنة الثورة الآذربيجانية المزعومة الى لينين فقد ورد بها مـا يأتى :

ان لجنة الثورة العسكرية المؤقتة لجمهورية آذربيجان المستقلـة التى تولت الحكم بناءاً على إرادة البروليتاريا الثوريين فى باكو والفلاحين الآذربيجانيين الـكـادحين، تعلن ان حكومـة حزب المساواة السابقة عدوة للشعب وعدوة لاستقلال البلاد.(٣٤)

ورجته فى ارسال وحدات أخرى من الجيش الأحمر للقتـال فى صفها ضد " الامبريالية العالمية "(٣٥). ومعنى ذلك بوضوح ان الجيش الأحمر الذى احتل آذربيجان دعا نفسه إليها بنفسه.

ولـكن مقاومة المسلمين لم تتوقف نهائياً بنجاح الغزو، فقد استمرت المقاومة الى وقت طويل بعده، وظلت نيران الثورات تتأجج من حين لآخر. فى ٢٦ مايو (أيار)

---

(٣٣) "او برازوفانييه س.س.س.ر." و"بلـكه لركـلياتى" (١٩٢١–١٩٢٤) موسكو/لننجراد، عام ١٩٤٩، ص ١٥٥ .

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٥٦ .

(٣٥) نفس المرجع السابق .

١٩١٨ أى بعد ثمانية وعشرين يوم من الاحتلال اندلعت الثورة فى كنجة ضد المحتلين البغاة. ويقرر مير جعفر بكيروف وزير داخلية آذربيجان منذ عام ١٩٢٠ فى تقرير له فى عام ١٩٢٥ بأن ٥٢ ثورة ما بين كبرى وصغرى قامت فى البلاد ضد نظام الحكم السوفييتى.

الاقتصـــاد

ان آذربيجان بلاد ذات انتاج وفير ومتنوع. فأراضيها الخصبة تعطى إنتاجاً وفيراً من الأقطان والحرير والكروم، وإنتاج الأسماك فيها يحقق محصولات عالية وجيدة وذلك بالاضافة الى البترول والمعادن التى تستخرج من باطن أرضها، ولذلك فقد احتلت آذربيجان مكاناً هاماً فى الاقتصاد الروسى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وفيما يختص ببترول آذربيجان فانه كان يصدر الى الهند والشرق الأدنى وشرق أوروبا منذ القرن التاسع عشر. وفى عام ١٨٧٢ بلغ الانتاج السنوى من البترول الخام ٢٣ الف طن زاد فى عام ١٩٠١ الى ١٠ ملايين و ٧٧٠ الف طن وكان هذا الرقم يعادل آنذاك ٩٥٪ من جملة الانتاج السنوى للبترول فى العالم(٣٦). وفى عام ١٩٤٠ بلغ الانتاج السنوى منه فى آذربيجان وحدها ٢٢ مليون و ٢٠٠ الف طن(٣٧). وبعد الحرب العالمية الثانية اكتشف البترول فى حوض نهر كور وانشئت الآبار لاستخراجه عند مراكز عديدة منه. ثم اكتشف الغاز الطبيعى كذلك فى اقليم قاراداغ واقليم زيره وغيرهما. ويذهب الجيولوجيون الى ان مخزون البترول الخام فى أرض جمهورية آذربيجان تبلغ كميته مئات المليارات من الأمتار المكعبة(٣٨).

هذا وقد بلغ مجموع ما انتج من البترول الخام فى آذربيجان منذ ان بدأت السلطات الحكومية فى تولى إنتاجه حتى عام ١٩٦٥ ما قدره ٩٠٠ مليون طن، ٧٤٪ منها فى العهد السوفييتى وحده(٣٩). وفى عام ١٩٦٥ بلغ الانتاج السنوى ٢١ ½ مليون طن من البترول الخام، و ٦ مليارات و ١٠٠ مليون متر مكعب من الغاز الطبيعى. اما فى عام ١٩٧٠ فقد

---

(٣٦) ا. حاجى زاده . "آذربيجانسكايا س.س.ر."، باكو عام ١٩٦٧، ص ٣٣ .
(٣٧) المرجع السابق، ص ٣٥ .
(٣٨) المرجع السابق، ص ٣٧ .
(٣٩) المرجع السابق، ص ٤٠ .

كان الهدف زيادة الانتاج السنوى الى ٢٣½ مليون طن من البترول الخام، و ٨ مليارات متر مكعب من الغاز الطبيعى(٤٠).

ولقد تطورت الصناعات الكيمائية فى آذربيجان تطوراً ملحوظاً منذ تأسيسها فى باكو فى حوالى السبعينات من القرن التاسع عشر حين انشئت مصانع لانتاج حامض السولفور. وبعد مدة وجيزة من انشائها انتجت الصودا الكاوية ومشتقاتها التى تستخدم فى صناعة الصابون، ثم انشىء مصنعاً للبوتاس ثم تبعه ثلاثة مصانع أخرى لانتاج حامض الازوتيك(٤١). واليوم تنتج آذربيجان أنواع كثيرة من المنتجات الكيمائية وفى مقدمتها الزيوت الصناعية التى تعتبر من أجودها فى العالم، كما ان الكاوتشوك الصناعى الذى ينتجه الاتحاد السوفييتى مصدره آذربيجان.

وفى عام ١٩٥٢ انشئت مصانع سوميغات لانتاج أنواع الأسمدة الكيماوية والكيماويات الأخرى اللازمة لمكافحة الآفات الزراعية وتحسين الانتاج.

أما صناعات الحديد والصلب فقد طرأ عليها فى السنوات الأخيرة تطور هائل، ففى عام ١٩٦٥ انتجت آذربيجان ٨١١ الف طن من الصلب(٤٢). وكذلك الصناعات المعدنية الأخرى بخلاف الحديد والصلب فقد أخذت فى التطور منذ انشاء مصانع الألومنيوم فى مدينتى سوميغات وكنجة(٤٣).

أما فى مجال صناعة المحركات فقد تخصصت آذربيجان فى إنتاج ما تحتاجه صناعات البترول وغيرها من الصناعات الآذربيجانية من محركات ميكانيكية أو كهربائية وكذلك قطع الغيار اللازمة لهذه الصناعات، ثم المنتجات الكهربائية والالكترونية المنزلية مثل أجهزة الراديو والتلفزيون والثلاجات وأجهزة التدفئة والتكييف والتهوية(٤٤).

وتعتبر آذربيجان أكبر مصدر للطاقة الكهربائية فى القوقاز الجنوبية كلها. فقد انتجت فى عام ١٩٦٥ ما مقداره ١٠ مليارات و ٤٤٠ كيلووات ساعة من الطاقة الكهربائية(٤٥).

وأما من حيث المحاصيل الزراعية فهى بلاد غنية بالخيرات ويأتى فى مقدمة محصولاتها الزراعية القطن والكروم والارز والشاى، وقد اتخذت الحكومة فى السنوات الأخيرة تدابير على نطاق واسع لتحسين وسائل الرى مثل شق الترع والقنوات وانشاء خزانات المياه

---

(٤٠) "رازتزفيت ايكونوميكى اذربيجانسكوى س.س.ر."، باكوعام ١٩٦٧، ص ١١٠ .
(٤١) المرجع السابق، ص ٢٩–٣٠ .
(٤٢) المرجع السابق، ص ١١٠ .
(٤٣) ا. حاجى زاده: المرجع السابق ذكره، ص ٤٨ .
(٤٤) "رازتزفيت ايكونوميكى آذربيجانسكوى س.س.ر."، ص ١٠٠ .
(٤٥) نفس المرجع السابق .

وبناء السدود. فالقنوات التى تم حفرها فى شيروان وقاداباغ التى تستمد مياهها من خزان منكه جوير تروى مـا يزيد على مليون هكتار من الأراضى الزراعية فى وادى نهر كور ووادى نهر آراس.

وتحظى الثروة الحيوانية الآذربيجانية بمكـانة مرموقة فى الاقتصاد السوفييتى ، إذ ان أفضل أنواع الأبقار هى التى تربى فى آذربيجان. وساعد على تطوير إنتاج الصوف وجود المراعى الجيدة التى يلائم مناخها الأغنام المنتجة للصوف وقد حققت تقدماً لا بأس به.

وتعتبر آذربيجان من أكبر المصادر التى تضمن الخامات اللازمة لصناعة نسج الحرير الطبيعى فى الاتحاد السوفييتى ، فهى تنتج سنوياً أكثر من ٣٢٢٠ طن من حرير دودة القز والخام.

وبالاضافة الى ذلك فآذربيجان تملك وسائل مواصلات برية وبحرية وجوية على درجة عالية من الكفاءة. فشبكة السكة الحديدية تربط جميع المراكز الاقتصادية والعمرانية ببعضها. كما انها تربط المدن الرئيسية فى آذربيجان بموسكو وبالعواصم الاخرى فى روسيا والجمهوريات السوفييتية المجاورة، وذلك الى جوار شبكة طرق السيارات التى تربط جميع مناطق البلاد.

ويعتبر بحر قزوين من أهم الوسائل لنقل البضائع والبترول وغير ذلك من الحاصلات الصناعية والزراعية كما أنه يدعم العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفييتى وايران. والى جوار بحر قزوين، فان نهر كور يلعب دوراً فى مجال الملاحة الداخلية ونقل البضائع.

وهناك شبكة من الخطوط الجوية التى تربط باكو برحلات منتظمة بموسكو ولينينجراد وكييف وطشقند ومنسك واوديسا.

وهناك خط لأنابيب البترول ينقل البترول ومنتجاته من باكو الى باطوم على البحر الأسود وقطع أراضى القوقاز من أقصى شرقها الى أقصى غربها.

الأدب فى آذربيجـان

ان تاريخ الأدب التركى الآذربيجانى تاريخ قديم ويزخر باغنى مواد الفولكلور. وهنا لن نتناول أقطاب الأدب مثل نظامى كنجوى وحقانى شيروانى وفلكى شيروانى وابولؤلاى كنجوى من حيث أنهم كتبوا أعمالهم باللغة الفارسية، ولكننا سوف نتناولهم من حيث أنهم أدباء التصقوا ببيئتهم التى عاشوا فى وسطها وعبّروا عنها تعبيراً صادقاً سواء من الناحية الموضوعية أو من الناحية الروحية.

وأقدم عمل معروف باللغة التركية الآذرية هو ديوان الشاعر حسن اوغلى الذى عاش فى آذربيجان فى أواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر. وكـان ديوانه هذا معروفاً فى جميع أنحاء آذربيجان والأناضول وظلت أشعاره حية تناقلتها عدة أجيال متعاقبة. وصاحب الديوان الآخر بالتركية فى آذربيجان هو القاضى برهان الدين سلطان سيواس الذى عاش فى القرن الرابع عشر وكـان أديباً مجدداً. ولـكن أهم من عاشوا فى القرن الرابع عشر من أدباء التركية الآذرية هوولا شك نسيمى، عالم الأدب الصوفى فى آذربيجان، وكـان له مقام عظيم فى الأدب التركى عامة لما كـان لـه من تأثير قوى فى أجيال عديدة أتت بعده. وممن تأثروا به أقطاب فى الأدب مثل حبيبى وحطائى وفضولى الذين اتوا بعده بقرنين من الزمان.

وحطائى من أشهر شعراء التركية الآذرية واسمه الـكـامل "شاه اسماعيل حطائى"، عاش فى القرن السادس عشر وتتميز أشعاره بخصائص فلسفية. اما فضولى فأنه يعتبر أهم الشخصيات فى الأدب التركى بوجه عام فى القرن السادس عشر. وانتشرت أشعاره فى كـل أرجاء البلاد الناطقة بالتركية وكـان له تأثير قوى فى الأدب العثمانى والأدب الجغاطائى.

ثم نشاهد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهور الاتجاهات الاقليمية فى الأدب الآذربيجانى. وكـان ذلك بسبب انقسام اذربيجان الى خانيات منفصلة عن بعضها سياسياً. فكـان "مللا بناه واقف" وزيراً لخان قاراباغ، ومولا "ولى ودادى" مواطنه الذى ينحدر من مدينة قازاق من أشهر أدباء عصرهما. وواقف هو الذى ابتكر درباً جديداً من الشعر التركى الآذرى الذى يسمونـه "قموشما". وتتميز أشعار واقف باسلوب غنائى موسيقى راقص فى شكـلها، ثم انها تعكس فى مضمونها ألوان الحياة ومعانيها وحب الحياة وقيمة الدنيا. ولا زال المثل الشائع فى التركية القائل "ليس كـل قارىء مولا بناه" محتفظاً بقيمته الى يومنا هـذا.

وبطبيعة الحال كـان للتغيرات السياسية الجذرية التى حدثت فى آذربيجان فى أوائل القرن التاسع عشر أكبر الأثر على الثقافة الآذربيجانية والأدب الآذربيجانى. وبتأثير من الآداب الأوروبية فى القرن الثامن عشر نشأ اتجاه جديد فى الأدب الآذرى يحاكى الآداب الأوروبية. ويمثل هذا الاتجاه الأديب المسرحى الناقد المفكر ميرزا فتح على اخوندزاده الذى تأثر بدوره بالفيلسوف ميرزاشفيع وبالمؤرخ المربى الشاعر عباس قولى آغا باكوخانلى وبالشاعر قاسم بك ذاكر. ومؤلفات كـل من ميرزاشفيع وباكوخانلى معروفة لدى دوائر الأدب فى أوروبا. فمثلا المستشرق الألمانى "فريدريك بودنشتد" فى

كتابة "الف يوم ويوم من الشرق" المطبوع عام ١٨٥٠، وفى كتاب آخر له "من آثار ميرزاشفيع" المطبوع عام ١٨٥١، يتحدث عن الأديب ميرزاشفيع وعن أفكاره بصفة عامة. وكثيراً ما استخدم العلماء الغربيون كتاب التاريخ المسمى "كلستانى ادم" لمؤلفه باكوخانلى كمرجع ينقلون عنه. ووصف النقاد الأوروبيون ميرزا فتح على اخونزادة بأنه "موليير الشرق" ولقبه النقاد الروس بأنه "جوجول". واخونزادة الى جوار أنه كاتب مسرحى إسلامى عظيم، فان مسرحياته تتضمن الكثير من النقد الاجتماعى الساخر. وفكاهاته ترجمت الى كثير من اللغات الأوروبية بعد ترجمتها الى اللغتين الروسية والفارسية، وظل الأدب الآذربيجانى حتى عام ١٩٠٥ تحت تأثير كتاباته.

ومن أقطاب الأدب الآذربيجانى فى ذلك العصر، وهم أيضاً كتاب مسرحيون، نجف بك وزيرلى وابراهيم بك حق ويديلى، وجليل محمد قولى زاده، وحسن بك زردابى مليك زاده الذى أسس صحيفة "اكينجى" الناطقة بالتركية، والشاعر سيد عازم شيروانى مؤسس مدارس الأصول الجديدة فى آذربيجان.

لقد فتحت ثورة ١٩٠٥ أبواب تطور جديد فى الأدب الآذربيجانى والثقافة الآذربيجانية بعد ان هب نسيم الحرية على البلاد واتيح للقوى الوطنية والتقدمية ان تمثل مراكز قيادية فى البلاد. فمسرح تاغييف الدرامى بباكو، ومدرسة المعلمات الاسلامية الأولية، "وسراى الاسماعيلية للجمعية الخيرية الاسلامية" و "مدرسة السعادة" وجمعية نشر المعارف، ومدرسة كنجة الدينية، وجماعة المسرح الدرامى، كلها كانت وليدة تلك المرحلة العظيمة من تاريخ الثقافة الآذربيجانية.

وفى ذلك العصر نشأ تياران أدبيان رئيسيان، أحدهما تيار المدرسة الشعبية الواقعية التى مثلها مجموعة الكتاب الذين التفوا حول مجلة "مللا نصر الدين" التى كان يصدرها جليل محمد قولى زادة ويروجون لمبادئها ومن ابرزهم ميرزا على اكبل وصابر طاهر زاده. أما التيار الثانى فكان يتمثل فى مجموعة الكتاب الذين التفوا حول مجلة "فيوضات" التى كان يصدرها على بك حسين زاده وكانوا يمثلون المدرسة المثالية الرومانطيقية وابرزهم محمد هادى شيروانى.

وتطورت المسرحية الآذرية فى ذلك العصر تطوراً ملموساً على الملحن عزيز بك حاجى بيلى الذى ألف أول اوبرا آذربيجانية عام ١٩٠٧ وهى اوبرا "ليلى والمجنون" للشاعر فضولى، واوبريت "آرشين مال آلان" ولاقت نجاحاً عظيماً فى جميع البلاد القوقازية التى عرضت فيها وحتى فى ايران وتركستان والقرم والبلقان.

وفى تلك الفترة كانت المطبوعات الآذرية تردد الأفكار التى تؤيد حركة الاستقلال القومى. وكان الشاعر ابراهيم طاهر من ابرز الذين نشرت لهم صحيفة "آجيق سوز" الذين كانوا يعبرون عن الإرادة القومية الحقيقية. وقال فى احد ابياته:

"أملنا الوحيد هو إستقلال شعبنا"

وبلغت هذه الجهود الصادقة أهدافها القومية فى يوم ٢٨ مايو (أيار) ١٩١٨ حين أعلن استقلال البلاد. ولكن هذا الاستقلال الوليد ما لبث ان وئد على يد قوات الغزو البلشفية التى تمكنت بعد مذابح رهيبة ان تحتل باكو فى ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩٢٠ وبدأت مع العهد السوفييتى مرحلة جديدة من تاريخ الأدب الآذربيجانى.

منذ اليوم الأول من أيام الحكم الشيوعى فى آذربيجان، كان هدف الشيوعيين هو تسخير الأدب لأغراضهم السياسية واتخاذه وسيلة فى الصراع الطبقى. ولكن هذا الاتجاه لم يلق أى قبول لدى أى من الأدباء أو الكتاب الآذربيجانيين المعروفين فى ذلك الوقت، ولا حتى بين جيل الشباب منهم. وكان هذا الموقف مما دعا مجلة "الثورة والثقافة" التى يصدرها الشيوعيون ان تخاطب شباب الكتاب بلهجة التحذير، وجاء فيما قالته:

فعلى أبناء الجيل التقدمى الجديد من الشعراء وكتاب القصص ان يحذروا تردد أفكار قديمة عفنة، واننا لنرى ان هذا المرض قد تفشت عدواه بين جميع الشباب اليوم(٤٦).

وللشاعر حسين جاويد أثر بعيد المدى على نفوس جيل الشباب من الأدباء فى ذلك الوقت بديوانية "الأيام الماضية" و"ندى الربيع"، ومسرحياته الشعرية "شيخ صنان" و"ابلس" و"اوجوروم" و"آفت" وغيرها التى كان يتناول فيها موضوعات تاريخية قومية. وبلغ ذروة فنه ولا شك فى مسرحيته الشعرية "سياوش" فى وقت كانت ثورات الفلاحين على تطبيق النظام الجماعى تهز أرجاء آذربيجان هزاً. وعلى لسان بطلها القاى كان جاويد يلقن المناضلين فى سبيل الحرية ان "كونوا أباة فى وجه الظلم" و"حاربوا فى سبيل الحق بشجاعة وبطولة" و"ان جنية السعادة لن تخضع الا لأيدى من حديد".

وأما أحمد جواد الشاعر الآذربيجانى الذى حصل على لقب "الشاعر القومى" فى عهد جمهورية آذربيجان المستقلة، فقد كان أثره على الشباب أعظم. ولذلك كان دائماً موضوعاً تحت رقابة رجال البوليس السرى الذى لم ينفك يمارس عليه شتى أنواع الضغوط.

وجعفر جبارلى مؤلف قصيدة "قيزقوله‌سى" الحماسية التى رمز بها الى حركة التحرير القومى الآذربيجانى، كان هو الآخر من الشعراء الذين تأثر بهم جيل الشباب، وفتح

---

(٤٦) "انقلاب ومدنيت"، العدد ٤–٥، باكو عام ١٩٢٧، ص ٧٢.

بأعماله المسرحية بابا جديدا. وفيما سبق عام ١٩١٨ كان جعفر جبارلى قد وضع عدة مسرحيات درامية مثل "وفالى سرية" وكوزياشى ايجنده قهقهة" و "اصلان وفرحات" و "ونصر الدين شاه" و ادرنه نك فتحى" و "طربلس محاربه لرى". وفى العهد السوفييتى وضع مسرحيات أخرى كثيرة مثل: "آيدين" اوكتاى "اودكلينى" وفى عام ١٩٠٥ "سويل" "المظ" و "ياشاد".

يقول جبارلى فى مسرحية "آيدين" على لسان بطلها "آيدين" (آى الدين) أمن العدل هذا؟ ان يكون حاكم الحجاز تركياً، والهند انجليزياً وآذربيجان روسياً؟ كأنما فى طيات عباراته هذه احتجاجه على الآيديالية.

يقول ناقد سوفييتى منصف:

ان جبارلى قد استطاع بفنه البنّاء ان يجعل الدراما الآذرية تحاكى أشهر الدرامات الكلاسيكية العالمية، وعرف كيف يستفيد منها. فمس موضوعات عصرية بشجاعة واقدام مثل ابشن، وكان متمرداً مثل شيللر، وخصب الخيال مثل شيكسبير، ومثالياً مثل غوركى. وكان واسع المعرفة ومتفحصاً فوضع بكل هذه الصفات أسس الواقعية فى الأدب الآذربيجانى.

ان جبارلى فى الوقع كان فناناً ثائراً يملك الشجاعة الأدبية لأن يصرخ فى وجه لجنة سكرتارية المؤتمر الأول للكتاب السوفييت الذى عقد فى موسكو عام ١٩٣٢ ويقول لهم:

ما لم يكن الفنان حر الادارة، فلا يمكنه ان ينتج فناً صادقاً. فعملية الانتاج بالتوصية لا تتفق اطلاقاً وخاصية الفن.

وهذا ناقد شيوعى يهاجم الأدباء الآذربيجانيين ويقول:

ان الأدباء من أمثال حسين جاويد وأحمد جواد وجعفر جبارلى وغيرهم من الشعراء والكتاب يستوحون أفكارهم من غزوات الأتراك القدماء، أو من بادية بلاد العرب القديمة، أو من ملحمة "قيزقوله‌سى" أو من صور رمزية لكوك كول التى تأسر البابهم. فهؤلاء الرجال جميعاً لا يرغبون فى القيام بأعمال ذات فائدة حقيقية للبلاد(٤٧).

وقال مصطفى قولوييف قوميسير المعارف فى العهد السوفييتى:

لم تنجح الثورة بالتأكيد فى التأثير على الكتاب والمثقفين الذين غذّوا أفكار البورجوازية فهؤلاء الكتاب والمثقفون عدموا الارادة، خائروا القوى، خائفون من مواجهة الحياة، أما ان يستسلموا للتشاؤم واليأس، أو أنهم يفرقون أنفسهم فى تيه جماليات الفن(٤٨).

---

(٤٧) المرجع السابق، العدد ٩ لعام ١٩٢٦، ص ٢٦.

(٤٨) المرجع السابق، العدد ٤ لعام ١٩٢٨، ص ٦.

ولكن واقع التاريخ أثبت ان هؤلاء الكتاب والمثقفين ما كانوا عديموا الارادة وخائروا القوى كما أراد مصطفى قولوبيف ان يصورهم. فقد بقوا هم أصحاب التأثير فى الحياة الثقافية فى البلاد، ولم يكن سواهم الذين وقفوا وقفتهم البطولية فى وجه الادارة الشيوعية وهى فى أوج قوتها وبطشها ليعارضوا عزمها على ترويس الحياة الثقافية الآذربيجانية فى المؤتمر الذى عقد فى باكو ١٩٣٧ الذى تقرر فيه تغيير صروف الكتابة العربية الآذرية وكثير من المصطلحات الى الروسية تحت ضغط الارهاب الستالينى الذى بلغ أعتى وأحد صورة فى ذلك الوقت. ولم يجرؤ كاتب كبير أو صغير بخلاف محمد قولزادة وجعفر جبارلى من الوقوف فى وجه هذا الاستبداد والبغى. ولم يفلتا من الانتقام والأرهاب الستالينى الا بأن وافتهما المنية قبل ان تصل إليهما يد الظلم.

ومهما كان، فبرغم الظروف القاسية التى أخذت تسود البلاد وتكتم على انفاسها، فان قوة المقاومة الشعبية أثبتت لقوى الطغيان وجودها فى كل وقت وفى كل مجال. فالمسرحية الدرامية "واقف" للشاعر صمداورغون، وقصيدة "قمر تبريز" للشاعر جعفر خندان تقدمان أكبر دليل على صدق هذا القول. فمسرحية "واقف" مليئة بشعارات ونداءات قومية. وقصيدة قمر تبريز التى استوصاها الشاعر من حكايات "ده ده كوركوت" موجزها كالآتى:

يقام عرس شاه اسماعيل فى تبريز، فيأتى إليه المهنئون من كل صوب، وبين القادمين أمير الهند ويرى أمير الهند الفتاة قمر التى يضىء جمالها أرض أذربيجان فيفتتن بحسنها وبمهارتها فى ركوب الخيل ويقع أسير هواها. ثم يتزوجها ويصحبها معه الى الهند حيث تعيش فى ترف وأبهة. ولكن تأتى لحظة تفارقها السعادة ويقطب جبينها ولا تولد على شفتيها ابتسامة. أنه الشوق الى الوطن والحنين الى الديار. وذات يوم ترى قمر فى منامها رؤيا تعسة: أعداء يغيرون على وطنها آذربيجان ويحتلون أرضه. وتقوم قمر من نومها فزعة مرتاعة وتسقط مغشياً عليها، ولكنها لا تفيق أبداً. ويحتار الجميع، الحكماء والأطباء وكل أهل القصر. ولكن هيهات ان يهتدى الى السر احد، لماذا ذوت حياة قمر!.

ويصور الشاعر جانباً من الأحداث فى الأبيات الآتية:

قد استشير مئات المرات
أطباء القصر والبلاط
لكن لم يصل أى واحد
إلى سر ذلك المرض

لِمَ لا تبتسم قمر ؟
لَم يعرف السر أهل القصر
فكما لا يستغنى البلبل عن الخضر
لا يستغنى المرء عن الوطن والديار

وبعد المؤتمر العام العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى الذى عقد فى ١٩٥٦ لتصفية الستالينية ظهرت كثير من الكتابات التى تهاجم الأوضاع فى آذربيجان أيضاً. ولكن قصة "يوره ك دوستلرى" للكاتب على ولييف، وقصة "ياناريوره كه" للكاتب عيسى حسينوف تعرضتا الى نقد لاذع من القادة السوفييت بعد المؤتمر المشار إليه. إذ ان تخفيف القبضة على بيئة الأدب السوفييتى نسبياً فى أعقاب ذلك المؤتمر، لم يدم طويلا وما لبثت الرقابة على الأدب ان عادت الى تشديد قبضتها مرة أخرى. ووقف خروشتشوف رئيس الوزراء السوفييتى فى ذلك الوقت يقول:

ان الفنون والآداب الشيوعية ترتبط بسياسة الحزب ويأسس النظام السوفييتى ارتباطاً وثيقاً لا يمكن فصمه. واننا لن ندع وسائل النشر والاعلام فى أيدى لا تؤتمن ائتماناً كلياً(٤٩).

ومن جهة أخرى وجه الناقد الشيوعى مهدى حسين وهو رئيس اتحاد الكتاب السوفييتى فى آذربيجان انتقاده الى الكتاب المتحررين وأعمالهم قائلا بأنهم عاجزون عن فهم الواقع المعاصر وأدراكه إدراكاً سليماً(٥٠). ثم تعرض للذين نددوا بالستالينية وأشادوا بزملائهم من ضحايا الارهاب الستالينى بقوله:

ان أولئك الكتاب الذين يشيدون باسلافهم بملىء أفواههم بغض النظر عن أى فائدة أيديولوجية يتناسون أنهم يتهجمون بعنف على الأسس الأيدلوجية للأدب السوفييتى بحجة مكافحة العيوب وتقويم الأخطاء(٥١).

كذلك تعرضت أعمال الشاعر الموهوب رسول رضا الى هجوم شديد من أجهزة الرقابة الشيوعية، وخصوصاً قصائده التى نشرت فى مجلة آذربيجان مثل القصائد "إنسان" و"وديوار طاشى" و"قديم ال يا زماسى" و"يا زيق" و"سيغورطة". ويلمح رضا فى قصائده الى ان الناس فى "الجنة" السوفييتية يتمنون الموت كمنة من منن الله على عباده. وفى قصيدته "ديوارطاشى" يشبه الفرد فى المجتمع بحجر فى بناء عظيم شاهق ويطالب ساكنى ذلك البناء بأن يرعوا الاحجار التى يقوم عليها ويحترمونها. وفى قصيدته "يازيق"

---

(٤٩) "آذربيجان"، العدد ٩، باكو عام ١٩٢٧.
(٥٠) "باكينسكى رابوتشى" فى ١٩٥٧/٩/٤.
(٥١) نفس المرجع السابق.

يصور حال نساء اضطررن للحط من إنسانيتهن من أجل الشهوة. وفى قصيدته " سيغورطة " يخاطب موظف مؤسسة التأمين حين يعرض عليه التأمين على حياته من الموت ويسأله عما اذا كان فى إمكانه ان " يؤمن على حياته من الكذب والرياء والافتراء "(٥٢)، ومن أمثلة ما قاله قادة الحزب الشيوعى فى نقدهم لاشعار رضا، ما قاله بيرموف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الآذربيجانى :

ان قصيدة رسول رضا المسماة " إنسان " التى تدعو الناس الى القنوط وخيبة الأمل، وكذلك قصائده " ديوارطاشى " و " يازيق " و " سيغورطه " وغيرها كلها أفكار بعيدة تماماً عن حياة إنساننا المعاصر وأسلوبه فى إدراك معنى الحياة. وان السماح بنشر مثل هذه الأفكار لهو خطأ يشترك فى المسؤولية عنه مجلس إدارة التحرير بقدر مسؤولية المؤلف. إذ كيف يسمح بنشر أعمال من فقد الشعور بالمسؤولية والواجب نحو العمل والبناء(٥٣).

وكذلك أثارت قصيدة " آنا ديلى " للشاعر الموهوب خليل رضا حفيظة قادة الحزب وغضب أجهزة الرقابة فى البلاد بسبب تعبيرة عن حبة للغة القومية، لغة الأم ولغة الطفولة(٥٤). وعند اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الآذربيجانى فى أغسطس (آب) ١٩٦٢ الذى خصص لبحث النشاط الأيديولوجى فى اذربيجان، تحدث ف. اخوندوف السكرتير الأول للجنة عن الشاعر خليل رضا وعن الأديب " لبناه خليلوف" واتهمهما بأن " تفاخرهما بالقومية " دليل على قصور قدرة الخلق عندهما(٥٥). أما مهدى حسين رئيس اتحاد الكتاب السوفييتى فى آذربيجان فقد اتهم خليل رضا " بالانحراف الى تيار" التفاخر الضار بالقومية واظهار العداء نحو الأدب والفن الشيوعى(٥٦). ومما يدعو للغرابة ان مهدى حسين لم ير بأساً فى استخدام تعبيرات مثل " النجوم المتلالئة فى سماوات الروس " و " الفطنة الروسية " فى وصف الكتاب الروس خلال نقده المرلابن وطنه. ثم يقارن بين خليل رضا وبين الشاعر الشيوعى سليمان رستم ويقرأ قصيدته " إمضائى مكتوب " كرد على خليل رضا. وسليمان رستم المشهور بحماسه القديم للنظام الشيوعى وانتمائه إليه، يعترف فى قصيدته هذه بأنه كانت تصله خطابات بدون إمضاء ينتقده فيها مرسلوها ويتهمونه فى قدرته على الابتكار، بل أنه ذكر ما وصله فى احدى هذه الرسائل التى كانت تقول :

---

(٥٢) "آذربيجان"، العدد ٢، باكو عام ١٩٥٩ .
(٥٣) "ادبيات واينجه صنعت"، باكو فى ١١/٤/١٩٥٩ .
(٥٤) "آذربيجان"، العدد ٣، باكو عام ١٩٦٢ .
(٥٥) "كوميونست" فى ٣٠/٨/١٩٦٢ .
(٥٦) "ادبيات واينجه صنعت" فى ٨/٩/١٩٦٢ .

ان رستم ليس لـه أية فائدة لشعبه ولو ضئيلـة، وانه يضيع جهده بلا فائدة، وانه قد ضل الطريق السوى(٥٧).

وكـذلك شكـا حساى وزيروف سكرتير اللجنة المركزيـة للحزب الشيوعى الآذربيجانى الذى كـان يتحدث فى إجتماع باكو فى ٢١ مارس (آذار) ١٩٦٣، من ان المثقفين لا يؤدون المهام التى يسندها الحزب إليهم عامدين، وكـان ذلك فى سياق حديثه عن أسباب القنوط والشعور بخيبة الرجاء والسخط وضعف النفوس ووهن الادارة التى تظهر فى بعض الكتابات(٥٨). ولم يسلم احد من الكتاب المعاصرين تقريباً من نقد وزيروف، ففى رأيه ان شخصيات قصيدة " ديدم ديدى " لمحمد رحيم وقصيدة " تراموای بادقة كيديور" لقابيل امام ويرديف، وكذلك شخصيات قصائد الشاعر مير مهدى سيد زادة كـلهم مصابون بالتكـاسل والوهن والتشاؤم واليأس من الحيـاة. ونالت قصيدة " تراموای بارقـة كيديور" نصيباً خاصاً من هجوم وزيروف ــ وكـانت قد نشرت فى صحيفة سرية هى "آذربيجان كنجلرى". ثم تعرض وزيروف لرواية " يا شامق ايستيروم" التى كتبها خليل رضا بالاشتراك مع الكـاتب الشاب قولو خليوف ووصفها بأنها عمل " ضار" جداً. والقصة تصور حياة اليمة لشاب مريض اسمه " اذر يعالج فى موسكو". ولم يعجب وزيروف ان يكون اسم الشاب مشتق من اسم بلاده التى يرهقه الحنين إليها وتمنى ان يورى جثمانه فى ترابها الناعم العزيز عليه. ويأخذ على القصة انها مليئة " بالايماءات ".

وبرغم الضغوط الشديـدة التى مارسها قادة الحزب الشيوعى على الأدباء والفنانين بعد عزل خروشتشوف حتى يسيروا فى الطريق الذى يرسمه لهم الحزب، فان عدداً ليس بالقليل من المثقفين وقفوا يدافعون عن اللغة القومية وتقاليد الأدب القومى غير عابئين بما يجره ذلك عليهم من مصاعب. ومن أمثلتهم على عباس شكرلى الاستاذ المساعد لعلوم اللغة فى مقاله بعنوان " الكـاتب واللغة " ينتقد فيها موقف بعض المثقفين الذين " يرددون الفاظاً أجنبية فى حين انها غير ضرورية البتة"، ثم يذكرهم بأنه ينبغى تجنب عملية اثراء اللغة القومية عن طريق استعارة الفاظ أجنبية "(٥٩).

وتحدث عليف السكرتير الأول للحزب فى الاجتماع الموسع للجنة المركزية فى آذربيجان فى مارس (آذار) الماضى (١٩٧٠) فى موضوع الآيديولوجية والنشاط الآيديولوجى قائلا :

---

(٥٧) نفس المرجع السابق.
(٥٨) "ادبيات واينجه صنعت" فى ١٩٦٣/٣/٢٣ .
(٥٩) المرجع السابق، فى ١٩٦٨/٨/١٧ .

ان جميع الأعمال الأدبية والفنية لا تفى بحاجات الشعب بالمعنى الصحيح. ويجب علينا ان نضع مصالح الحزب نصب أعيننا ونعتنى بها العناية الكافية، كما يجب ان نتخذ موقفاً لا يسمح بالمصالحة الآيديولوجية مع أية أيديولوجية أجنبية معادية. وهذه هى المبادىء التى يجب ان يلتزم بها كل شيوعى ويدركها جميع الأدباء ويستوعبها كل فنان منتج فى أعماله، ويتخذون منها مرشداً لهم(٦٠).

وهكذا فان كتاب وأدباء آذربيجان ومثقفوها منذ أيام الاحتلال البلشفى لبلادهم يتطلعون الى الحصول على حرية القلم والفكر ويناضلون ضد القيود التى يحاول الحزب الشيوعى دائماً فرضها على عقولهم وأقلامهم، ويرفضون فكرة " الوطنية السوفييتية " التى يتشدق بها عملاء الحزب والداعين لأفكاره، ويتمسكون بقوميتهم ومصالح شعبهم الذى يمقت سيطرة موسكو من أعماق قلبه.

* * *

وخلاصة القول، ان آذربيجان باعتبارها جمهورية اشتراكية سوفييتية فانها طبقاً للدستور السوفييتى قد تنازلت عن بعض حقوق السيادة للسلطات المركزية فى الاتحاد السوفييتى. وليس هناك ما يضمن ان يتطور موقفها الى ما هو أسوأ من ظروفها الراهنة. وبرغم أن المادة السابعة عشرة من دستور الاتحاد السوفييتى تعطيها نظرياً حق الانفصال التام عن الدولة، الا ان هذا الحق لا يزيد عن كونه حبر على ورق، ولا يمكن بأى طريقة ممارسته عملياً ما دامت قيادات الحزب الشيوعى تعتبر أى اتجاه قومى انحراف وخروج على مبادىء الثورة. وحتى لو أرادت آذربيجان ان تتخذ طريق تطورها الاشتراكى الخاص بها الذى يتلاءم مع ظروفها وأوضاعها التاريخية والقومية، فان ذلك غير ممكن، لأن سيطرة الأجهزة المركزية فى موسكو لا تسمح بأن يتسرب أى قدر من السلطة من تحت أيديها. وتحرص كل الحرص على تنفيذ مخططاتها الهادفة الى تصفية أى شكل من أشكال القومية فى آذربيجان وغيرها من شقيقاتها المسلمات وترويس ثقافتها ولغتها وربطها اقتصادياً وثقافياً وسياسياً بعجلة السيطرة المركزية فى موسكو. وبذلك يضمن الروس بقاء نظامهم الاستعمارى السوفييتى الجديد الى أبد الآبدين كما يحلمون.

---

(٦٠) "باكينسكى رابوتشى" فى ١٩٧٠/٣/٢٢ .

القـرم

بقلم: الدكتور اديكه مصطفى كريمال

تقع شبه جزيرة القرم على الجانب الشمالى للبحر الأسود وتحيط بها مياهه من كل جانب عدا ممر يبلغ عرضه سبعة كيلومترات يشبه الرقبة ويربطها من شمالها براً بأراضى أوكرانيا وبقية أراضى شرق أوروبا، وهو ما سماه القرميون ممر "اورقانى"، ثم أطلق عليه الروس بعد احتلال القرم "بيريكوب". ومنذ آلاف السنين كانت القرم وحدة اقليمية مستقلة تمام الاستقلال جغرافياً واقتصادياً وسياسياً، وقامت فيها دول كثيرة تعاقبت منذ قرون بعيدة.

أنشئت جمهورية القرم الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتى فى عام ١٩٢١. وعاشت تلك الجمهورية حتى عام ١٩٤١ حين احتلها الألمان خلال الحرب العالمية الثانية من عام ١٩٤١ الى عام ١٩٤٤. وبعد تراجع الألمان وانسحابهم منها استردها الجيش الأحمر فى ربيع عام ١٩٤٤. واتهمت حكومة ستالين جميع مسلمى القرم "بخيانة الوطن" و"بالتعاون مع العدو". وصدرت أوامر ستالين بمحاكمة شعب بأكمله، وأعدم من أعدم منهم ثم قضى حكم ستالين بنفى الباقين جميعاً من القرم. وبذلك تم ابعادهم وترحيلهم الى بلاد متفرقة من الاتحاد السوفييتى وخصوصاً الى جمهورية التركستان السوفييتية.

وترتيباً على هذه الجريمة النكراء الغى استقلال جمهورية القرم بناءاً على قرار من مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية روسيا الاشتراكية الفيدرالية فى ٢٥ يونيه (حزيران) ١٩٤٦[١]. وقرر نفس الأمر بالنسبة لجمهورية تشيشين انغوش الاشتراكية السوفييتية. وبذلك انزلت هاتان الجمهوريتان الى مرتبة أقل وصارت القرم إقليماً تابعاً لجمهورية روسيا.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تبع ذلك الحاق القرم بجمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفييتية[٢]، بموجب قرار أصدره المجلس السوفييتى الأعلى للاتحاد السوفييتى فى ١٩ فبراير

---

(١) البرافدا فى ١٩٤٨/٦/٢٨ .

(٢) "فيدوموستى فرهوفنوغو سوفيتا س.س.س.ر. اوت ١٩٥٤/٣/٩"، العدد ٤ (٧٩٨)، موسكو، ص ١٤٥.

(شباط) ١٩٥٤. وفى ٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٧، أصدر المجلس السوفييتى الأعلى للاتحاد السوفييتى قراراً آخر بشأن "مواطنين ينتمون الى العنصر التتارى كانوا يسكنون القرم" يرد اعتبارهم إليهم. وجاء فى حيثيات القرار ان الاتهام بخيانة الوطن والتعاون مع قوات الأعداء الذى وجه الى القرميين جملة فى عهد ستالين لم يكن له أى داع أو مبرر منطقى. ولذلك يستوجب الأمر سحب ذلك الاتهام والغاء القرار الذى صدر بموجبه. ولكن لم يرد فى نص القرار أو فى حيثياته أى إشارة الى حقهم فى العودة الى وطنهم. وبذلك يتضح جلياً ان القرار هذا لم يكن سوى ذراً للرماد فى العيون ودخاناً أطلعته موسكو لتخفى تحته الواقع المؤلم الذى يعيشه مسلموا القرم الأبرياء.

وبادر اتراك القرم على أثر صدور القرار برد اعتبارهم وسحب الاتهام ضدهم يسرعون بالعودة الى ديارهم أفراداً وجماعات، ولكن سلطات الأمن المحلية فى القرم منعتهم من دخول البلاد وأخرجت من كان قد دخلها منهم بالفعل بالقوة باستثناء ١٤٨ أسرة فقط كانت قد حصلت على تصريحات بالعودة من سلطات الأمن المحلية فى جمهورية اوزبكستان حيث كان منفاهم(٣). ولا شك فى ان هذا التصرف من سلطات الأمن المحلية فى القرم كان إمتثالا لأوامر صدرت من السلطات المركزية فى موسكو. وحتى يومنا هذا يعيش اتراك القرم منفيين مشتتين فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى(٤).

ولقد أدت هذه الأوضاع المتناقضة التى يعيش فيها القرميون المنفيون خارج وطنهم برغم قرار رد الاعتبار الذى صدر لصالحهم فى عام ١٩٦٧، الى ظهور حركة مقاومة عنيدة بينهم تطالب بتنفيذ رد الاعتبار كاملا، وذلك لا يكون إلا باعادتهم الى ديارهم. وتحظى قضيتهم بتأييد المثقفين فى أوكرانيا وروسيا ويقف الكثير الى جانب قضيتهم وتظهر كثير من الصحف والمطبوعات السرية التى تقف فى جانبهم وقفه جدية الى درجة لفتت أنظار المراقبين الأجانب الذين تسربت عن طريقهم أخبار تلك القضية الى العالم الخارجى الحر(٥).

---

(٣) مستجيب اولوكسال: "لماذا لا يتمكن القرميون من العوده الى وطنهم" – مجلة الأمل – اسطنبول، ١٩٦٩، العدد، ص ١/٤ وصحيفة نيويورك تايمس فى ١٩٦٩/٥/٣ ومجلة بوسيف، فرانكفورت/ماين فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩، ص ١٢/١٣ .

(٤) "لينين بايرغى"، طشقند فى ١٩٦٨/١/١٨ .

(٥) صحيفة "الاوبزيرفر"، لندن، ١٩٦٩/٣/٣٠، وصحيفة "دير شبيجل"، هامبورج فى ١٩٦٩/٤/١٤، وصحيفة "نيويورك تايمس" فى ١٩٦٩/٥/٣، وصحيفة "سيود دويتش تسايتونج"، ميونيخ فى ٧ و ٨ يونيو (حزيران) ثم فى ١٢ و ١٣ يوليو (تموز) ١٩٦٩، وصحيفة "الجارديان"، لندن فى ١٩٦٩/٥/٩، وصحيفة "لوموند"، باريس فى ١٩٦٩/٥/١٠، وصحيفة "ينى غزيته" فى ١٩٦٩/٥/١٥، وصحيفة "مدنيت" فى ١٩٦٩/٥/١٥، وصحيفة "تورك ايش كوجى" فى ١٩٦٩/٥/١٧، وصحيفة "دولت" فى ١٩٦٩/٥/١٩، وصحيفة "فرانكفورتر روند شاو" فى ١٩٦٩/٧/٨ .

تاريخ القــرم وتأصل الاتراك فيهــا

عاشت فى القرم فى التاريخ القديم شعوب تحدث عنها هيرودوت. فقد سكنها الطوريون والـكيمريون والسيثيون فى الحقبة الممتدة من القرن الثالث عشر ق.م. الى السابع ق.م.(٦) وبمرور الزمن امتزجت هذه الشعوب ببعضها وكونت شعباً واحداً استطاع ان يحافظ على كيانه الذاتى قرون طويلة.

ولقد تعرضت القرم لـكثير من الغزوات والاغارات التى قامت بها الشعوب المجاورة أو القبائل المهاجرة من آسيا. ومنها من امتزجوا بأهلها القدامى.

فقد غزاها أولا اغريق آسيا الوسطى فى القرن السادس ق.م. ولـكنهم لم يحتفظوا بسيطرتهم الا على بعض المناطق الساحلية. ثم اغارت عليها قبائل الصرمات حوالى القرن الأول ق.م.

وفى القرن الرابع الميلادى خضعت لدولة القوط الشرقيين الذين ظلت بقاياهم فى جبال القرم حتى أواخر العصور الوسطى. وكـانت قبائل الهون قد اجتاحتها فى عام ٣٧٨ م. ثم تلتهـا قبائل الآلان. وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين دخلهـا اتراك التاى وآفار وسيطروا عليها، ثم انضمت بعد ذلك الى دولة اتراك الخزر المسماة بدولة " الخزر الصغرى " واستمر ذلك حتى القرن التاسع الميلادى. ثم تبعهم اتراك بيتشيناغ من عام ٨٩٤ حتى عام ١٠٩٠ م. الى ان احتلها اتراك القفجاق فى أواخر القرن العاشر الميلادى.

وسيطر اتراك القفجاق على جميع أنحاء القرم حتى المناطق الساحلية منها وصبغوها كلها بالصبغة التركية، وبالتدريج أخذت بقايا العناصر القديمة، وهم الطاوريون والكيمريون والسيثيون والآلانيون والآفاريون والخزريون والبيتشيناغيون، تندمج فى العناصر القفجاقية وكونت قومية تركية خاصة لها كيانها الذاتى. وفى القرن الثالث عشر قدم إليها الاتراك المغول واندمجوا هم أيضاً بعنصرها التركى القفجاقى. وهذا هو أصل اتراك القرم المعاصرين.

وهناك وثائق تاريخية تثبت ان بلاد القرم منذ عهدها التركى قد حققت تقدماً اقتصادياً وحضارياً يفوق فى مستواه كثيراً من شعوب شرق أوروبا المجاورة.

لقد فتح اتراك المغول بلاد القرم ما بين السنوات ١٢٢٣ و ١٢٣٨ وضموها الى دولة "آلتين اوردو" التركية المغولية. واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٤٢٨ حين تأسست فيها خانية القرم المستقلة، وكـانت حدودها تمتد الى شبه جزيرة طامان وكوبان وصحارى

---

(٦) هيرودوت: المجلد الرابع، الـكسندر باشماكوف: "حضارة السلالة البشرية حول البحر الأسود على مدى خمسين قرناً"، باريس عام ١٩٣٧ .

نوغاى ــ وهى المناطق التى تؤلف اليوم أقاليم جنوبى وشرقى أوكرانيا واقليم بوجاق ــ أى بسارابيا ــ وزاد تعـداد سكـان دولـة القـرم من ٣ ملايين الى ٥ ملايين نسمة. اما تعداد سكان شبه جزيرة القرم نفسها فقد قفز من ٨٠٠ الف الى ١½ مليون نسمة بجيشها الذى بلغ عدده ٢٠٠ الف مقاتل(٧).

وعقد خانات القرم تحالفات عسكرية وسياسية عديدة مع كثير من الدول المجاورة ضد موسكو. وكـانت الامبراطورية العثمانية الاسلامية أكبر سند وحليف لها سياسياً وعسكرياً. واستمر التحالف بين خانيات القرم والدولة العثمانية من عام ١٤٧٥ الى عام ١٧٧٤ حين عقدت اتفاقية بين روسيا والدولة العثمانية التزمت الأخيرة بمقتضاها بعدم التدخل العسكرى فى القرم. وأغتنمت روسياً تلك الفرصة وقامت باحتلال القرم عسكرياً بعد ذلك بتسعة أعوام. ثم أعلنت ضمها الى الدولة الروسية فى ٨ ابريل (نيسان) عام ١٧٨٣.

وتبدأ ماساة شعب القرم منذ ذلك التاريخ المشئوم، يوم استيلاء الروس على القرم. وأول عمل قامت به حكومة بطرسبورج كـان إلغاء جميع المؤسسات الادارية والقضائية والتعليمية فى خانية القرم والاستيلاء على جميع أراضى الأوقاف الخاصة وتمليكها للدولة أو للارستقراطية الروسية المحتلة(٨). ونتج عن عملية الاستيلاء على أراضى الأوقاف هذه ان قلت موارد الانفاق على المؤسسات الاسلامية فى البلاد فهبط عدد الجوامع من ١٥٥٦ جامعاً فى عام ١٨٠٥ الى ٧٢٩ جامعاً فى عام ١٩١٤(٩). وقام الروس زيادة على ذلك بتخريب المدن القرمية بوحشية لا نظير لها.

وكـان من جراء هذه السياسة الوحشية الاستبدادية التى اتبعتها حكومات القياصرة الروس فى القرم، ان أخذ مسلمى القرم فى الهجَرة الى تركيا هجرات جماعية طوال القرن التاسع عشر. وبلغ عدد المهاجرين فى تلك الفترة قرابة ١½ مليون(١٠). ولم يبق من أهل البلاد المسلمين فيها حتى عام ١٨٨٠ سوى ٢٨٠ الفا فقط(١١).

وتسجل الوثائق التاريخية المحفوظة فى القرم ان السلطات القيصرية حرمت مسلمى القرم من جميع حقوقهم السياسية والاجتماعية، وحرمت عليهم تداول المطبوعات القومية،

---

(٧) بارون دي توط: "ذكريات عن الترك والتتار"، المجلد الرابع، امستردام، عام ١٨٧٥، ص ١٥٥/١٥٦.
(٨) ادهم فيضى كوزايدين: "القرم وحلول الاتراك فيها ثم هجرتهم منها"، اسطنبول عام ١٩٤٨، ص ٣٩.
(٩) كريتشنسكى ارسلان: "اوتشركى روسكوى بوليتيكى نا اوكرانيا. بريلوجنيه: سكرتنيه دوكومنتى"، باكو عام ١٩١٩، ص ٧٠/٧١.
(١٠) اسماعيل غاصبرنسكى: "هجرة منتظمة"، مجلة تورك يوردى، اسطنبول، المجلد الثانى، ص ٧٠٦/٧١٣.
(١١) روسكوشنى هرمان: "روسلاند لاند اوند لويته"، المجلد الأول، ليبزيج.

وحرمت انشـاء المؤسسات الثقافيـــة والتعليميـة . وتدهـور الوضع الاقتصادى تدهـورا فظيعـــاً(١٢).

النهضة الثقافية والقومية فى القـــرم

يعتبر المصلح العظيم اسماعيل بك غاصبرالى رائد النهضة الثقافية والقومية لمسلمى القرم ولجميع المسلمين الذين خضعوا لحكم الامبراطورية الروسية. ولد غاصبرالى بك فى القرم عام ١٨٥١ من أسرة نبيلة، وأتم دراسته فى موسكو وباريس واسطنبول. وله عدة مؤلفات يحث فيها مسلمى روسيا على النهوض بأنفسهم والتمسك بقوميتهم. وعاش حياته يناضل من أجل نشر التعليم والثقافة القومية ويدعو للتطور والنهوض الفكرى والحضارى.

وفى ١٥ ابريل (نيسان) ١٨٨٣ ظهر أول عدد من صحيفته الشهيرة " الترجمـان " التى ظلت تصدر بلا انقطاع لمدة ٣٣ عاماً بصفتها الصحيفة الوحيدة لمسلمى روسيا(١٣). وأصبح اسماعيل بك ابا روحيا للجيل التالى من الشبان القوميين الذين صاروا فيما بعد رواداً لحركة التحرير القومى لأتراك القرم. وهى حركـات أخذت فى بداية القرن العشرين تسير فى ثلاثة اتجاهات فكرية مختلفة هى :

١ــ اتجاه فكرى يضم تلاميذ غاصبرالى الملتفين حول صحيفة الترجمـان. وكان معظمهم من المعلمين والصحفيين والكتاب، وبفضل جهودهم اسست ٣٦٠ مدرسة قومية شعبية مثلت ٥٢٪ من مجموع المدارس الموجودة فى البلاد. ونهضوا بالآداب القومية نهضة جديرة بالاعتبار.

٢ــ اتجاه فكرى تمثله " الحركة الثورية للشباب التتارى " التى لعبت دوراً كبيراً فى القرم خلال أحداث ثورة ١٩٠٥ فى روسيا. وتزعم هذه الحركة معلماً اشتهر بميوله الثورية هو عبد الرشيد المهدى. وكـانت هذه الحركة تنظيم سرى ثورى عمل ضد النظام القيصرى وكـان هدفها الحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية لأتراك القرم. وكـانت صحيفة "وطن خادمى" ــ التى كـان حسن صبرى ايواز رئيساً لتحريرها ــ هى المعبرة عن تلك الحركة. وفى عام ١٩٠٧ نجح عبد الرشيد المهدى فى الانتخابات وأصبح نائباً فى

---

(١٢) احمد اوزبناشلى: "جارلق حاكميتنده قريم فاجعه سى ياخود تتر هجرتلرى"، مجله الأمل، ١٩٣٤، العدد ٢ــ١٠، كريتشنسكى، نفس المرجع السابق، ص ٢/٣ .

(١٣) جعفر سيد احمد: "قريم وقريم توركـلرى"، مجله تورك يوردى، اسطنبول عام ١٩٢٨، ص ٥٧٣.

البرلمان الروسى عن مقاطعة طاوريدا. ولقد أثار عبد الرشيد المهدى حنق الحكومة القيصرية بأحاديثه اللاذعة العنيفة عن مشكلتى " الأرض والحرية ". ومن جهة أخرى كان موضعاً لتقدير لينين واحترامه(١٤). وكانت " الحركة الثورية " تتضمن فى برنامجها أفكاراً ثورية اجتماعية وسياسية لم يتضمنها برنامج حركة اسماعيل بك غاصبرلى(١٥).

٣ــ اتجاه فكرى يضم جماعة الشبان القوميين القرميين الذين كانوا يدرسون فى اسطنبول بصفة خاصة. وكانت تمثله جمعية الطلاب القرميين السرية التى تألفت عام ١٩٠٩ والتى سميت " الوطن "، وكانت قضية استقلال القرم فى مقدمة البرنامج السياسى لها.

وعلى أثر قيام الثورة فى روسيا فى فبراير (شباط) ١٩١٧، بدأ عهد جديد بالنسبة لأتراك القرم. ففى ٢٥ مارس (آذار) ١٩١٧، انعقد فى القرم مؤتمر اسلامى عام اشترك فيه ١٥٠٠ مندوباً(١٦). واسفر المؤتمر عن اعلان استقلال القرم ثقافياً وقومياً. وتفرعت عن المؤتمر لجنة تنفيذية منحت تفويضاً كاملا لتولى مسئولية الشئون القومية والثقافية والدينية والسياسية، وأحيلت إليها كذلك شئون الأوقاف للاشراف عليها. وكذلك عين نعمان جلبى جهان مفتياً للقرم(١٧)، وكان فى نفس الوقت رئيساً للجنة التنفيذية.

وفى أول أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ انعقد مؤتمر آخر دعيت إليه جميع الأحزاب التركية القرمية نوقشت فيه مسألة إنشاء مجلس تأسيسى قومى(١٨). وبناءاً على ما تقرر فى ذلك المؤتمر أجريت انتخابات عامة حرة فى ٣٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٧، وأسفرت عن تكوين المجلس التأسيسى المطلوب الذى باشر أعماله اعتباراً من ٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ حتى ٢٦ منه. وفى تلك الفترة وضع الدستور القرمى الذى تكون من ١٦ مادة والذى أعلن تأسيس " جمهورية القرم الشعبية ". وفى نفس اليوم تشكلت حكومة القرم القومية الدستورية برئاسة نعمان جلبى جهان. وهى الحكومة التى أسندت فيها وزارتى الخارجية والحربية الى الزعيم القرمى الشهير جعفر سيد أحمد(١٩). وفى ٢٨ ديسمبر

---

(١٤) صحيفة لينين بايراغى، طشقند فى ١٤/١١/١٩٦٨، العدد ١٣٥، ص ٣ .
(١٥) مجلة الأمل عام ١٩٣٥، العدد ١١–١٢، ص ٨٥/٨٦، وعام ١٩٣٧، العدد ٤، ص ١١.
(١٦) سجلت التواريخ حتى عام ١٩١٧ باعتبار التقويم وبعد ١/١/١٩١٨ بالتقويم الجديد .
(١٧) مجلة نوفى فوستوك، موسكو عام ١٩٢٥، المجلد الخامس، ص ١٩٣، وجعفر سيد احمد: "قريم وقريم تورکلرى"، مجلة تورك ييلى، اسطنبول عام ١٩٢٨، ص ٤٨٠ .
(١٨) "مات غزه تسى"، سمفروبول فى ٣/١٠/١٩١٧، العدد ٧٣، والعدد ٧٤ الصادر فى ٤/١٠/١٩١٧، "وغولوس تتر غزه تسى"، سمفروبول، فى ١٤ و ٢١/١٠/١٩١٧ .
(١٩) مجلة الأمل عام ١٩٣٧، العدد ١١، ص ١٢/٣٥، و "قريم مجموعه تسى"، اسطنبول، عام ١٩١٨، العدد ٢، ص ٢، ومجلة "ريفيودى موند موسلمان"، باريس، المجلد ٢١، ص ١٤٣/١٤٧ .

(كـانون الأول) ١٩١٧ صدر أمر وزير الحربية القرمى بتشكيل " مجلس أركـان حرب الجيش القرمى" الذى انتظمت تحت لوائه جميع القوات المسلحة القرمية(٢٠). وقد امتدت سلطات حكومة جمهورية القرم الشعبية على جميع أراضى شبه جزيرة القرم ما عدا ميناء سباستبول الحربى الذى كـان منذ ١٥ ديسمبر (كـانون الأول) قد سيطرت عليه قوات لجنة الثورة العسكرية الشيوعية(٢١). وأدى هذا الوضع الى حدوث صدامات دموية بين قوات جمهورية القرم وحامية سباستبول الروسية الشيوعية التى ساندها الاسطول الروسى الحربى بالبحر الأسود. وانتهى القتال فى ٢٦ يناير (كـانون الأول) ١٩١٨ بهزيمة القوات القرمية بعد معارك دامية، واحتلت القوات الروسية الشيوعية جميع أراضى شبه جزيرة القرم(٢٢). وسارع الشيوعيون بانشاء جمهورية طاوريدا الاشتراكية التى أعلن قيامها فى ٢١ مارس (آذار) ١٩١٨. ولم يمض على هذه الأحداث سوى أقل من شهر واحد حتى قامت الجيوش الألمانية المرابطة فى الجبهة الشرقية بغزو القرم. وبدأت هذه زحفها عليها فى ١٦ ابريل (نيسان) ١٩١٨، وحتى أول مايو (أيار) ١٩١٨ كـانت قد تمكنت من اكتساحها كـلها وأعادت حكومتها الجمهورية القومية. وفى ٨ مايو (أيار) ١٩١٨ اجتمع برلمان القرم وكـلف الجنرال سليمان سولـكييفيتش بتأليف الوزارة. وتم تشكيلها فى ٢٥ يونيه (حزيران) من نفس السنة. وقامت حكومة الجنرال سولـكييفيتش باصدار عدة قوانين لاصلاح الأحوال فى البلاد، منها قانون الجنسية القرمية وقانون تسهيل عودة الاتراك القرميين المقيمين فى المهجر. وانشئت لأول مرة جامعة القرم. كما انها أسست علاقات دبلوماسية وتجارية مع تركيا وألمانيا وجمهورية اوكرانيا(٢٣). ولـكن عمر حكومة جمهورية القرم القومية كـان قصيراً ولم يطل الا ليوم ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٨(٢٤)، بسبب هزيمة ألمانيا وتركيا فى الحرب. وزحفت عليها جيوش الحلفاء وبرفقتها جيش المتطوعين الروس البيض بقيادة الجنرال دينيكين. وظلت هذه القوات مرابطة فى القرم حتى أخلت مكـانها فى ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ لقوات الجيش الأحمر(٢٥).

---

(٢٠) مجلة نوفى فوستوك، العدد الخامس، ص ٢٠٨ .
(٢١) "استوريا غورودا كرويا سيباستوبوليا"، ١٩١٧–١٩٥٧، كييف، ١٩٥٨، ص ٣٥/٥٢ .
(٢٢) نفس المرجع السابق، ص ٥٣/٥٩.
(٢٣) مجلة القرم الأسبوعية، سمفروبول، ١٠ و ١٥ مايو (أيار) ١٩١٨، ومؤلف "ديه تتاريسجه ريبوبليك ان ديركريم"، تاغليش روند شاو، برلين فى ١٩١٨/٥/٢٨، العدد ٢٦٧، ص ٢، الدكتور اديكه كريمال: "دير ناسيونالى كـامف ديركريم توركن"، مسدتتن/وستف، ١٩٥٢، ص ١٩٣.
(٢٤) دينيكين: "اوتشركى روسكوى زموتى"، المجلد الثالث، برلين عام ١٩٢٤، ص ٤٠/٤١.
(٢٥) المرجع السابق، ص ١١٠/١٣٥.

مسلموا القــرم تحت الحكم السوفييتى

لقد أثبتت الوقائع التى يستحيل دحضها ان الحكومة السوفييتية قد طبقت فى القرم فى الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٤١ سياسة تهدف الى القضاء على اتراك القرم على مراحل. وما كـانت المأساة التى وقعت بهم عام ١٩٤٤ إلا آخر حلقة فى ذلك المخطط الاجرامى. والمراحل التى تحدثنا عنها هى :

المرحلة الأولى : من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ الى اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، وهى مرحلة الارهاب والتجويع.

المرحلة الثانية : من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢١ الى ابريل (نيسان) ١٩٢٨، وهى مرحلـة الترضية وتهدئة الخواطر.

المرحلة الثالثة : وهى مرحلـة تنفيذ السياسة السوفييتية الرامية الى ترويس القرم والقضاء على طابعها الاسلامى.

فى المرحلة الأولى ــ مرحلة الارهاب والتجويع ــ وضعت السلطات السوفييتية فى رئاسة السلطة فى القرم، الشيوعى المجرى بلاكون. وكـان أول ما أمر به هذا هو قتل عدد يتراوح بين ٦٠ الف و ٧٠ الف مسلم قرمى(٢٦). وكـانت السلطات السوفييتية تقوم فى عهده بشكـل مستمر بمصادرة المواد الغذائية وشحنها الى خارج البلاد، وبذلك حدثت المجاعة المصطنعة فى الفترة من ١٩٢١ الى ١٩٢٢، هذا بينما كـانت نفس السلطات تحول دون وصول معونات الصليب الأحمر الايطالى الى القرميين الجائعين. وكـان عدد ضحايا هذه المجاعة المصطنعة ١٠٠ الف نسمة من بينهم ٦٠ الف مسلم(٢٧).

وفى المرحلـة الثانية، وهى مرحلـة الترضية، أخذت السلطات السوفييتية تتظاهر بالعطف على مسلمى القرم. وتجلى هذا التظاهر بالعطف فى صورة السماح بانشاء جمهورية القرم الاشتراكية السوفييتية ذات الاستقلال الداخلى. وفى هذه المرحلـة بدأت " دعوة القومية التتارية ". وفى عام ١٩٢٨ افتتحت المدارس القومية والمكتبات العامة والمتاحف العظيمة والمسارح القومية وما الى ذلك من المؤسسات الثقافية والتعليمية القومية. وانتظمت صفوف المثقفين القرميين وتماسكت وأخذت النشاطات القومية والآداب والفنون والعلوم تتطور تطوراً يرضى عنه الناس(٢٨).

---

(٢٦) فالـكنهورست : "ماسينمورد اوف دير كريم"، دوناو تسايتونج، بلغراد، ١٩٤٣/٩/٢٣ .

(٢٧) مجلة الأمل، عام ١٩٣٣، العدد ٣، ص ١٧/٩، والعدد ٤، ص ١٣/٦، والعدد ٧، ص ١٤/٧، وسوتسياليستيتشكى فستنيك، نيويورك–باريس، عام ١٩٥٠، العدد ٣، ص ٥١.

(٢٨) الدكتور اديكه كريمال، المرجع سابق الذكر، ص ٢٨٨/٢٩٠.

وأما المرحلـة الثالثة، وهى مرحلـة الترويس، فقد قامت السلطات السوفييتية بقلب سياستها رأساً على عقب بعد ان تمكن ستالين من زمام الحكم فى الاتحاد السوفييتى. فالغى الاستقلال الداخلى الفعلى الذى كـانت تتمتع به جمهورية القرم. وحلت محل "دعوة التتارية" سياسة أخرى هى "الدعوة للنظام السوفييتى". وفى ربيع عام ١٩٢٨ ألقى القبض على أكثر من ٣٥٠٠ قرمى، ونفى منهم الى خارج البلاد من نجا منهم من القتل. وكـان من بين من أعدموا بالرصاص ولى ابراهيم "رئيس" حكومة جمهورية القرم الاشتراكية السوفييتية(٢٩).

كـانت الدعوة للنظام السوفييتى فى القرم تعنى تنفيذ الجماعية فى الزراعة، وتنفيذ برنامج التصنيع السريع، وترويس ثقافة القرميين ولغتهم وألقابهم وأسلوب حياتهم وصبغها بصبغة روسية خالصة. وفى أثناء عملية تنفيذ الجماعية فى الزراعة فى القرم وانشاء المزارع الجماعية، نفى الى خارج البلاد ما بين ٣٥ الف و ٤٠ الف مسلم قرمى، وزجت بهم موسكو فى معسكرات العمل فى سيبيريا والاورال. وكـان هذا التصرف استمراراً لسياسة الابادة التى مارستها موسكو على مسلمى القرم.

ونتيجة لعملية تنفيذ الجماعية فى الزراعة، حدثت المجاعة الثانية التى أصابت البلاد عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٣٣، والتى تعد هى الأخرى احدى حلقات المخطط الروسى لافناء مسلمى القرم.

وفى الفترة من ١٩٣١ الى ١٩٣٦ اشتدت "الدعوة للنظام السوفييتى" التى كـان هدفها الحقيقى "ابادة اتراك القرم". فقد أخذت شكـل أغلاق الجوامع ومدارس المسلمين وقتل أكبر عدد من علماء الدين الاسلامى ونفى من لم يقتل منهم الى خارج البلاد، ثم التنكيل بالمثقفين القرميين بتهمة العمل "للبورجوازية القومية"(٣٠).

وتنفيذا لذلك المخطط الاجرامى الرهيب الذى مضت فيه موسكو بدقة وأحكـام للقضاء على الطابع الاسلامى فى القرم، وقعت أحداث الارهاب والقمع فى عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ التى بلغت أوجها فى صورة القبض على الآلاف من الرجال من الشيوخ والشباب والفلاحين والعمال ومن جميع طبقات الشعب وفئاته والزج بهم فى معسكرات العمل الاجبارى الرهيبة حيث مات فيها عدد ليس بالقليل. ولم يسلم من هذا الارهاب حتى الياس طرخان، ثالث رئيس لجمورية القرم السوفييتية ورئيس وزرائه حسام الدينوف.

---

(٢٩) الأزفستيا فى ١/٥/١٩٢٨.

(٣٠) أنظر تفاصيل كتاب الدكتور اديكع كريمال، المرجع سابق الذكر، ص ٣٠٠/٣٠٣.

ومما سبق ذكره من أرقام يتبين لنا ان ما بين ١٦٠ الف و ١٧٠ الف قرمى مسلم قد قتلوا على يد السلطات السوفييتية فى الفترة الواقعة بين ١٩٢١ و ١٩٤١. وهذا العدد من الضحايا يكون فى الواقع نصف عدد المسلمين فى القرم. ونضيف الى هذا انه بالرغم من ارتفاع نسبة المواليد بين الشعب القرمى ارتفاعا كبيراً، فان عدد السكـان قد تناقص بدلاً من ان يتزايد فى الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠. وهذا دليل لا يقبل الشك على ان سياسة الابادة للقرميين كانت قـد بدأت منذ تاريخ ضم القرم الى روسيا الحمراء سنة ١٩٢٠.

القــرم فى الحرب العالمية الثانية وجرائم القتل فيها بالجملة

وفى خريف عام ١٩٤١ وقبل ان تقوم قوات الجيش الأحمر باخلاء القرم، قامت أجهزة البوليس السرى السوفييتى باجراء مذابح مروعة فى بلاد القرم. وكـانت هذه المذابح حلقة جديدة فى نفس المخطط الروسى السوفييتى القديم لابادة مسلمى القرم. ولقد عثرت الجيوش الألمانية أثناء احتلالها للقرم فى احد مكـاتب الحكومة فى مدينة سمفروبول (باخشى سراى) على وثيقة تثبت ان حكومة ستالين كانت قد بيتت النية على تهجير اتراك القرم الى جمهورية قازاقستان فى خريف عام ١٩٤١(٣١).

وليس هناك أدنى شك فى ان السياسة الاجرامية التى طالما مارستها السلطات السوفييتية على مسلمى القرم قد أدت الى كرههم للنظام الستالينى وتمنى زواله. ولـكنه مع ذلك فحين تكونت "كتائب الحرس" الست من الاتراك القرميين أثناء الاحتلال الألمانى للقرم (١٩٤١–١٩٤٤)، فان أفراد هذه الـكتائب (برغم أنها وصفت بأنها كتائب "متطوعين") كانوا من القرميين المسلمين الذين وقعوا فى أسر الألمـان أثنـاء زحفهم على القرم وسيقوا الى معسكرات الأسر عند مدينتى سمفروبول ونيقولاييف، ومنها أخلى سبيلهم للالتحاق بهذه الكتاب، ولم يكونوا فى حقيقة الأمر متطوعين، بل التحقوا بها خوفاً من الفتك بهم فى معسكرات الأسر أو الموت جوعاً فى خارجها(٣٢).

ولقد نشطت أجهزة الدعاية السوفييتية بعد الحرب تعمل على التستر على جرائم القتل الجماعى والتهجير التى أجرتها السلطات السوفييتية فى القرم. وادعت بأن القرميين خلال

---

(٣١) اسماعيل آلتين: "بولشه ويلزم فلاكتى وقريم خلق مجادلسى"، امنستادت/بيهلندورف، عام ١٩٤٧، (مخطوط محفوظ فى مكتبة كـاتب المقال، ص ٨).

(٣٢) مقتبسات من التقارير التى ارسلتها هيئة القرم التركية فى برلين الى مركز القرم القومى فى اسطنبول بين السنوات ١٩٤١ و ١٩٤٣.

الاحتلال الألمانى كـانوا قد أبادوا جماعات من المستوطنين الروس. ومن المعروف ان كتائب الحرس هذه كـانت تحمى جميع الأقليات فى القرم من اعتداءات عصابات المقاومة السوفييتية التى كـانت تهاجم القرى الجبلية وتجبر سكـانها على الفرار معهم الى الغابات وتحاول تحريض أهالى القرم على قوات الاحتلال الألمانية وإيقاع الشقاق بينهم. ولقد قامت هذه العصابات السوفييتية باشعال الحرائق فى تلك القرى. فنى الفترة من أواخر عام ١٩٤٣ الى أوائل عام ١٩٤٤ احرقت ٨٣ قرية جبلية منها ٨٠ قرية يسكنها مسلمون(٣٣). وذكرت بعض المصادر ان عدد القرى التى احرقت فى تلك الفترة كـان ١٢٨ قرية(٣٤).

ولقد أكد هذا الواقع الأليم أن أتراك القرم كـانوا أكبر ضحية فى تلك الحروب عموماً. فقد وضعوا بين نارين. فبينما اعتبرهم الروس أعداءاً، لم ينالوا من القيادة الألمانية سوى حرية اقامة شعائر الدين واعادة تعمير المساجد. بل ان الألمان ساقوهم ضمن الأقليات الأخرى للعمل الاجبارى فى ألمانيا. وهناك وثائق كثيرة جداً تثبت ان عدد القرميين الذين انضموا الى القوات السوفييتية والى رجال حرب العصابات وفى صفوف التنظيمات السرية للقرم السوفييتية كـان عدداً لا يستهان به. بل وان منهم من قام بأعمال جليلة أثناء الحرب استحق عليها التقدير والتكريم الرسمى. وسنكتفى هنا بذكر بعض الأمثلة:

النقيب ناظم ديميركـايا، الضابط بفرقة الدبابات الحادية عشرة، ومنح ثلاثة عشر وساماً تكريما لبطولته وشجاعته فى المعارك التى خاضها على أرض بولندا. وهو يعيش اليوم فى المنفى.

سرور امير على، قائد بطارية بآلاى ١٠٥ مدفعية التابع للفرقة السابعة والعشرين "جابايف"، ومنح سبعة أوسمة لاشتراكه فى جميع المعارك التى دارت أثناء الزحف السوفييتى ابتداءاً من ستالينجراد الى نهر الدانوب ونهر اودر فى ألمانيا. ويعيش الآن فى مدينة اندجان بجمهورية اوزبكستان مبعداً عن وطنه القرم(٣٥).

عبد الرشيد قورت ولى، ضابط بفرقة الدبابات الثامنة والأربعين وخاض جميع المعارك فى الزحف السوفييتى حتى المجر(٣٦).

---

(٣٣) السيدة نيازوف كرمنجكـلى. "وطنيروف بيلناوسى"، صحيفة "لينين بايراغى" فى ١٩٦٧/٨/٣١، العدد ١٠٤، ص ٤.
(٣٤) مقتبسات من التقارير...، السابق ذكره، ص ١٠.
(٣٥) لينين با يراغى، ١٩٦٩/٩/١٣، العدد ١٠٩، ص ٢.
(٣٦) المرجع السابق، ١٩٦٩/١١/٧، العدد ١٣٢.

شاكر غاينانوف، من جنود البحرية و" الطليعة المقدام " الذى كـان مرشداً للوحدات البحرية السوفييتية فى أيام محنتها وهى تحاول انزال قواتها على سواحل القرم. ويعمل الآن عاملا فى احدى المزارع فى جمهورية الاوزبك بعيداً عن وطنه(٣٧).

الرقيب عبد الله ستار، الذى منح سبعة أوسمة لاشتراكه فى معارك برلين الوحشية(٣٨).

العقيد خليل جالباشى، الذى خاض المعارك على رأس قواته، وهو خريج أكـاديمية المدرعات ــ دبابات ــ ويقيم الآن منفياً فى مدينة خرسون باوكرانيا.

بكير باوتوكوف، جندى المدفعية الذى قلد أكثر من مرة نياشين عديدة لاشتراكه فى معارك سباستبول وستالينجراد وغيرها. ويعيش الآن منفياً فى مدينة تشرتشيك(٣٩).

الملازم عثمان لمعانوف، ومنح سبعة أوسمة لأعماله الجليلة التى قام بها فى جهازى مخابرات القرم والقوقاز. يعيش الآن فى يانى ير بجمهورية اوزبكستان(٤٠).

جعفر كمال، قائد الآلاى ١٥٧ مدفعية، الذى قاد قواته ببطولة فى معارك نهر فسلا الضارية. حصل على سبعة نياشين(٤١).

والأعمال البطولية الجليلة التى قام بها اتراك القرم فى صفوف مختلف الأجهزة السوفييتية أثناء تلك الحرب لا يمكن حصرها، ولقد اعترفت جميع الجهات المسئولة فى الاتحاد السوفييتى والصحافة بفضل اتراك القرم. وكتبت صحيفة " لينين بايراغى" التى تصدر فى اوزبكستان باللغة القرمية وهى الناطقة بلسان الحزب فيها تشيد ببطولات اتراك القرم الذين برزوا أثناء الحرب العالمية الثانية، ونشرت مجموعة من المقالات وقوائم الشرف تحت عنوان " لن ينسى رجل أو عمل ". وخصصت نفس الصحيفة ركناً آخر بعنوان " جنود الثورة الخالدون " نشرت فيه تفاصيل أعمال المقاومة والنشاط الذى قام به فى سنوات الثورة ما بين ١٩١٦ و ١٩٢٠ " الثوار الشيوعيون القوميون " من اتراك القرم فى نضالهم ضد قوات الروس البيض أثناء وجودها فى القرم وذكرت منهم مدحت رفعتوف وعبد الله بليغ ومراد رشيد حسنوف وغيرهم(٤٢).

وبالرغم من كـل هذه الحقائق الواضحة، فقد حلت بالقرم مع عودة الجيش الأحمر إليها فى ابريل (نيسان) ١٩٤٤ مصائب وكوارث مروعة لا يمكن حصرها. وكـان الأبرياء

---

(٣٧) المرجع السابق، العدد ١٠٤، ٢/٩/١٩٦٩، ص ٤.
(٣٨) المرجع السابق، العدد ١٠٥، ٤/٩/١٩٦٩، ص ٤.
(٣٩) المرجع السابق، العدد ١٠٧، ٩/٩/١٩٦٩، ص ٤.
(٤٠) المرجع السابق، العدد ٥٦، ١٣/٥/١٩٦٩، ص ٣.
(٤١) نفس المرجع السابق.
(٤٢) المرجع السابق، ١١ و ١٤ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٩، العدد ١٢١ و ١٢٢ .

يعدمون رمياً بالرصاص لمجرد الشك، وتحولت الأشجار فى شوارع مدينة سمفروبول الى مشانق للقرميين التعساء(٤٣).

وفى شهر يونيه (حزيران) ١٩٤٤ بلغت عمليات الارهاب أقصى مداها بنفى البقية الباقية من المسلمين من سكـان القرم. وجرت عمليات الاعتقال الجماعى دون تمييز. وقامت وحدات البوليس السرى التى ارسلت الى القرم خصيصاً لتنفيذ هذه الجريمة، بنقل المعتقلين فى عربات السكـك الحديدية وتكديسهم فوق بعضهم فيها دون أى عناية أو رعاية صحية ودون أى اعتبار لكونهم بشر ونفوس إنسانية. وتوفى منهم أثناء نقلهم عدد كبير جداً أثبتت كثير من الوثائق أنهم بلغوا ٤٦٪ من عددهم(٤٤).

والذى حدث بالفعل مع اتراك القرم يتناقض ولا شك مع ما سبق ان أعلنه لينين وستالين من بيانات فى بداية الثورة عن ضمان حياة حرة مستقلة لشعوب روسيا ومسلمى الشرق عامة(٤٥).

ومع هذا فان مسلمى القرم فى منفاهم الجماعى حيث تعيش غالبيتهم الآن فى جمهورية اوزبكستان السوفييتية لم يكتفو بأن حافظوا على لغتهم القرميـة التركيـة وعلى ثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم خلال العشرين سنة التى انقضت على ماساتهم، بل أنهم لم تنقصهم الشجاعة لكى يعلنوا احتجاجهم على أوضاعهم الظالمة وخصوصاً فى السنتين الأخيرتين، برغم أنهم يعيشون فى بلاد كمت فيها الأفواه. وهم يطالبون دائماً بالعودة الى وطنهم وأرض آبائهم وأجدادهم.

وبرغم الظروف القاسية التى يعيشونها فى محنتهم هذه، فانها لم تمنعهم من ان يزاولوا مختلف أنواع النشاط فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الاتحاد السوفييتى. وظهر بينهم كثيرون من النابغين من الشعراء والـكتاب والعلماء. وهم جميعاً متحدون حول فكرة حماية ثقافتهم التركية القرمية ويؤمنون بضرورة تطويرها(٤٦).

---

(٤٣) صحيفة "قريم غزه تسى"، برلين، ١٣/١٢/١٩٤٤، العدد ٢، ص ٤، وصحيفة "القرم"، برلين، ١٠/١/١٩٤٥، العدد ٣، ص ٨.

(٤٤) نشرة "درجى"، ميونيخ عام ١٩٦٩، العدد ٥٦، ص ٧٠.

(٤٥) "ديكـلاراسيون دى دروا دى بويل دى روسى ايه سه افيفه" فى مجله "ريفيو دى موند موسلمان"، باريس، عام ١٩٢٢، المجلد ٢١، ص ٥–٦، ص ٧–٩.

(٤٦) لينين بايراغى، ٢٢/٢/١٩٦٩، العدد ٢٣، وفى ٢٧/٣/١٩٦٩، العدد ٣٧، وفى ١/٤/١٩٦٩، العدد ٣٩، وفى ٣/٤/١٩٦٩، العدد ٤٠، وفى ٢٢/٥/١٩٦٩، العدد ٦٠، وفى ١٤/٦/١٩٦٩، العدد ٧٠، وفى ٢٧/٥/١٩٦٩، العدد ٦٩، وفى ٣١/٧/١٩٦٩، العدد ٩٠، وفى ٤/١١/١٩٦٩، العدد ١٣١، وفى ٢٥/١١/١٩٦٩، العدد ١٣٩، وفى ١/١/١٩٧٠، العدد ١، وفى ٤/١/١٩٧٠، العدد ٢.

ولقد عبر الشاعر التركى القرمى الشهير اشرف شميزاده فى سنة ١٩٦٩ عن ضرورة حماية اللغة التركية القرمية بقوله :

لغة القرم هى لغتنا القومية، وهى التى لعبت أعظم دور فى التطور الثقافى والحضارى لتتار القرم على مدى آلاف السنين . . . ولا حياة لشعب الا بمقدار محافظته على لغته وآدابها.

واستقاءاً من المعلومات التى يعطينا اياها أشرف شميزاده، فان أبناء القرميين المسلمين الذين يتربون فى المدارس القومية الأوزبكية والقازاقية والروسية وغيرها من مدارس جمهوريتى الأوزبك والقازاق يتعلمون فيها لغتهم التركية القرمية أيضاً. ومنذ وقت قريب نشر كتاب مدرسى من تأليف محمد عمروف، الكاتب القرمى المعروف، بالاشتراك مع الكاتب يوسف بولاط(٤٧)، وضعاه بصورة خاصة ليستفيد منه التلاميذ فى مختلف مراحل التعليم فى دراسة لغتهم القرمية.

وفى طشقند يوجد " قسم للغة تتار القرم وآدابها " يتبع لمعهد التربية الحكومى. وتعطى أولوية الالتحاق بذلك القسم لخريجى الثانوية الأوزبكية بشرط اتمامهم دراسة اللغة التركية القرمية. ويقوم هذا القسم باعداد المعلمين لتدريس هذه اللغة(٤٨).

والمنبر الرئيسى الذى يلتف حوله شعراء القرميين وأدباؤهم وفنانوهم هو صحيفة " لينين بايراغى" التى أخذت فى الانتشار فى طشقند منذ عام ١٩٥٦ ولها من الامكانيات ما يسمح لها بأن تجمع تحت لوائها الكثير من الكتاب والمحررين والمراسلين. ويرأس هيئة تحريرها الكاتب القرمى اسلاموف(٤٩)، ويقرؤها كذلك القرميون الذين يعيشون خارج جمهورية الأوزبك، ويشتركون كذلك فى تحريرها. ولقد أصبح لها أثر كبير فى حياة القرميين الاجتماعية والقومية والثقافية، حتى اننا يمكننا ان نقارن دورها هذا — الى حد ما — بالدور الذى لعبته صحيفة " الترجمان " التى كان يصدرها القرميون فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى.

أما المركز الثانى الذى يجتمع فيه المثقفون القرميون وتخرج منه أنشطتهم القومية المختلفة، فهو القسم التركى القرمى التابع لدار النشر الأدبية لغفور غلام فى طشقند. وهذا القسم الذى يرأسه جركس على، الشاعر التركى القرمى، وسيد عمر امين، المحرر الصحفى، قام

---

(٤٧) أشرف شميزاده: "ايلك كارلفاج" بصحيفة لينين بايراغى، ١٩٦٩/٤/٥، العدد ٤١، وفى ١٩٦٨/١٢/٢١، العدد ١٥٠.

(٤٨) لينين بايراغى، ١٩٦٨/١٠/٢٩، العدد ١٢٩، وفى ١٩٦٨/١٢/٢١، العدد ١٥٠.

(٤٩) المرجع السابق، ١٩٦٩/١٢/١٥، العدد ٢٠، وفى ١٩٦٩/٥/٦، العدد ٥٤.

بنشر ما يزيد على عشرين كتاباً لـكتاب وشعراء قرميين فى عام ١٩٦٩. وحتى اليوم نشرت مؤلفات مختلفة للأدباء القرميين الـكبار مثل شامل علاء الدين وعبد الرحيم آلتانلى واشرف شميزاده ورحيم طنجروف ويوسف بولاط ورضا خالد وغيرهم. وكـانوا قد بدأوا نشاطهم الأدبى فى القرم قبل الحرب العالمية الثانية(٥٠). والى جوار هؤلاء تنشر أعمال للرواد الشبان من أبناء الجيل الجديد من أدباء التركية القرمية.

وقد يحسن هنا التعريف ببعض هؤلاء الأدباء الشبان: فمنهم الشاعر نورى عبد الله والأديب عيسى عبد الرحمن والشاعر الناشىء الموهوب أحمد عادل الذى بدأ نشاطه الأدبى منذ عام ١٩٦٧، والشاعر أحمد اققاشلى والشاعر ز. الباتلى والشاعر النابغة جركس على الذى يتقن عدة لغات وقام بنقل كثير من أعمال شعراء أوزبك والقازاق الى القرمية، والشاعر شريان علييف والشاعرة جواهر مجيدوف والقصصى اميل خالد والـكـاتبة سعيدة عظيموف والـكـاتب رستم محى الدينوف والـكـاتب حيدر عثمان والقصصى يعقوب زكى وغيرهم(٥١). ونذكر منهم أيضاً صفدر نوغاييف وسيد خليل سيد أحمد وهم من نقاد الأدب القرمى المعاصر(٥٢).

يتحدث صفدر نوغاييف عن الأدب التركى القرمى المعاصر فى مقالة عنوانها " الشباب " يقول فيها:

يظهر مسلموا القرم بصفة دائمة رغبة متقدة فى قراءة مؤلفات الشعراء والـكتاب المعاصرين التى وضعت فى العصر السوفييتى فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. من هذه المؤلفات أعمال شامل طوقتار غازى وعمر ايبجى ورحيم طنجروف وشامل علاء الدين ورشيد مراد وغيرهم. ويعاد الآن طبع مؤلفاتهم التى أصبحت فى وقتنا الحاضر كمراجع تستخدم فى مجال تعليم اللغة التركية الأدبية.

ثم يقسم صفدر نوغاييف شعراء وكتاب القرم المعاصرين الى قسمين أساسيين: أحداهما جماعة قدمة شرعت فى محاولاتها الأولى فيما قبل الحرب العالمية الثانية. والأخرى جماعة من الجيل الجديد الذى نشأ خارج القرم. وهؤلاء بدأوا نشاطهم منذ خمسة عشرة سنة.

وتضم الجماعة الأولى شعراء وكتاب مثل احمد مغاييف ونور سلامة ورضا خالد وسيد عمر أمين وجركس على وغيرهم. أما الجماعة الثانية فتضم الشعراء والـكتاب الشبان

---

(٥٠) رضا فاضل: "ينى كتابلر"، لينين بايراغى، ١٩٦٩/٥/٢٩، العدد ٦٣.

(٥١) لينين بايراغى، الأعداد ١٠٤، ١٢٩، ١٣٥، ١٥٠، لعام ١٩٦٨ والأعداد ٥—١٥٠ لعام ١٩٦٩ والأعداد ١ و ٢ لعام ١٩٧٠.

(٥٢) المرجع السابق، ١٨ و ٢٥ مارس (آذار) ١٩٦٩، العدد ٣٣ و ٣٦.

مثل بلال ما ميت وأشرف ابراهيم واسكندر فاضل وعيسى الرحمن ورضا فاضل وشاكر سليموف وذاكر قورت نظيروف وغيرهم. ومن خصائص جماعة الشبان اهتمامهم البالغ بالفلكولور التركى القرمى(٥٣)، وارتباطهم الروحى الوثيق بشعراء التركستان والقوقاز.

ويجدر بنا ان نضيف الى قول نوغاييف ان من أهم الوقائع فى آداب اللغة التركية القرمية فى وقتنا الحاضر رد الاعتبار الى مؤلفات أجيال القرميين القدامى الذين عاشوا قبل الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه المؤلفات قد حرمت ومنع تداولها وصودرت من جميع المكتبات منذ الثلاثينات من هذا القرن. وكان من هؤلاء الأدباء المصلح الكبير اسماعيل بك غاصبرلى والأستاذ الدكتور بكير جوبانزاده وحسن جركييف (جركس). ولا زالت عملية رد الاعتبار سائرة بالنسبة للباقين منهم بفضل الجهود التى يبذلها أدباء وعلماء مسلمى القرم من خلال صحيفة " لينين بايراغى"(٥٤). وتسير عملية رد الاعتبار قدماً كذلك بالنسبة لكثير من الشخصيات السياسية والقومية الذين كانوا قد اعدموا فى مذابح الثلاثينات ومنهم زعيمهم عبد الرشيد مهدى (مهدييف)(٥٥) والياس طرخان، الذى كان رئيساً لجمهورية القرم السوفييتية(٥٦). ومما هو جدير بالتسجيل هنا ان عملية رد الاعتبار السياسى شملت بعض الشيوعيين الروس الذين عملوا فى القرم فيما قبل الحرب العالمية الثانية(٥٧).

وللقرميين فنهم المسرحى المعاصر أيضاً. فى عام ١٩٥٧ أنشئت فرقة للرقص أطلق عليها اسم " قايتارما " وألحقت بمسرح الدولة فى اوزبكستان، ثم أعيد تنظيمها منذ مدة قصيرة. وتضم هذه الفرقة ٣٧ راقصاً وراقصة وتعد من مفاخر القرميين. ويجدر بنا ان نذكر فى هذا المجال ان هناك فرقة مماثلة كانت قد أنشئت عام ١٩٣٦ ضمت ٧٥ راقصاً وراقصة. ويقوم بتدريب وادارة فرقة " قايتارما " مجموعة من اساتذة فن الرقص القرميين، منهم أنور عليف ونصرت شعبانوف وحكيم جميلوف وغيرهم(٥٨). وتؤدى هذه الفرقة رقصات قومية معروفة، مثل رقصة " جوبان ايونى" ورقصة " ارزوقيبز" وهى من رقصات

---

(٥٣) المرجع السابق، ١٩٦٩/٣/٢٥، العدد ٣٦، ص ٣.

(٥٤) المرجع السابق، ١٩٦٨/٨/١، العدد ٩١، وفى ١٩٦٨/٤/٢٤، وفى ١٩٦٨/١١/١٤، العدد ١٣٥، وفى ١٩٦٩/٥/٣١، العدد ٦٤، وفى ١٩٦٩/٦/٣، العدد ٦٥، وفى نشرة "درجى" لعام ١٩٦٨، العدد ٥١، ص ٧٥/٧٧، والعدد ٥٢ لعام ١٩٦٨، ص ٧٤/٧٥.

(٥٥) لينين بايراغى، ١٩٦٨/١١/١٤، العدد ١٣٥.

(٥٦) المرجع السابق، ١٩٦٨/١٠/٢٩، العدد ١٢٩.

(٥٧) نفس المرجع السابق.

(٥٨) المرجع السابق، ١٩٦٩/٣/٨، العدد ٢٩، ص ٦، مقال "مجد شعبنا" لعليموفا ليويزا، والعدد ٥٧ من نفس الصحيفة، ص ٣ بتاريخ ١٩٦٩/٥/١٥، مقال "انسامبل كنيش يولدا" لرضا فاضل.

المجاميع يؤديها سبعة أشخاص(٥٩). وتقوم فرقة " قايتارما " برحلات فنية كثيرة جداً تزور فيها مختلف المدن فى جمهوريات الأوزبك والقوقاز الجنوبية وغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفييتى لتعرض فنون الرقص القرمى على جماهيرها. وبلغ من كثرة رحلات هذه الفرقة ان وصفتها صحيفة " لينين با يراغى" بأن أفرادها يعيشون كالبدو الرحل. وهناك اهتمام كبير بفنون الرقص القرمى بين أبناء الجيل الجديد من القرميين. وتتعلم الفتيات القرميات فنون الرقص فى الجماعات المدرسية وتؤدينه بازيائهن القومية. وهذا الأمر يثبت لنا ما لفرقة " قايتارما " من أثر بالغ فى نفوس أبناء الشعب القرمى(٦٠).

هذا وجميع أفراد الشعب القرمى المسلم لم يتأثروا فى يوم من الأيام بأى أساليب اتبعتها السلطات السوفييتية سواء الارهاب أو الترضية أو أى أساليب ماكرة أخرى لكى تنسيهم ماضيهم وتمحو كيانهم القومى الخاص أو تذيبه فى كيان أكبر منه. ولا زال الشعب القرمى بكل أفراده كباراً وصغاراً يناضل من أجل إسترجاع وطنه السليب. وبرغم الرقابة الشديدة التى يفرضها الاتحاد السوفييتى على النشر وعلى وكالات الأنباء، فقد تسربت الى خارج البلاد أنباء عن محاكمات أجريت فى سمفروبول وفى طشقند للوطنيين القرميين الذين أعلنوا احتجاجهم على القيود المفروضة على العودة الى القرم، وقبض عليهم أثناء مظاهرات الاحتجاج التى نظموها فى تلك المدن للمطالبة بحقوقهم. وبرغم ان هذه الاحتجاجات قد روعى فيها الا تبدو فى مظهر تفسره السلطات السوفييتية على أنه نشاط " معادى للسوفييت " أو " معادى للشيوعية " أو " معادى للثورة " وروعى فيه الا يخرج عن الاطار الدستورى والقوانين الشيوعية السوفييتية، الا ان الصحافة وغيرها من وسائل النشر فى الاتحاد السوفييتى تتكتم أخبار هذه القضية وتمتنع عن نشر أى شىء يتعلق بها ولو من بعيد. وكل ما يصل الى العالم الخارجى من أنباء عنها ليس له مصدر الا ما يبعث به المراسلين الصحفيين الأجانب فى الاتحاد السوفييتى(٦١).

ولقد ذكر هؤلاء المراسلون الأجانب أنباء كثيرة عن " حركة المقاومة القرمية " التى بدأها القرميون فى السنتين الأخيرتين. ومن مظاهر هذه الحركة المظاهرات التى اشترك فيها القرميون المقيمون فى موسكو فى ١٧ مارس (آذار) ١٩٦٨ اثناء إحتفال كان قد أقيم فى ذلك التاريخ لتكريم الكاتب الروسى " الكسى يفرافوفيتش كوسترين "، المعروف

---

(٥٩) المرجع السابق، ١٤/٨/١٩٦٩، العدد ٩٦، ص ٤٧.
(٦٠) المرجع السابق، ٢٥/٢/١٩٦٩، العدد ٢٤، ص ٤.
(٦١) أنظر المرجع السادس والتاسع.

بصداقته للقرميين، بمناسبة بلوغه سن الثانية والسبعين. وفى ذلك الحفل تحدث ممثلون لشعب القرم مدافعين عن قضيتهم مطالبين بحق العودة واقامة جمهورية القرم الاشتراكية السوفييتية من جديد. كما تحدث فى ذلك الحفل الجنرال الأوكرانى المتقاعد " بيوتر جريجوريفيتش " ودافع عن قضية القرميين.

وكذلك قام القرميون المقيمون بضواحى مدينة تشرتشيك بجمهورية الأوزبك فى ٢١ ابريل (نيسان) ١٩٦٨ بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لميلاد لينين بمظاهرات إحتجاج مماثلة، وطالبوا بتطبيق المبادىء الأساسية " لسياسة لينين القومية "، وطالبوا بالعودة الى وطنهم واعادة جمهوريتهم. فما كان من أجهزة البوليس السرى السوفييتى الا ان استعملت الغازات المسيلة للدموع لتفريقهم وألقى القبض على عدد كبير منهم.

وفى ٢٣ ابريل (نيسان) ١٩٦٨ قام نواب اتراك القرم الستة عشر فى موسكو بتقديم احتجاج رسمى الى المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى والى النائب العام للاتحاد السوفييتى على موقف البوليس من أحداث تشرتشيك والطريقة المخالفة لقوانين الاتحاد السوفييتى ودستوره التى عامل بها القرميين.

وفى أوائل عام ١٩٦٩ أعلن نواب القرم فى موسكو بياناً خاصاً ناشدوا فيه ضمير الرأى العام السوفييتى والرأى العام العالمى منحهم حق العودة الى وطنهم وحق اقامة جمهوريتهم الاشتراكية السوفييتية من جديد(٦٢). ولكن السلطات السوفييتية لم تستجب لهذا النداء الا بالقبض على زعماء تلك الحركة وتقديمهم للمحاكمة.

وفى ٢٣–٢٥ ابريل (نيسان) ١٩٦٩ حوكم عمر باييف فى مدينة سمفروبول بتهمة " إذاعة الأكاذيب عمداً ونشر الافتراءات على النظام السوفييتى ". وبرغم ان المحكمة قد ثبت أمامها بوضوح انه لم يتحدث الا برأيه الشخصى فى عدم حل قضية اتراك القرم الى اليوم، وان التهمة الموجهة الى باييف لم يكن لها أى أساس من الحقيقة، فقد قضت المحكمة بحبسه سنتين فى احد معسكرات الاعتقال المعروفة بالصرامة والقسوة. وقام القرميون المقيمون فى سمفروبول باحتجاجات شديدة على هذا الحكم الظالم أمام مبنى المحكمة، ولكن هيهات ان يستجيب ظالم لأصوات المظلومين.

وفى ٧ مايو (أيار) ١٩٦٩، ألقى القبض على الجنرال الأوكرانى المتقاعد جريجورينكو (صديق القرميين) فى مدينة طشقند حين جاء إليها ليشترك فى الدفاع عن القرميين الذين

---

(٦٢) الإذاعة الخاصة لراديو "ليبرتى"، ١٩٦٨/٦/٤، ونشرة "درجى"، العدد ٥٢ لعام ١٩٦٨، ص ٧٥/٧٧، والعدد ٥٦ لعام ١٩٦٩، ص ٧١/٧٣.

تقررت محاكمتهم فى ٢٢ مايو (أيار) ١٩٦٩، استجابة منه لرجاء الى شخص من القرميين. ولا يزال الجنرال صديق القرميين معتقلا الى الآن.

هذا وعمليات القبض على القرميين القوميين ومحاكمتهم — هم ومن يتعرض للدفاع عن قضيتهم — تزيد عما يمكن احصائه وما ذكرناه لم يكن الا أمثلة فقط. وسوف تظل هذه الحالة تزداد وتتفاقم يوماً بعد يوم طالما ان السلطات السوفييتية لا تعطى أذناً صاغية لصوت الضمير، ولا تستجيب للحق. وسوف يظل اتراك القرم ثابتين على قوميتهم مطالبين بحقهم فى وطنهم وفى الحرية معتمدين على إيمانهم بها وعلى تأييد أصدقاء للحق فى داخل الاتحاد السوفييتى نفسه وفى خارجه.

القـوقاز الشـماليـة

بقلم: بارازبى بايطوغان

تقـديم

تقع القوقاز الشمالية فى أقصى الجنوب الشرقى للقارة الأوروبية، ويحدها جغرافيا من جهة الشمال الغربى نهر الدون وبحر ازوف، ومن الشمال الشرقى يحد أراضيها الجزء الجنوبى من نهر الفولجا حتى مصبه فى بحر قزوين الذى يكون حدودها الجغرافية من جهة الشرق، أما فى من الجنوب فتفصلها عن أراضى القوقاز الجنوبية سلاسل جبال القوقاز وحوض نهر مانتش حتى مصبه فى بحر قزوين ثم البحر الأسود فى غربها وجنوبها الغربى. وتشكل الأراضى الواقعة داخل هذه الحدود الطبيعية وحدة أقليمية وتاريخية وقومية واحدة(١).

بلغ تعداد السكان فى القوقاز الشمالية طبقاً لاحصاء عام ١٩٥٩ ما قدره ٢ ٣٣٦ ٠٠٠ نسمة. ويعيش مئات الالوف من القوقازيين الشماليين فى تركيا وفى البلاد العربية بالشرق الأدنى حيث يعرفون هناك باسم الشراكسة، وكان معظمهم قد اضطر للهجرة من البلاد بعد استيلاء الروس عليها فى عام ١٨٦٤.

يرجع أصل القوقازيين الشماليين الى العنصر القوقازى الذى يشمل أهل جورجيا فى القوقاز الجنوبية أيضاً وترجع لغتهم الى مجموعة اللغات القوقازية التى تعرف باسم "ايبريك قوقاز"(٢). وتشمل مجموعة اللغات القوقازية لغتين أساسيتين هما:

لغة اباظة ــ اديغة التى يتحدث بها سكان غرب القوقاز.

ولغة تشيتيشان ــ داغستان (ناخ ــ داغستان) التى يتحدث بها سكان شرق القوقاز(٣).

---

(١) "نارودى كافكاسا"، موسكو عام ١٩٦٦، ص ٩.
(٢) غ. ا. كليموف: "كافكازكيه يازيكى"، موسكو عام ١٩٦٥، ص ٧/٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤.

يرى البروفيسور كروبنوف عالم القوقازيات ان تاريخ القوقازيين الشماليين الحاليين يرجع الى عهد القبائل القديمة التى أسست حضارات قديمة فى عصور ما قبل التاريخ، وقد عثر على أدلة كثيرة عليها فى الحفريات فى مناطق القوقاز الشمالية المختلفة(٤).

ومجموعة الشعوب القوقازية تشمل الشعوب الآتية: الايبريك والاوسيتين وهم من أصل ايرانى، والقاراتشاى بلقار والقوموق والنوغاى وهم من أصل تركى، أما الالآنيون الذين عاشوا فى بلاد القوقاز من القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، فأنهم أجداد الاوسيتين الحاليين.

وقد أثبتت البحوث والدراسات الانتروبولوجية (علم البشريات) والاتنولوجية (علم الشعوبيات) ان جميع شعوب القوقاز الشمالية ينتمون الى جنس بشرى واحد هو الجنس القوقازى(٥).

وبخلاف ذلك فهناك عوامل أخرى عديدة تربط بين شعوب القوقاز الشمالية بروابط لا تقل أهمية عن رابطة الدم واللغة. فهناك تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية المشتركة، والحياة الثقافية المشتركة. فالموسيقى والأغانى والرقص والألعاب الشعبية القوقازية تشترك فيها جميع الشعوب القوقازية الشمالية من البحر الأسود حتى بحر قزوين. وهذه الروابط يضاف إليها رابطة الدين، فجميع أهل القوقاز الشمالية مسلمون باستثناء أقلية من الاوسيتين. ولقد ولدت هذه الروابط القوية المتعددة التى ربطت القوقازيين الشمالية ببعضهم منذ أقدم عهود التاريخ إحساساً قومياً ومصيرياً واحداً، ظهرت دلائله القوية حين شبت نيران ثورة فبراير (شباط) عام ١٩١٧ فى روسيا القيصرية.

تاريخ القوقاز الشمالية

قامت فى القوقاز الشمالية حضارات قديمة من العصر البرونزى المتأخر الى العصر الحديدى. وهذه الحضارات كما يذكر البروفيسور كروبنوف هى حضارات كبان وكوبان وقايا كنت، وأنها حضارات ذات قرابة ببعضها، وأن مؤسسيها هم أجداد القوقازيين الحاليين(٦).

---

(٤) ا. ى. كروبنوف: "دريفنيايا استوريا سيفرنوغوكافكاسا"، موسكو عام ١٩٦٠، ص ٨٥.
(٥) بروبسخوشدينيه اوسيتينسكوغو نارودا، اورجونيكيزيه، ١٩٦٧، ص ١٤٩.
(٦) ا. ى. كروبنوف: "دريفنيايا استوريا ى كولتورا قاباردى"، موسكو عام ١٩٥٧، ص ١٧٢.

وفيما بعد ذلك نشأت صلات قوية بين سكان القوقاز واليونانيين القدماء. كما ان القوقازيين لعبوا دوراً كبيراً فى تاريخ ايران وخصوصاً فى علاقة الساسانيين بالدولة البيزنطية. وفى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى دخلت المناطق الشرقية من القوقاز الشمالية، وهى المجاورة لبحر قزوين، فى حدود الدولة التركية القزوينية(٧). وفى وقت من الأوقات اتخذت مدينة سمندر فى الداغستان عاصمة لتلك الدولة. وفى ذلك الوقت وحد اتراك قزوين القسم الأكبر من شعوب القوقاز الشمالية تحت سلطان تلك الدولة حتى سقوطها فى عام ٩٦٥ ميلادية تحت ضربات عنيفة وجهتها اليها قوات كييف الأوكرانية(٨). وما اتراك القوموق المسلمون فى الداغستان الا احفاد اتراك قزوين القدامى(٩).

وفيما بين القرنين التاسع والثانى عشر ازدهرت فى القوقاز الشمالية حضارة الالآنيين وامتدت أجنحتها فوق كل القوقاز الشمالية. ويسمى بعض الباحثين حضارة قبائل القوقاز الشمالية فى أوائل العصور الوسطى بحضارة الالآنيين(١٠).

بدأ الاسلام يطرق أبواب القوقاز الشمالية نحو نهاية القرن الثامن الميلادى حينما احتل العرب مدينة دربند فى الداغستان. ثم سرعان ما انتشر نوره فى كل بلاد الداغستان وبلاد التشيتشين. اما الجهات الغربية من القوقاز الشمالية فقد دخلها الاسلام فى عهد الدولة العثمانية.

ثم جاء المغول فى القرن الثالث عشر واجتاحوا بلاد القوقاز الشمالية. وبعد ذلك بنحو مائة عام قضى تيمورلنك قائد المغول الشهير على آخر مقاومة للقوقازيين الشماليين حينما انتصر على قوات الالآنيين والقابارطاى وطوقتاش.

واذا صرفنا النظر عن القيام بدراسة شاملة للدور الذى لعبته القبائل الروسية القديمة غير المتحضرة فى العلاقات القوقازية الروسية، فيمكننا اذن ان نعتبر ان هذه العلاقات قد بدأت منذ احتلال الروس لاستراخان فى عام ١٥٥٦. وكانت قلعة كسلار الروسية على ضفة نهر تاراك التى أنشئت فى عهد القيصر بطرس الأكبر، بمثابة قاعدة حركات الهجوم الروسية الموجهة صوب القوقاز الشمالية.

وفى الاتفاقية التى وقعت بين روسيا القيصرية وتركيا العثمانية فى عام ١٧٣٩ اعترفت كل من الدولتين بإستقلال بلاد القابارطاى فى الجزء الشمالى الغربى من القوقاز الشمالية.

---

(٧) "استوريا داغستان"، المجلد الأول، غلافنايا، موسكو عام ١٩٦٧، ص ١٣٧.
(٨) المرجع السابق، ص ١٧٤.
(٩) "اوتشركى بواستورى س.س.س.ر." (بين القرنين ٩، ١٣)، موسكوعام ١٩٥٣، ص ١٧.
(١٠) "استوريا داغستانا"، المجلد الأول، ص ١٧١.

وبذلك أخذت القوقاز الشمالية تلعب دور الأرض الفاصلة بين الخصمين التقليدين، روسيا القيصرية وتركيا العثمانية.

وفى عهد القيصرة كاترين الثانية نشطت حركة الروس فى الاستيلاء على أراضى القوقاز الشمالية أكثر من ذى قبل. وفى عام ١٧٦٣ استولى الروس على موزدوك فى بلاد القابارطاى (وكلمة ماز–دك فى لغة القابارطاى تعنى الغابة الكثيفة). وبعد ذلك امتدت الحصون الروسية فى مواقع القرى القوقازية وأحضروا إليها مستوطنين من الروس. ثم بدأوا يتطلعون الى الأراضى الجنوبية، فأدرك القوقازيون الشماليون مدى الخطر المحدق بهم وأخذوا يتحصنون ويتسلحون ونجحوا فى مقاومة الهجمات الروسية وصدها عن بلادهم سنوات طويلة. وفى عام ١٧٨٣ قامت قوات روسية بقيادة الجنرال سوفوروف بالاعتداء على مسلمى نوغاى الاتراك الرحل الذين كانوا يعيشون بين نهر كوبان والدون وقضى على أكثرهم، ولجاء من بقى منهم حيا الى وادى كوبان والى بلاد الاديغة.

ثم جاءت إتفاقية "كوتشوك قاينارجا" التى وقعت بين الدولتين الروسية والعثمانية فى عام ١٧٧٤ وهيأت للروس سنداً قانونياً لاحتلال المناطق الوسطى فى القوقاز الشمالية. إذ قبلت تركيا العثمانية فى هذه الاتفاقية اعتبار أراضى القابارطاى فى حدود خانية القرم. وبعد ان ضم القرم الى روسيا فى عام ١٧٨٣ أخذت السلطات الروسية تصف القوقازيين الشماليين بأنهم متمردون خارجون على النظام(١١).

وادى هذا السلوك الروسى الى توحيد شعوب القوقاز الشمالية كلها تحت قيادة واحدة وبويع الشيخ المنصور التشيتشانى إماماً أكبراً للبلاد. وقامت قوات القوقازيين الشماليين فى عام ١٧٨٥ بالهجوم على الحصون والقلاع الروسية التى كانت تقع على خطوط المواصلات بين روسيا وبلاد الكرج (جورجيا) وتخريبها. وظلت جميع المناطق الممتدة من قلعة "موزدوك" الى "فلاديكافكاز" (بلاد القوقاز) المعروفة الآن باسم اورجونيكيزيه، تحت سيطرة القوقازيين الشماليين، ولم يتمكن الروس من استعادة هذه الطرق الا عام ١٨٠٢ بعد استيلاء الروس على جورجيا وضمها الى دولتهم بزعم انها أخلّت ببنود إتفاقية ١٧٨٣.

وفى ١٩ سبتمبر (أيلول) ١٧٨٣ أعلنت روسيا – فى عهد كاترين الثانية – الحرب على تركيا. واستغل الشيخ المنصور هذا الموقف فنقل ثقل حركته العسكرية نحو اقليم كوبان – الذى كان يسمى فى خرائط القرن التاسع عشر "بلاد التشيتشين" – حيث

(١١) "استوريا سيفرو–اوسيتنسكوى ا.س.س.ر."، موسكوعام ١٩٥٩، ص ١٣٥.

كانت تركيا قد أتمت انشاء قلعة أنابا. وكان الاتراك العثمانيون قد بنوا هذه القلعة نزولا على رغبة زعماء الشراكسة فى تلك البلاد الذين طالبوا تركيا بمعاونتهم فى صد الأعتداءات الروسية. ولكن القوات الروسية المهاجمة بقيادة الجنرال جودوفيتش تمكنت فى عام ١٧٩١ من احتلال قلعة أنابا، وأسرت الشيخ المنصور الذى كان يحتمى بداخلها وأرسلته الى بطرسبورج حيث بقى سجيناً فى قلعة شليسبورج الى ان توفى.

وفى إتفاقية ادرنة بين روسيا وتركيا عام ١٨٢٩ اعتبرت أراضى التشيتشين جزءاً من روسيا، وقام الروس بوضع قواتهم على طول سواحل القوقاز على البحر الأسود.

وفى العشرينات من القرن التاسع عشر، قامت فى بلاد الداغستان حركة وطنية إسلامية سميت " المريدية " كان هدفها حماية القوقاز الاسلامية من العدوان. وقد تولى زعامة هذه الحركة ثلاثة من الأئمة على التوالى، وهم الغازى محمد الذى لم تستمر زعامته طويلا لاستشهاده فى احدى المعارك. وحمزة بك الذى لم يبق طويلا فى الزعامة إذ راح ضحية التآمر عليه. ثم بايع الناس الشيخ شامل اماما، وتولى زعامة الحركة. والامام شامل آفارى الأصل، وكان مسلماً مؤمناً ومجاهداً عظيماً. وكثيراً ما صوّرة الروس على أنه متعصب دينى وجاهل. الا ان هذا الحكم يخالف الحقيقة تماماً. فلو كان متعصباً دينياً لما سمح لبعض المضطهدين الفارّين من طغيان الروس من غير المسلمين بالالتجاء الى بلاده، ولما كثر عددهم اسكنهم فى جماعة واحدة وقدم لهم الوسائل لبناء كنائس يؤدون فيها صلواتهم.

ثم قام الروس فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر بتعزيز سيطرتهم على بلاد القابارطاى والقاراتشاى وبذلك فصلوا بين الاقاليم الشرقية والأقاليم الغربية من القوقاز الشمالية. وأدى ذلك الى وضع الشيخ شامل فى ظروف حرجة جداً. ولكنه برغم ذلك لم تفتر عزيمته ولم يفقد أمله فى النصر النهائى بل أخذ يوسع نشاطه ويزيد من حركاته العسكرية، واستطاع ان يكون جيشاً نظامياً وان كان صغيراً فى عدده نسبياً. وأسس فى القوقاز مصانع لانتاج المدافع والأسلحة والذخائر والبارود. ووضع تنظيماً لحكم البلاد فى شكل مجلس تولى هو رئاسته وكان نائبه محمد امين الشركسى.

ولكن لم يكن هناك أى نوع من التكافؤ بين الطرفين المتقاتلين لا من حيث العدد ولا العدة. فقد كانت القوات الروسية المسلحة بأحدث وأقوى الأسلحة المعروفة فى ذلك العصر تفوق فى أعدادها اعداد المجاهدين القوقازيين أضعافاً مضاعفة. فقد بلغ ما حشده الروس فى القوقاز الشمالية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ٢٠٠ الف جندى، ثم

٣٠٠ الف فى الخمسينات. وذلك فى مواجهة شعب صغير فقير يعيش فى شبه عزلة عن العالم لا يملك من الامكانيات البشرية والمادية الا القليل.

وخالج القوقازيين الأمل فى الحصول على مساعدات أجنبية عندما اندلعت نيران حرب القرم بين الروس والعثمانيين وانزل الاتراك قواتهم فى مدينة صوخوم على ساحل البحر الأسود.

ولقد كتب الجنرال فادايف المؤرخ العسكرى السياسى الروسى فى القرن الماضى معلقاً على تلك الحروب ما يلى:

كانت حروب القوقاز تشل تحركات قواتنا. إذ لم نستطع ان نرسل الى قطاع باشقاديقلر الا تسعة آلاف جندى من قواتنا البالغ عددها ٢٨٠ الف جندى(١٢)، علماً بأن مصير القوقاز ما كان ليتعين الا بالحرب. وان هذا الجيش المؤلف من ٢٨٠ الف جندى والمزود بكل الامكانيات والخبرات الحربية، والذى كان فى إمكانه ان يسحق أى قوة تقف فى وجهه من مصر الى اليابان، انخفضت قدرته على الحركة فى أوروبا الى الصفر، وذلك بسبب الموقف العدائى الذى يقفه القوقازيون منه فى سبيل حماية حريتهم واستقلالهم.

وظل الشيخ شامل يقود القوقازيين ببسالة على مدى ٢٥ عاماً جاهد فيها جهاداً مريراً دفاعاً عن عقيدته وقومه. ولكن فى النهاية قطع الأمل فى إمكان تحقيق نصر نهائى بعد ان زاد العدو من قواته ومن هجماته بشكل لا تستطيع إمكانياته المتواضعة صده. وفى ٢٥ أغسطس (آب) ١٨٥٩. استسلم الشيخ شامل خضوعاً لقدره. واستهدفت بلاد الشركس بعد ذلك لويل وبلاء عظيم. وبدأ الروس فى تلك البلاد سياسة الافناء والطرد.

ويصف المؤرخ الروسى م. فينوكوف هذه الفترة كما فى السطور التالية:

كانت الحرب تدور بقسوة وبدون أى رحمة فيها ولا شفقة. كنا نتقدم شبراً فشبراً وفى عزمنا ان تطهر كل الأراضى التى تدوسها أقدام الروس من الداغستانيين، (أى القوقازيين الشماليين) ولا سبيل الى التراجع. وبمجرد ان ذابت الثلوج واخضرت الأشجار كانت النار تشتعل فى مئات من القرى فى الجبال، وكانت محاصيلهم الزراعية تقدم علفاً لخيولنا أو تخرب عمداً. وحين كان سكان القرى يغفلون فيقعون فى الأسر، كانوا يساقون الى قرى الكوزاك ومن هناك الى سواحل البحر الأسود حيث يطردون الى تركيا. وكثيراً ما كنا نعثر فى الأكواخ على أرز فى أنية الطبخ لم

(١٢) ميادين القتال فى الجبهة الآسيوية فى حرب القرم.

يبرد بعد فوق الموائد، وعلى ملابس رشقت فيها أبرة الحياكة لم يتم ترقيعها بعد، وعلى لعب أطفال مختلفة تناثرت فوق الأرض. وكانت تحدث من جنودنا فى أحيان نادرة أعمال وحشية دموية لا تتناسب مع شرف الجندية(١٣).

ولقد استمرت المذابح لمدة سنوات أخرى الى ان سقطت منطقة اخجيبصو الجبلية الحصينة فى يد الجيوش الروسية فى مايو (آيار) ١٨٦٥ وبذلك سقط آخر معقل للمقاومة القوقازية.

هبط عدد سكان القوقاز الشمالية فى احصائية عام ١٨٩٧ الى ١ ٦٦٠ ٠٠٠ بعد ان كان عددهم ٣ ٢٠٠ ٠٠٠ حتى عام ١٨٦٠، وذلك بسبب أعمال الطرد والابادة التى مارسها الروس فى القوقاز الشمالية. وتصف السطور الآتية الحالة هناك بما يلى:

انتهت المعارك الدموية بنفى الداغستانيين الى خارج البلاد والقضاء عليهم وتخريب حضارتهم أشد تخريب. وجفت القنوات والمراعى وخربت الطرق بأيدى الروس. أما البساتين والحدائق الواسعة فقد أصابها الخراب والدمار، أما أثناء المعارك أو أثناء عملية اسكان الروس، أو انها تركت وأهملت ونبتت فيها نباتات طفيلية، وصار من الصعب التمييز بين الغابات الوحشية ومزارع الكروم التى كانت يعتنى بها(١٤).

ومنذ استتباب الأمر للروس فى القوقاز الشمالية أخذوا فى توزيع أراضيها المصادرة بعد طرد أصحابها منها على الكوزاك الروس وعلى الضباط والموظفين الروس الذين اشتركوا فى الحرب وعلى المهاجرين منهم. كما أعلنت الحكومة الروسية وضع يدها على جميع أراضى الغابات الشاسعة فى القوقاز الشمالية واعتبارها ملكاً لخزينة الدولة الروسية(١٥). ونتيجة لهذه الاجراءات التعسفية الجائرة اضطر قرابة ٨٠ الف من التشيتشين والانغوش والاوسيتين والقبارطاى وغيرهم الى الهجرة الى الدولة العثمانية. وبلغت حركة الهجرة أشدها فى الفترة الواقعة من ١٨٦٤–١٨٦٦.

ومع ذلك، فان القلة القليلة من القوقازيين الذين بقوا فى بلادهم بعد ذلك استمروا يسببون المتاعب من حين لآخر لسلطات الاستعمار الروسى، وبصفة خاصة أثناء الحرب

---

(١٣) م. فينيوكوف: "ك. استورى زاسيلينيا زابادونفوكافكازا"، روحكايا ستارينا، الكتاب ٢٢، عام ١٨٧٨، ص ٢٤٩.

(١٤) ب. س. لتشكوف: "اوتشركى از بروشلوغوى ناستوياشتشيغو بوبيريزيا كافكازا"، كييف عام ١٩٠٤، ص ٥/٦.

(١٥) ب. غافريلوف: "اوستروبستفو بوزيميلنوغو بتا غورتسيف سيفرنوغو كافكازا، ازيورنيك سفيدينى أوكافكازكى غورتساح"، الملزمه ٢، ص ٤.

الروسية ــ التركية التى دارت فى الأعوام ١٨٧٧ــ١٨٧٨. وكانت أهم مراكز الثورات فى بلاد التشيتشين والداغستان. وحين نزلت القوات التركية على سواحل البحر الأسود عند مدينة صوخوم، خف إليها الأباظيون لمساعدتها، وحين انسحبت هذه القوات منها رحل معها عشرات الالوف من الأباظيين ولجأوا الى تركيا خوفاً على أنفسهم من انتقام الروس منهم وانقاذاً لأرواحهم.

ولكن الأمل عاد يراود القوقازيين الشماليين من جديد عندما انفجرت الثورة الديموقراطية فى روسيا فى فبراير (شباط) ١٩١٧. وفى ٨ مارس (آذار) من نفس السنة تألفت حكومة مؤقتة لاتحاد الداغستانيين (أى القوقاز الشمالية) فى مدينة فلاديكافكاز. ثم عقد أول مؤتمر عام لشعوب القوقاز الشمالية حضره مندوبون عن جميع شعوبها فى أول مايو (أيار) حتى ٧ منه. وطالب المؤتمر باعادة تنظيم جمهورية روسيا الفيدرالية ووضع أسس جديدة للوحدة مع القوقاز الشمالية، واعادة الأراضى القوقازية التى تمتلكها خزينة الدولة الروسية الى القوقاز(١٦).

وبعد استيلاء البلاشفة على الحكم فى روسيا فى اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧ انقطعت كل صلة بين القوقاز الشمالية وبتروغراد. وتحملت اللجنة المركزية لاتحاد القوقاز الشمالية جميع مسؤوليات الحكم عن طريق مجالس شعبية تشكلت من كل شعوبها. ومع بداية العام الجديد فى يناير (كانون الثانى) ١٩١٨ بدأ البلاشفة باحتلال بعض مدن القوقاز، بياتيجورسك وجيورجيفسك وغيرها، بواسطة الحاميات الروسية المحلية. وعقد الروس فى آخر يناير (كانون الثانى) ١٩١٨ فى مدينة موزدوك المؤتمر الأقليمى الأول " تاراك " الذى اداره كيروف وهو أحد أعوان ستالين المقربين إليه. ثم عقد المؤتمر الثانى فى بياتيجورسك بعد الأول باسبوعين تقريباً، وهو الذى تقرر فيه الاعتراف بحكومة البلاشفة وابرقوا الى لينين يبلغوه تهنئتهم وتحياتهم. ويجدر هنا ان نذكر ان أغلبية الحاضرين فى هذين المؤتمرين كانوا من المستوطنين الروس والجنود الروس فى الحاميات الروسية فى القوقاز. كما قام المؤتمر بانتخاب أعضاء " المجلس السوفييتى لتاراك ". واختار المؤتمر مجلس وزراء " مجلس قوميسيرى الشعب لتاراك " وعين الشيوعى بواتشيتزيه الهارب من جورجيا رئيساً له.

لم تمتد سلطة مجلس القوميسيرين الشيوعى فى القوقاز الشمالية الى كل أنحاء القوقاز، بل اقتصرت على بعض المدن والمناطق التى كان أغلبية سكانها من الروس. وبقيت البقاع الشمالية التى يكثر فيها القوقازيون الأصليون تسيطر عليها المجالس الشعبية المحلية التابعة للجنة

(١٦) ا. طاهرغودى: "ريفوليوتسيا ى كونتر ريفوليوتسيا ف داغستانيه"، مهاج قلعه، ص ١٥١/١٦٣.

المركزية لاتحاد القوقاز الشمالية التى كان مقرها مدينة " تاميرخان شورى " التى يسميها الروس الآن " بوبناكسك ".

وفى هذه الأثناء ظهر فى القوقاز عامل جديد، هو التدخل التركى المسلح. فقد عقد فى مدينة طرابزون اجتماع بين ممثلى الشعوب القوقازية كلها، الشمالية والجنوبية، وبين مندوبين عن الحكومة التركية. وأدرك المجتمعون أنه لو سلك ممثلوا هذه الشعوب مسلك الدول المستقلة ذات السيادة لسهل الأمر. وبناءاً عليه أعلن استقلال القوقاز الشمالية فى ١١ مايو (أيار) ١٩١٨، ثم أعلن استقلال جورجيا فى ٢٦ منه، ثم تلتهما آذربيجان وأرمينيا فى ٢٨ منه.

ولقد تم اعلان استقلال القوقاز الشمالية فى ظروف عصيبة جداً. فقد أرسلت حكومة البلاشفة فى روسيا قوة بحرية من بحر قزوين فى أواخر أبريل (نيسان) ١٩١٨ عن طريق استراخان. وقام مشاة الأسطول تؤيدهم السفن الحربية باحتلال مفاجىء لبلدة بوربتروفسك الساحلية التى كانت تسمى فيما قبل " شامل قلعة ". فاضطرت اللجنة المركزية والمجلس الشعبى لاتحاد القوقاز الشمالية الى الانتقال الى بلدة غونيب الجبلية التى أعلن الاستقلال منها. وانتخب عبد المجيد تشرمويف، الذى رأس وفد القوقاز الشمالية فى إجتماعات طرابزون، رئيساً لحكومة جمهورية القوقاز الشمالية. وتحول المجلس الشعبى لاتحاد القوقاز الشمالية الى برلمان، وكلف وفده فى طرابزون بابلاغ الدول الأجنبية بصفة رسمية بانشاء الدولة القوقازية الشمالية المستقلة.

وبادرت تركيا بالاعتراف باستقلال دول القوقاز كلها اعترافاً رسمياً. ولم تمض مدة طويلة حتى اعترفت الدول المتحالفة فى الحرب العالمية الأولى بهذا الاستقلال. واحتجت حكومة روسيا السوفييتية على هذا السلوك، بينما كان وفد القوقاز الشمالية الرسمى قد وقع فى اسطنبول معاهدة للصداقة والتعاون مع الحكومة التركية. وتنفيذاً لهذه المعاهدة أرسلت تركيا الى القوقاز الشمالية فى سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ فرقة تركية بقيادة يوسف باشا عزت. ولكنها اضطرت للعودة الى تركيا بعد شهرين بناءاً على بنود هدنة مونرو.

شهدت حدود القوقاز الشمالية مع روسيا فى صيف عام ١٩١٨ جزءاً من الحرب الأهلية الروسية، حينما حاول الجنرال دينيكين قائد قوات الروس البيض القضاء على الجيوش الشيوعية فى تلك المناطق. وكان هدف الجنرال الأساسى هو اعادة بناء " روسيا الموحدة ". وسارت قواته تضرب قوات الشيوعيين متجهة نحو الجنوب. وقامت قوات القوقاز الشمالية القومية فى نفس الوقت بالهجوم على قوات الشيوعيين. وقامت

القوات القوقازية بقيادة الاميرالاى زيوار بك داود باحتلال مدينة نالتشيك، ثم طهرت مدينة حصاف يورت من البلاشفة وفى سبتمبر (أيلول) ١٩١٨ تم لها استرداد بور تير وفسك (شامل قلعة) بالاشتراك مع الفرقة التركية التى كان يقودها يوسف باشا عزت. وهذا يكذب ادعاء المؤرخين السوفييت الذين يزعمون ان الأحوال استتبت للحكم السوفييتى فى القوقاز منذ ١٩١٨. فقد كانت المناطق الجبلية جميعها ومناطق السهول التى يسكنها أغلبية من القوقازيين الشماليين الأصليين، تحت سيطرة حكومة جمهورية القوقاز الشمالية المستقلة.

دخلت قوات الجنرال دينيكين بلاد القابارطاى والاوسيتين فى فبراير (شباط) ١٩١٩ ووقفت على أبواب غروزونى. وبذلك تمكنت بالفعل من القضاء على قوات الجيش الحادى عشر البلشفى الذى كان يقوم بحركته عند الطرف الجنوبى للقوات البيضاء. وعندئذ لم تر القيادة الروسية البيضاء بأساً من إظهار مشاعرها العدائية نحو جمهورية القوقاز الشمالية المستقلة وكشفت بهذا أقنعتها. وقام الانجليز الذين كانوا قد أنزلوا كتيبة من جنود المستعمرات البريطانية فى بوربتروفسك لنجدة الجيوش الروسية للحيلولة دون وقوع صدام مسلح بينهما. الا ان الروس البيض برغم تلك الوساطة لم يتراجعوا عن نياتهم العدوانية فى القوقاز الشمالية واستمر هجومهم المسلح عليها. وفى مارس (آذار) ١٩١٩ تصدت قوات القوقاز الشمالية للهجوم الروسى الأبيض ودارت معارك ضارية على أرض بلاد التشيتشين انغوش بصفة خاصة. ولم تكن قوات القوقاز الشمالية فى الحقيقة الا أهلى البلاد المدنيين إذ لم يكن للقوقازيين الشماليين جيش نظامى فى ذلك الوقت. واستمرت المعارك بين قوات الجنرال دينيكين البيضاء وشعب القوقاز الشمالية طوال شهر ابريل (نيسان) ١٩١٩. ثم توقفت نتيجة لتدخل الانجليز من جديد. فقد بعثت قيادة القوات البريطانية المرابطة فى بوربتروفسك برسالة الى حكومة القوقاز الشمالية أبلغتها فيها ان دينيكين قد قرر، بناءاً على اقتراح الانجليز، وقف حركات الزحف وعدم الاستمرار فى الهجوم . . . " ثم جاء فى نفس الرسالة ان موضوع استقلال القوقاز الشمالية ومشاكل حدودها سوف تبحث فى مؤتمر الصلح.

ولكن الجنرال دينيكين كان قد بيت الخديعة للقوقازيين الشماليين، وقامت كتيبة من قواته باحتلال مفاجىء لبوربتروسك فى أواخر شهر مايو (أيار) ١٩١٩. ونتج عن ذلك الاحتلال انهاء نشاط برلمان القوقاز الشمالية وحكومتها. وأخذ من فروا الى جورجيا منهم يواصلون نشاطهم منها باسم " مجلس القوقاز الشمالية ".

ويذكر الجنرال دينيكين فى مذكراته عن تلك الفترة، ان القوقاز الشمالية ضمت الى روسيا، " ولكنها لم تخضع . . . "(١٧). وفى هذه المذكرات عبر عن مخاوفة من فكرة الوحدة القومية للقوقاز الشمالية.

قامت الثورة القوقازية على الجنرال دينيكين فى شهر يونيه (حزيران) ١٩١٩. وبدأت من بلاد الداغستان والتشيتشين، ثم أخذت تتسع حتى شملت القوقاز الشمالية كلها فى سبتمبر (أيلول) ١٩١٩. واستطاع الثوار القوقازيين الشماليين القضاء على جميع الحاميات الروسية البيضاء فى المنطقة الجبلية من الداغستان، واستولت على أسلحتها وذخائرها. وبذلك أصبح للقوقازيين الشماليين قوات شعبية نظامية مرابطة تملك أسلحة حديثة بما فيها المدافع الثقيلة. وتألفت حكومة الثورة فى اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٩ فى هيئة " مجلس الدفاع عن القوقاز الشمالية " الذى ضم أعضاء مجلس القوقاز الشمالية وأعضاء " الجماعة الاشتراكية القوقازية ". ثم تبين فيما بعد ان البلاشفة قد تسربوا الى صفوف الجماعة الاشتراكية القوقازية. ويقول دينيكين فى مذكراته فى هذا الشأن:

كانت بلاد تاراك—داغستان تحترق فى ربيع ١٩١٩ بنيران الثورات . . .

وكانت تدور فيها معارك دموية بالغة العنف. وكانت نيران المعارك تخبوا أحياناً ثم تعود فتنضرم. تارة مع القوات البلشفية فى الجنوب، وتارة مع قوات القوقازيين الشماليين التى توجهها حكومة القوقاز الشمالية المزعومة (يقصد مجلس القوقاز الشمالية الذى تحدثنا عنه) وتؤيدها آذربيجان وجورجيا.

وكان زعم دينيكين بوجود " نجدة شيوعية " للقوقازيين الشماليين زعم باطل. فهذه النجدة الشيوعية لم يكن لها وجود على الاطلاق. فقد جاء باحد التقارير للجنة الأقليمية للحزب الشيوعى الروسى البلشفى فى القوقاز الشمالية ما يلى:

يرابط الجيش الأحمر الآن فى القوقاز الشمالية وفى الأراضى القوموقية وفى منطقة حصاف يورت. وتتألف قواته من بقايا الجيش الحادى عشر السوفييتى الذين يختفون فى الأحراش الموجودة على ضفاف نهر تاراك عند مصبه الأدنى(١٨).

وفى خريف ١٩١٩ كان قد تم تطهير المناطق الجبلية فى الداغستان من الوحدات الروسية البيضاء، واحتلت القوات القوقازية الشمالية القومية مدينة دربند، اما مرفأها فقد

---

(١٧) دينيكين: "اوتشركى روسكوى ازموتى" المجلد الرابع، ص ١٣٦.

(١٨) "بوربا زا اوستانوفينيه ى او بروتشنينيه سوفتسكوى فلاستى ف داغستانيه ١٩١٧—١٩٢١"، موسكو عام ١٩٥٨، ص ٣٠٧.

ظل تحت سيطرة قوات دينيكين والاسطول الروسى الأبيض فى بحر قزوين. وكانت مدينة غروزنى فى بلاد التشيتشين، التى كانت مقر قيادة الجنرال دراتسنكو الروسى الأبيض، تتعرض لهجوم قوات القوقازيين الشماليين. واما فى بلاد الانغوش وفى غربها فقد كانت قوات الروس البيض ترابط فى منطقة السهول فقط.

كان وفد جمهورية القوقاز الشمالية فى باريس قد وقع مع حكومة رادا الكوبانية التى تمثل الادارة المحلية للقوقازيين السلافيين الكوبانيين، إتفاقية تحالف وصداقة، وذلك فى صيف ١٩١٩. ونصت الاتفاقية على حل مشاكل الحدود بين الدولتين عن طريق المحادثات. وأعلن دينيكين فى ذلك الوقت ان هذه الاتفاقية "خيانة لروسيا". ومن ثم أصدر أوامره باعدام كولابوهوف رئيس البرلمان الكوبانى. باعتباره المسؤول الأول عن توقيع تلك الاتفاقية، وصدرت أحكام غيابية بالسجن على أعضاء البرلمان الكوبانى. وأثار هذا التصرف من الجنرال دينيكين حفيظة الكوبانيين وزاد من تمسكهم بحركة الاستقلال والتحرير. وهو الأمر الذى أدى الى أضعاف مركز القوات الروسية البيضاء فى القوقاز الشمالية الى أبعد الحدود.

ومع حلول شهر فبراير (شباط) ١٩٢٠ ظهرت بوادر هزيمة جيش دينيكين. وكانت قيادة الجيش الأحمر فى الجبهة الجنوبية الشرقية فى ١٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠ قد أعلنت ما يلى:

تم تشكيل مكتب مهمته تطبيق النظام السوفييتى فى القوقاز الشمالية. ويتشكل المكتب من اورجونيكيزيه (رئيساً)، وكيروف (نائباً للرئيس)، وستوبانى ومديوانى وناريمانوف (أعضاء) . . .

ان تشكيل هذا المكتب بهذه الطريقة من روس واحد وثلاثة جورجيين وآذربيجانى واحد وخلوه من أى قوقازى شمالى، لم يكن إيذاناً بالتدخل الأجنبى فى شؤون القوقاز الشمالية وحسب، بل كان بداية التحكم البلشفى فى شؤون جميع الجمهوريات القوقازية فى الشمال والجنوب.

ولقد كان الدور الذى لعبه الشيوعيون القوقازيون فى الأحداث التى نحن بصددها، دور يلفت الأنظار. لم يكن هناك بين المثقفين التقدميين فى القوقاز الشمالية الى يوم قيام الثورة عضو واحد من الجناح الشيوعى للحزب الاشتراكى الديموقراطى. فان هذا الجناح الشيوعى لم يتألف قبل أواخر مارس (آذار) ١٩١٩ بجهود مهاتش وهادايف واولوبى بوبناكسكى الداغستانيين، باسم "الجماعة الاشتراكية للحركة القومية للقوقاز الشمالية"، واتخذت من

قرارات المؤتمر الشعبى للقوقاز الشمالية برنامجاً لها. وهى القرارات التى وضعت فيها المطالبة باعادة تنظيم الامبراطورية الروسية على أسس جديدة فيدرالية وحق القوقاز الشمالية فى الحكم الذاتى. وبرغم هذا الاتفاق فى الرأى والهدف، فقد وقفت " الجماعة الاشتراكية " موقفاً عدائياً من رجال الدين المحليين تعارض تدخلهم فى الشؤون السياسية، وخصوصاً الشيخ نجم الدين غوتسينسكى الذى انتخبه الشعب مفتياً للقوقاز الشمالية. وكان يعمل على توسيع نفوذه فى البلاد أملا فى ان يصبح " شاملا " ثانياً. وقد يكون هذا الموقف هو الذى دفع " بالجماعة الاشتراكية " شيئاً فشيئاً الى الاتجاه نحو الشيوعيين الذين كانوا قد أعلنوا نيتهم على اعطاء جميع شعوب الامبراطورية القيصرية " حق الانفصال عن روسيا وحق تقرير المصير ". ولهذا لم تجد " الجماعة الاشتراكية " حرجاً فى ان تتعاون مع الحزب الشيوعى الروسى البلشفى تعاوناً سافراً.

وعندما احتل الجيش الأبيض بقيادة الجنرال دينيكين جزءاً من أراضى القوقاز الشمالية، لجأ أعضاء " الجماعة الاشتراكية " الى باكو بآذربيجان. وسجلوا أنفسهم فى سجلات الحزب الشيوعى الآذربيجانى دون ذكر قوميتهم القوقازية الشمالية. ثم أوضحوا عن رغبتهم فى تأليف حزب شيوعى للقوقاز الشمالية. ولكن الحزب الشيوعى الروسى البلشفى عارض مثل هذا " التمييز "(١٩). وفى خريف ١٩١٩ عندما اشتدت رحى الثورة على الجيش الأبيض فى القوقاز الشمالية، عاد أعضاء " الجماعة الاشتراكية " الى البلاد وانضموا الى مجلس الدفاع عن القوقاز الشمالية دون ان يكشفوا عن وجههم الحقيقى الشيوعى. وكانوا يشكلون أغلبية أعضاء ذلك المجلس.

وفى وقت زحف الجيش الأحمر نحو الحدود القوقازية الشمالية، قام الشيوعى سلطان سعيد كازبكوف بتولى رئاسة مجلس الدفاع. وما ان تمت هزيمة قوات دينيكين البيضاء واستولى الجيش الأحمر على السلطة، حتى وجد هؤلاء الشيوعيون القوقازيون أنفسهم أمام وضع يختلف تماماً عما حسبوه وما كانوا يخططون له. لقد كانت أهداف وآمال " مجلس الدفاع " هى ما أعلنه أعضاؤه فى بيانهم فى ١٧ فبراير (شباط) ١٩٢٠ الذى كان يحمل توقيع رئيسه سلطان سعيد كازبكوف الذى نصه :

ان أعضاء مجلس الدفاع عن القوقاز الشمالية الذى إنتخبه الشعب فى ذلك الوقت العصيب الذى يبذل فيه أقصى جهوده لتحرير القوقاز الشمالية وتحقيق أمل الاستقلال، يعتبرون أنفسهم تشكيلا مؤقتاً الى يوم تطهير أراضى جمهورية الداغستان من الأعداء

---

(١٩) المرجع السابق، ص ٣٩٤/٣٩٥.

تطهيراً تاماً، والى يوم تتشكل فى البلاد حكومة وطنية تنبع من ارادة شعوب القوقاز الشمالية كلها. وهذا المجلس تشكيل يعمل فى سبيل حرية الشعوب القوقازية وتحريرها ويتولى إدارة الأراضى التى يتم تطهيرها، وفى هدفنا دعوة المؤتمر الشعبى العام للشعوب القوقازية المناضلة للانعقاد لأجل بحث مشاكل تحرير بقية الأراضى القوقازية الشمالية المحتلة بالاعداء، وايجاد حل نهائى لمشاكل تأسيس الدولة. ان مجلس الدفاع الوطنى إنما يسعى لحل جميع مشاكل البلاد اليومية بما يتفق مع روح الشريعة والثورة، وذلك عن طريق السعى لتعبئة جميع القوى الحيوية فى البلاد من أجل حركة الدفاع عن حرية القوقاز الشمالية واستقلالها. ان الشعب القوقازى الذى عانى أنواعاً من العذاب ليرغب فى السلام وفى التقدم الثقافى. ولذلك فهو يهدف الى المحافظة على حسن الجوار وعلى السلام مع جميع الجمهوريات التى تقع على حدود جمهوريات الشعوب القوقازية المتحدة المناضلة. وكذلك يعتبر المجلس نفسه مسؤولا عن الشؤون السياسية الداخلية والخارجية ويتعهد بتحمل أعباء الحكومة كلها(٢٠).

إذن فمجلس الدفاع كان يهدف الى إنشاء الدولة القوقازية الشمالية المتحدة المستقلة على مبادىء الحرية والديموقراطية. ولا شك فى ان هيئة المكتب المكلف بتطبيق النظام السوفييتى فى القوقاز الشمالية كانت تعلم بهذا البيان. ولكن الجيوش السوفييتية الزاحفة على القوقاز وعلى رأسها ذلك " المكتب " كانت تضمر نوايا أخرى. ولم يكن الجيش الأحمر يقاتل الجيش الأبيض من أجل تحرير القوقاز الشمالية كما زعم البلاشفة، وانما لضمها من جديد الى الامبراطورية الروسية السوفييتية.

وكان أول ما فعله البلاشفة فى القوقاز الشمالية هو الضغط على أعضاء مجلس الدفاع الوطنى لطرد الأعضاء غير الشيوعيين منه، ثم أعلن المجلس تحويل نفسه الى " مجلس الثورة "، وأعلن فى ابريل (نيسان) ١٩٢٠ ما يلى:

لم تعد هناك حاجة لوجود مجلس الدفاع. ولما كانت شعوب القوقاز الشمالية قد شكلت لجان ثورة مختلفة، فان مجلس الدفاع يحمل من الآن فصاعداً اسم " مجلس الثورة ".

وبعبارة أخرى لجأت القيادة البلشفية الى تطبيق سياسة " فرق تسد " فى القوقاز الشمالية. كما بادرت بتسريح الوحدات المسلحة التابعة لمجلس الدفاع.

---

(٢٠) المرجع السابق، ص ٣٧٧.

وبدأت العقلية الشيوعية العسكرية " التى تحكمت فى روسيا فى ذلك الحين، تطبق سياستها الارهابية بحذافيرها فى القوقاز الشمالية. وبدأت حركة إعتقالات واسعة بين الوطنيين المثقفين، وعاملوا القوقازيين معاملة الاعداء.

ونتيجة لذلك انفجرت فى القوقاز الشمالية ثورة كبرى على التحكم البلشفى فى خريف ١٩٢٠. وكانت الداغستان مركزاً لهذه الثورة. ثم اتسعت الثورة فى أوائل ١٩٢١ فشملت بلاد القاراتشاى والشركس واستعر لهيبها بعنف لم يكن يتوقعه البلاشفة، مما اضطرهم الى ارسال جيوشهم التاسع والعاشر والحادى عشر لاخمادها. وكان عدد القوات الحمراء التى حشدت ضد الداغستان وحدها ٦٧ كتيبة مشاة، وقوة فرسان بلغت ١٠ الاف بما فى ذلك المدافع الثقيلة وأنواع المدرعات والسيارات(٢١).

وقامت وحدات الجيش الأحمر بالاستيلاء على جمهورية جورجيا المستقلة فى القوقاز الجنوبية فى فبراير (شباط) ١٩٢١ برغم معاهدة الصداقة التى كانت قد ابرمتها مع موسكو قبل ذلك بفترة قصيرة. وأدى ذلك الى تطويق القوقاز الشمالية وأضعاف مركزها الحربى. وبرغم ذلك استمرت الثورة حتى أواخر يونيه (حزيران) ١٩٢١. وظل الشيخ نجم الدين غوتسينسكى من قواد الثورة مختفياً فى الجبال حتى عام ١٩٢٤. أما سعيد شامل حفيد الزعيم الكبير شامل الذى كان قد وصل الى الداغستان من تركيا فى بداية الثورة فقد استطاع ومعه الجنرال سلطان قيليج كيراى من العودة الى الأناضول عبر أراضى جورجيا المحتلة ومن هناك وصلا الى اسطنبول.

وعلى كل حال، فهذه الثورة بالرغم من نجاح قوات الجيش الأحمر فى اخمادها، فانها اجبرت الحكومة السوفييتية على اعطاء بعض التنازلات لأصحاب البلاد. وفى مقدمتها منح القوقاز الشمالية الحكم الذاتى. ولكنهم قسموا البلاد الى دولتين: أحداهما جمهورية الداغستان والأخرى جمهورية القوقاز الشمالية، وذلك بقرار من اللجنة التنفيذية المركزية لروسيا السوفييتية فى ٢٠ يناير (كانون الثانى) ١٩٢١.

كانت الحكومة السوفييتية قد وعدت القوقازيين الشماليين بمنحهم حقوق كثيرة. وكان ستالين قد تحدث باسم الحكومة السوفييتية فى المؤتمر غير العادى لممثلى القوقاز الشمالية الذى عقد فى فلاديكافكاز بتاريخ ١٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢٠ وقال فيه:

. . . انما يتحقق معنى الاستقلال القومى بتكفل القوقازيين الشماليين بالشؤون الادارية فى بلادهم . . . وهناك ضرورة لجلب رجالكم الى جميع الساحات

---

(٢١) ا. تودورسكى: "كراسنايا ارميا ف غوارح – ديستفيا ف داغستانيه"، موسكوعام ١٩٢٥.

الادارية. فلفظ الاستقلال الذى نحن فى صدد البحث فيه، يجب ان يفهم بمعنى توظيف رجالكم، الذين يعرفون لغتكم وأساليب حياتكم، فى جميع مكاتب الجهاز الادارى، والاستقلال المحلى يجب ان يعلمكم كيف يكون العمل الحر... وهذا هو المقصود من الحكم الذاتى.

ثم تحدث ستالين بعد ذلك موضحاً بعض النقاط الهامة بشأن الحكم الذاتى فقال :

. . . لن يمكن ان يحصل الناس على ثمار الحكم الذاتى تو اعلانه. كما أنه ليس من الممكن خلق عناصر إدارية ذات خبرة من المحليين فى يوم وليلة. وانما يمكن ذلك بعد سنتين أو ثلاثة من جهودكم المركزة فى ادارة شؤون البلاد. وعندئذ سيصبح منكم معلمون واقتصاديون وزراعيون وقانونيون وعسكريون ورجال الحزب وعمال سوفييت. وبعد ذلك سترون أنكم قادرون على حكم بلادكم(٢٢).

ولكن هل تحققت هذه الوعود بعد سنتين أو ثلاثة كما قال ستالين؟ بل هل تحققت حتى يومنا هذا ؟ .

لقد كان ما حدث بعد سنتين أو ثلاثة شيئاً يختلف تماماً عما وعد به ستالين ومن قبله لينين للشعوب الروسية. فى عام ١٩٢٤ ألغيت جمهورية القوقاز الشمالية وانشئت بدلا منها جمهورية الداغستان، وجمهورية التشيتشين انغوش، وجمورية الاوسيتيين، وجمهورية القابارطاى بلقار ذات الحكم الذاتى. كما فصلت منطقة القاراتشاى وألحقت بمقاطعة ستاوروبول. وكذلك منطقة الشركس الاديغة فصلت وألحقت بمقاطعة كراسنودار. واتبعت جمهوريات القوقاز الشمالية كلها بما فيها جمهورية الداغستان إدارياً لموسكو.

ويمكننا هنا ان نقول ان جمهوريات القوقاز الشمالية وأقاليمها صارت " حقل تجارب " للسياسة السوفييتية القومية. فكل سياسة سوفييتية جديدة تتعلق بالقوميات ينبغى ان يجرى تجربتها أولاً فى القوقاز الشمالية. وبعد ذلك يجرى تطبيقها فى الجمهوريات الاسلامية الأخرى.

والى جوار سياسة " فرق تسد " التى طبقها السوفييت فى القوقاز الشمالية، سارت سياسة " الترويس " الثقافى. وبدأ الروس جهودهم الدائبة لفرض الطابع الروسى على التعليم وعلى اللغة وكل نواحى الحياة الثقافية والاجتماعية. وكان مما فعلوه تغيير حروف الكتابة اللاتينية التى كانت تستخدم فى لغة القوقازيين الشماليين الى الحروف الكيريلية المستخدمة فى اللغة الروسية. وبرغم وعود الروس بان تكون هناك مساواة بين اللغة القومية

---

(٢٢) "بوربا زا اوستانوفينيه ى او بروتشنينيه سوفتسكوى فلاستى ف داغستانيه ١٩١٧–١٩٢١"، ص ٤٨٥.

للقوقازيين الشماليين واللغة الروسية ــ فان ذلك لم يحدث فى يوم من الأيام. وكانت اللغة الروسية هى اللغة الأولى فى المدارس وفى جميع المكاتب الادارية وأجهزة الحكم. وتحولت اللغة القوقازية القومية الى لغة ثانوية وزيادة على ذلك فان أغلب الموظفين فى الجهاز الحكومى وكذلك فى المناصب القيادية فى الحزب من أصل روسى. ويكفى ان نعرف ان مناصب السكرتير الأول والسكرتير الثانى للأحزاب الشيوعية فى جمهوريات القوقاز الشمالية حتى بداية الأربعينات من هذا القرن لم يشغلها واحد من أهل البلاد الأصليين، فيما عدا بطل كالميكوف الذى شغل منصب السكرتير الأول لاحدى اللجان المحلية للحزب الشيوعى فى مقاطعة القابارطاى ــ البلقار فى غضون العشرينات من هذا القرن. ولكن ذلك استثناء لا يعول عليه. وان كان قد حدث فى الواقع بعض ترشيحات لشخصيات حزبية من الأهالى المحليين لمناصب السكرتارية للجان الحزب الاقليمية مثل ما حدث مع نجم الدين سامورسكى فى الداغستان، وكازبك بوتايف فى اوسيتينيا الشمالية أثناء حركة الارهاب الدموية التى حثت عام ١٩٣٧، الا ان هذا الترشيح ما كان فى الأصل الا فخاً لايجاد مبررات لاتهام هذه الشخصيات " بالبورجوازية القومية " ومن ثم أعدموا رمياً بالرصاص. وكان ذلك هو نفس المصير الذى لاقاه بتال كلميكوف فى مقاطعة القابارطاى.

ولقد استمرت سياسة " الترويس " التى مارستها السلطات السوفييتية فى طريقها نحو تحقيق هدفها وهو القضاء على قوقازية القوقازيين وتحويلهم بالتدريج الى شعب شبه روسى، يتحدث بالروسية ويعيش بأساليب الروس. وبذلك يضمنون بقاء هذه البلاد التى كانت مستقلة تحت سيطرة الامبراطورية السوفييتية الى أبد الآبدين. ونتج من هذه السياسات ان أخذ تعداد السكان المحليين فى جمهوريات القوقاز الشمالية فى الانخفاض. واستناداً الى الأرقام التى توردها الاحصاءات السوفييتية نفسها كانت الأغلبية الساحقة من السكان هناك من القوقازيين الأصليين. ففى تعداد السكان الذى أجرى عام ١٩٣٩ كانت نسبة السكان المحليين بالنسبة لاجمالى تعداد السكان فى بلاد التشيتشين الانغوش ٨٠٪، وفى الداغستان ٩٠٪، ولم تنخفض فى أى مكان فى القوقاز الشمالية عن ٦٧٪ إطلاقاً. ولكن تعداد السكان لعام ١٩٥٩ يبين فارقاً كبيراً فى تلك النسب. فقد انخفضت نسبة السكان المحليين فى الداغستان الى ٦٩,٣٪، وفى القاراتشاى البلقار الى ٥٣,٤٪، واوسيتينيا الشمالية الى ٤٧,٨٪، وفى التشيتشين الانغوش الى ٤١,١٪، وفى القاراتشاى الشركس الى ٣٩٪، وفى مقاطعة الاديغة الى ٢٠,٣٪[٢٣].

---

(٢٣) "سيفرنى كافكاز ان س.س.س.ر."، اصدار المعهد الجغرافى بموسكو عام ١٩٥٧، ص ٤٤٣.

ولم تدخل السلطات السوفييتية فى إحصاءات ١٩٥٩ القوقازيين الشماليين الآخرين فى عداد السكان المحلين، فاعتبرت مثلا الداغستانيين المقيمين فى القاراتشاى من غير السكان المحليين. والدراسة الدقيقة لتلك الاحصاءات تقدم أدلة على ان هناك انقراض مستمر للعناصر المحلية واختفاء تدريجى للطابع المحلى فى كل منطقة من مناطق القوقاز الشمالية. ولا يخفى أن أسباب هذا الهبوط ترجع الى سياسة " الترويس " الى جوار عملية نفى شعوب التشيتشين الانغوش والقاراتشاى البلقار عام ١٩٤٤ نفياً جماعياً. وحين أجرى تعداد السكان لعام ١٩٥٩، كان ما يقرب من ٣٠٠ الف من هذه الشعوب لا زالوا فى منفاهم. ولكن العامل الرئيسى لهذه الظاهرة هو استمرار عمليات توطين مهاجرين روس فى هذه البلاد. وهى العملية التى كانت قد بدأت فى العهد القيصرى واشتدت فى العهد السوفييتى.

ولقد أصبح المستوطنون الروس هم الذين يلعبون الدور الرئيسى فى جمهوريات القوقاز الشمالية بدون استثناء. وصارت فى أيديهم جميع أجهزة الحكم فى البلاد. وهم الذين يشغلون أهم المناصب القيادية والحساسة فى الجهاز الحكومى وفى الحزب. ويلعبون الدور الرئيسى فى الحياة الاقتصادية للبلاد. وسنأخذ جمهورية القاباردى البلقار كمثل لما يجرى فى القوقاز الشمالية. فقد كان عدد المتخصصين الذين عملوا فى جهازها الاقتصادى فى عام ١٩٥٧ هو ١٢ ١٥٨ كان منهم ٣٠١٢ فقط من السكان المحليين، والباقون جميعاً من الروس. وفى عام ١٩٦٦ كان عدد المحليين فى هذا المجال ٨٥٠٥ فى مقابل ١٥ ٩٠٢ من الروس(٢٤). وتنطبق نفس النسب تقريباً على باقى المناطق " ذات الحكم الذاتى" فى القوقاز الشمالية.

ان عدم اشتراك القوقازيين الشماليين فى إدارة شئون بلادهم يعيد الى الأذهان السياسة الاستعمارية الغاشمة المتبعة فى أفريقيا الجنوبية. ونسبة العمال من السكان الأصليين فى المصانع الحديثة — حيث الجهد البدنى ضئيل والأجر مرتفع — قليلة للغاية. كانت نسبة هؤلاء العاملين فى عام ١٩٦٥ فى مصانع الماكينات فى القاباردى بلقار كما يلى: القاباردى ١١,٥٪ والبلقار ٣,٥٪ والروس ٧٧٪ وعمال من جنسيات اخرى ٨٪. اما فى مصانع الطوب، فان نسبة القاباردى ٨٨,٢٪ والبلقار ٠,٨٪ والروس ٦,٨٪ وعمال من جنسيات اخرى ٤,٢٪(٢٥). ومما يجدر ذكره ان العمال القوقازيين الشماليين قد اشتهروا

---

(٢٤) "رازفيتيه ناسيونااليخ اوتنوشينى نا صوفريمينون ايتابيه كومونستتشيسكوغو استرويتلستفا"، بياتيغورسك عام ١٩٦٨، ص ٨٩.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٨٢.

دائماً على مر العصور بمهارتهم فى الصناعات المعدنية اليدوية، مما كان يؤهلهم لتكوين نواة سليمة للصناعات المعدنية المتطورة فى القوقاز الشمالية، الا انه من الواضح ان سياسة الكرملين تفضل عدم خلق جيل من الفنيين بين شباب القوقاز الشمالية.

وتتبع سياسة التصنيع السوفييتية هدف تجنب إنشاء وحدات صناعية متكاملة على مستوى الجمهوريات. فبالرغم من ان الاتحاد السوفييتى قد أنشأ فى الفترة بين عام ١٩٥٩ و ١٩٦٥ — ١٥ مصنعاً فى الداغستان و ٢٢ مصنعاً فى التشيتشين انغوش و ١٨ مصنعاً فى القابارطاى و ١٣ مصنعاً فى الاوسيتينيا الشمالية، إلا أنه لا يمكننا الحديث هنا عن تكامل صناعى. والهدف البعيد هو ربط تلك الجمهوريات بالمخطط الصناعى الكامل للاتحاد السوفييتى. وتتحكم موسكو بطبيعة الحال فى توريد مختلف المصانع بالمواد الخام وفى كمية ونوعية الانتاج وفى تعيين مديريها عن طريق الرقابة والتوجيه المركزيين. وحكومات "المناطق ذات الحكم الذاتى" لا حول ولا قوة لها فى تحديد الاعتمادات المخصصة لمختلف أبواب ميزانيات بلادهم. ولقد صرح باسييف، رئيس الوفد الاوسيتينى الشمالى، الذى تحدث فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٣ فى جلسة السوفييت الأعلى، ان كلا من مجلس وزراء جمهورية روسيا الفيدرالية وجهاز التخطيط المركزى للاتحاد السوفييتى، قد رفضا تحديد اعتمادات لتوفير مياه صالحة للشرب بحجة نقص فى الأجهزة، هذا مع العلم بأن ثروات القوقاز الشمالية الطبيعية الهائلة من البترول والغاز الطبيعى والمعادن المختلفة تسخر لمصلحة الاتحاد السوفييتى.

ومن الطريف ان الشيوعيين قد حاولوا بكل الطرق اضعاف العادات والتقاليد الاسلامية بين شعوب القوقاز الشمالية. وكان مما لجأوا إليه، التوسع فى تربية الخنازير ورفع سعر لحم الضأن، بالرغم من ان مراعى القوقاز الشمالية الطبيعية تعد من أحسن المراعى. ولما لم تأت هذه السياسة بثمارها على مر عشرات السنين، أصدر خروشتشوف قراراً برفع سعر لحم الخنزير وخفض سعر لحم الضأن.

والقوقازيون الشماليون، مثلهم كمثل بقية الشعوب الاسلامية فى الاتحاد السوفييتى، شعب ذو حضارة تمتد جذورها الى قرون بعيدة مضت. وأثبت التاريخ ان هذه الشعوب كانت دائماً تتضامن وتنصهر على الفور فى كل المحنات التى مرت بها.

التركستان

بقلم: نور الدين محمد اولوغ بك

تقع التركستان فى مقدمة القارة الآسيوية. وتشير نتائج الحفريات الأثرية التى قام بها علماء آثار من بلاد مختلفة الى ان التركستان كانت دائماً مهداً لحضارات عريقة(١).

فى القرون العشرة الأولى قبل ميلاد المسيح، قامت فى شمالى وشمال شرقى التركستان دولتان قام بتأسيسهما شعب السقا وشعب اوسون، وكانا من الشعوب البدوية التى تمت بصلة الى شعوب القرم التركية القديمة. اما فى جنوبى وجنوب غربى التركستان، فقد قامت ثلاث دول أخرى أسستها شعوب بكتريا وسوغديانا وخوارزم، وهى من شعوب الجنس الهندى الأوروبى.

أما العصر التركى فقد بدأ فى القرن الرابع الميلادى بتأسيس دولة الافتاليتيين، ثم دولة الخاقانية التركية الكبرى التى قسمت فيما بعد الى دولتى الخاقانية الشرقية والغربية. واستمرت سلسلة الانقسامات، فظهرت بعد ذلك دولة الايغور التركية والدولة القاراخانية والدولة الاوغورية والدولة الطاهرية والدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة القبجاقية والدولة الجنكيزية والدولة الجغتائية والدولة التيمورية، التى كانت تمثل جميعها السيطرة التركية على التركستان باستثناء الدولة الجنكيزية.

وفى القرن الثامن الميلادى انتشر الاسلام فى التركستان بدخول العرب إليها. وكان انتشار الدين الاسلامى واللغة العربية سريعاً. وأدى ذلك الى أحداث تغيرات جذرية فى المجتمع التركستانى والى أحداث تطور اجتماعى وثقافى مدهش. ولقد عاش وانتج فى التركستان عدد ليس بالقليل من قادة الفكر والعلم العربى، نذكر منهم على سبيل المثال: أبو النصر الفارابى، الملقب "بارسطو الشرق"، والمؤرخ الفلكى الجغرافى محمد بن موسى

---

(١) "شعوب آسيا الوسطى وبلاد القازاق"، من مطبوعات أكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو عام ١٩٦٢، المجلد الأول، ص ٩ ومؤلف "التركستان فى القرن العشرين"، لبايميرزا حاييت، دارمشتاد عام ١٩٥٦، ص ١٣.

الخوارزمى والعالم الشهير فى مجال الطب والفلسفة ابو على بن سيناء وابو ريحان بن أحمد البيرونى والشاعر الفارسى الكبير عبد القاسم الفردوسى، صاحب ديوان الشاهنامه وغيرهم من كبار العلماء.

ولقد لعبت التركستان دوراً كبيراً فى انتقال العلوم والحضارات من الشرق الى الغرب بموقعها الجغرافى. إذ ان التركستانيين كانوا قد تعلموا تربية الخيول وصناعة الزجاج والورق والحرير من الصين، التى انتقلت منهم بعد ذلك الى الأوروبيين. ونفس الأمر ينطبق على أسس العلوم الرياضية والفلكية والطبية. كما ان فنون البناء التركستانية كان لها أثر واضح على البلاد المجاورة(٢).

وبعد اكتشاف طريق الرجاء الصالح وانتقال الطريق التجارى الى البحر حول أفريقيا، ظهرت حالة كساد عامة فى الحياة التجارية التركستانية صحبتها حالة كساد اجتماعية وثقافية. وبانهيار الدولة التيمورية فى عام ١٥٠٧، انتهت فترة الدول القوية فى التركستان، وخلفتها فترة ظهرت فيها دويلات إقطاعية. واستمر هذا الحال الى سقطت التركستان فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فريسة للدب الروسى.

وكانت السياسة الروسية ترمى منذ القرن السابع عشر الى احتلال التركستان أملا منها فى تقوية قبضتها على القارة الآسيوية. وفى عام ١٧٣١ ثم فى عام ١٧٤٠، تمكنت روسيا من احتلال خانيات القازاق المستقلة التى كانت تقع فى شمال شرق التركستان. وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر بدأ الروس فى التوسع فى التركستان صوب الجنوب. وفى ١١ يوليو (تموز) ١٨٦٧، عين الروس حاكماً عاماً للتركستان وكان مقره فى طشقند وامتد سلطانه على مقاطعات يدى صو وسردريا. وفى عام ١٨٦٨ استولى الروس على خانية بخارى ثم فى عام ١٨٧٣ على خانية خوقند وفى نهاية الأمر على خانية خيوه فى عام ١٨٧٦، وبذلك تم لهم اخضاع التركستان(٣).

وبعد اندلاع ثورة فبراير (شباط) فى روسيا عام ١٩١٧، ظهرت ثلاث تيارات سياسية رئيسية فى التركستان هى:

١ــ الجبهة الروسية الديموقراطية. ولم يكن لهذه أثر يذكر على تقرير مصير التركستان.

٢ــ حركة التحرير القومية التركستانية التى ترأسها المثقفون التركستانيون. وكانت تهدف الى تحقيق استقلال التركستان.

---

(٢) "شعوب . . ."، السابق ذكره، ص ٩١/٩٢.

(٣) دائرة المعارف السوفييتية الكبرى، ١٩٥٣، المجلد ١٩، ص ٣٣١، ومعجم "انسيكلوبيديك سولفار"، ١٨٩١، المجلد الخامس، ص ١٠٠.

٣ــ الحركة البلشفية، وكانت تهدف الى الاحتفاظ بالتركستان داخل التركيب السوفييتى الجديد بعد اندلاع ثورة أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٧.

وبينما كان البلاشفة ينالون تأييد البروليتاريا الروسية فى المدن التركستانية الكبيرة، كانت أغلبية سكان التركستان والمقيمين فى الريف تقف وراء حركة التحرير القومية. ولم يتمكن الروس من اعلان تأسيس الحكومة البلشفية السوفييتية فى التركستان الا بمساعدة قوات الجيش الأحمر. كان ذلك فى ١٥ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٧، وهو نفس التاريخ الذى وقع فيه ستالين ولينين على بيانهما الشهير الذى تعهداً فيه باعطاء المسلمين من شعوب الامبراطورية القيصرية "حق تقرير المصير" و"حق الانفصال التام عن الاتحاد السوفييتى"(٤).

لم تتوقف محاولات التركستانيين للحصول على استقلال داخلى لبلادهم. وقدم الزعماء الشيوعيين التركستانيين اقتراحاً الى لينين بانشاء جمهورية التركستان التركية السوفييتية وجعل طشقند عاصمة لها. الا ان لينين — بعد ان كان متردداً فى بادىء الأمر، وعد بتقديم هذا الاقتراح الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى لاتخاذ قرار بشأن "توحيد التركستان أو تقسيمها الى بلاد الاوزبم والقيرغيز والتركمان"(٥). وبطبيعة الحال رفضت اللجنة المركزية الاقتراح بالتقسيم، ووافق الاعضاء بدلا عن ذلك — فى ١٩٢٤/١٠/١٤ — بوضع حدود جغرافية ثابتة "لجمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية"(٦). وفى ١٩٢٤/١٠/١٨، صدر قرار اللجنة المركزية بالغاء "جمهورية التركستان السوفييتية المحلية"، وانشاء الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية لبلاد القازاق والقرغيز والاوزبك التادجيك والتركمان داخل نطاق "جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية".

تؤلف أرض التركستان ٣ ٩٩٤ ٤٠٠ كيلومتراً مربعاً من إجمالى مساحة الاتحاد السوفييتى التى تبلغ ٢٢ ٤٠٢ ٢٠٠ كيلومتر مربع(٧). واستناداً الى احصائية يناير (كانون الثانى) ١٩٦٨، بلغ تعداد سكان التركستان ٣١ ٥٨٨ ٠٠٠ نسمة(٨). ولقد تدفق سيل المهاجرين الروس الى التركستان منذ أيام احتلال الجيوش القيصرية لها، ولم يتوقف الى اليوم. وسكان التركستان، باستثناء التادجيك، مسلمون. ويشير الجدول الآتى الى زيادة تعداد السكان (بالالف):

---

(٤) "تكوين الاتحاد السوفييتى"، مجموعة الوثائق ١٩١٧–١٩٢٤، موسكو–لينينجراد عام ١٩٤٩، ص ٢٢/٢١.
(٥) "شعوب . . ." السابق ذكره، ص ١٠٤–١٠٦.
(٦) ب.س.ا. لعام ١٩٥٦، المجلد ٤٣، ص ٤٤٠–٤٤١.
(٧) "الاتحاد السوفييتى بالأرقام"، موسكو عام ١٩٦٨، ص ٧.
(٨) نفس المرجع السابق.

اسم الجمهورية	١٩١٣	١٩٢٦	١٩٣٩	١٩٥٩	١٩٦٨
جمهورية الاوزبك	٤ ٣٦١	٤ ٦٦٠	٦ ٤٤٠	٨ ٢٦١	١١ ٢٤٦
جمهورية القيرغيز	٨٦٤	١ ٠٠٢	١ ٤٥٨	٢ ٠٦٦	٢ ٨٣٢
جمهورية التادجيك	١ ٠٣٤	١ ٠٣٢	١ ٤٨٤	١ ٩٨٠	٢ ٧٣٠
جمهورية التركمان	١ ٠٤٢	٩٩٨	١ ٢٥٢	١ ٥١٦	٢ ٠٣٠
جمهورية القازاق	٥ ٥٦٥	٦ ٠٣٧	٥ ٩٩٠	٩ ١٥٤	١٢ ٧٠٠
إجمالى التعداد بالتركستان	١٢ ٨٦٦	١٣ ٧٢٩	١٦ ٦٢٤	٢٢ ٩٧٧	٣١ ٥٣٨

ويستفاد من الجدول السابق ان سكان التركستان قد تزايدوا فى الفترة بين احصاء عام ١٩٥٩ واحصاء عام ١٩٦٨، بنسبة قدرها ٣٧,٢٪ أو بما يعادل حوالى ثمانية ملايين ونصف مليون نسمة. وتعادل هذه الزيادة نسبة تزايد قدرها ٤,٢٪ سنوياً فى تعداد سكان التركستان، بينما كانت نسبة زيادة سكان الاتحاد السوفييتى لنفس الفترة تعادل ١,٤٪. ومن ثم فان ثلثى هذا التزايد يعود الى المهاجرين الروس. والجدول التالى يبين تطور نسبة السكان المحليين الى الأجانب (بالالف):(٩)

تاريخ الإحصائية ١٩٢٦/١/١٧	النسبة	١٩٣٩/١/١٥	النسبة	١٩٥٩/١/١٥	النسبة	١٩٦٨/١/١	النسبة
التعداد العام	١٣ ٧٢٩	١٠٠٪	١٦ ٦٢٤	١٠٠٪	٢٢ ٩٧٧	١٠٠٪	٣١ ٥٣٨	١٠٠٪
السكان المحليون	١٠ ٦٧٠	٧٨٪	١١ ٢٠٠	٦٨٪	١٣ ٦٥٠	٥٩٪	١٧ ٠٠٠	٥٣٪
المهاجرون الروس	٣ ٠٥٩	٢٢٪	٥ ٤٢٤	٣٢٪	٩ ٣٢٧	٤١٪	١٤ ٥٣٨	٤٧٪

وأما النمو السكانى فى الجمهوريات السوفييتية الخمس على الأراضى التركستانية فهو كالآتى:

أولاً: فى جمهورية قازاقستان

تعتبر الجالية الروسية فى قازاقستان أكبر الجاليات الأجنبية. فقد بلغ تعدادها فى عام ١٩٥٩، ٤ ملايين يشكلون ما نسبته ٤٧,٧٪ من مجموع سكان البلاد العام. ثم تأتى الجالية الأوكرانية التى يبلغ عددها ٧٥٠ ألفاً يشكلون ٨,٤٪ من مجموع السكان. ثم بعد ذلك جاليات صغيرة متنوعة مثل البيلوروسيين والكوريين والبولنديين واليهود والمورافيين، وهؤلاء يشكلون فى مجموعهم ما نسبته ١٦٪ من مجموع السكان. وأما سكان البلاد الأصليين من القازاق فقد بلغت نسبتهم ٢٩,٦٪.

(٩) "الاقتصاد الشعبى لآسيا الوسطى عام ١٩٦٣"، طشقند عام ١٩٦٤، ص ٩ واحصائية سكان الاتحاد السوفييتى لعام ١٩٥٩، مجلد س.س.س.ر.، موسكو عام ١٩٦٢، ص ٢٠٦/٢٠٨.

وزاد عدد السكـان من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦٧ زيادة بلغت ٣,٥ مليون نسمة، أى بنسبة ٤٠٪. وكـان ما قدره ١ ٧٠٠ ٠٠٠ من هذه الزيادة عن طريق النمو الطبيعى للسكـان نتيجة لزيادة المواليد. وأما الباقى وقدره ١ ٨٠٠ ٠٠٠ من هذه الزيادة فقد جاء عن طريق هجرة السلاف، وبالأخص الروس، الى البلاد واستطيانهم بها. وارتفعت نسبة السلاف من ٥٢٪ فى عام ١٩٥٩ الى ٦٧٪ فى عام ١٩٦٨ .

ثانياً: فى جمهوريـة اوزبيكستان

كان الأوزبك حتى سنة ١٩٥٩ يؤلفون وحدهم ٦٢,٢٪ من المجموع العام لسكـان الجمهوريـة. وكـانت نسبة التركستانيين المسلمين عموماً ٨٠٪ من مجموع السكـان. أما الجاليات الروسية والاوكرانية والبيلوروسية واليهودية والموردافية والأرمنية فقد كـانت تؤلف فى مجموعها ما نسبته ١٦,٤٪ فقط من سكـان البلاد. وفى تلك السنة كـان عدد سكـان المدن الأزبكيين يبلغ ٢ ٧٥٠ ٠٠٠ نسمة منهم ١ ٦٠٠ ٠٠٠ من التركستانيين المسلمين أى بنسبة ٥٥٪. وكـان عدد سكـان الريف يبلغ ٥ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة منهم ٩٥٪ من التركستانيين المسلمين، ولم يكن عدد الروس المقيمين فى الريف يزيد على ١٧٨ ألف نسمة فقط. وفى خلال تسع سنوات، أى فى عام ١٩٦٨، قفز عدد سكـان المدن الى ٤ ملايين، وعدد سكـان الريف الى ٧ ٢٥٠ ٠٠٠ . وكـانت نسبة النمو السكـانى الطبيعى عن طريق المواليد ٣٪ فى المتوسط، أى ما يساوى ٢ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة، فى حين ان الزيادة العامة فى عدد السكـان بلغت ٣ ١٠٠ ٠٠٠ نسمة، ومعنى هذا ان عدد المهاجرين السلاف الى جمهورية اوزبيكستان فى تلك الفترة بلغ حوالى ٩٠٠ ٠٠٠ مهاجر معظمهم من الروس .

ثالثاً: فى جمهوريـة قيرغيزستان

زاد عـدد سكـان هـذه الجمهوريـة من ٢ ٠٦٦ ٠٠٠ نسمـة فى عام ١٩٥٩ الى ٢ ٨٣٢ ٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٦٨. ومعنى هذا ان الزيادة بلغت فى السنوات التسع المذكورة ٧٦٦ ٠٠٠ نسمة منهم ٣٠٠ ٠٠٠ من المهاجرين السلاف وخصوصاً الروس. وفى أعقاب هذه الهجرات هبطت نسبة القيرغيز من سكـان البلاد الى ٤٠,٥٪ وهبطت نسبة التركستانيين المسلمين عموماً الى ٥٠٪ بعد ان كـانت ٥٧٪ فى عام ١٩٥٩.

رابعاً: فى جمهورية تادجيكستان

زاد عدد سكان هذه الجمهورية من ١ ٩٨٠ ٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٥٩ الى ٢ ٧٣٠ ٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٦٨. أى ان نسبة الزيادة كانت ٣٧,٤٪ . وكان توزيع السكان فى عام ١٩٥٩ كالآتى:

الجنس	العدد	النسبة المئوية من مجموع السكان
التادجيك	١ ٠٥٠ ٠٠٠	٥٣
الأزبك	٤٥٤ ٠٠٠	٢٣
الروس	٢٧٦ ٠٠٠	١٣
الأوكرانيون	٢٧ ٠٠٠	١,٤
أقليات أخرى	١٧٣ ٠٠٠	٩,٦

وكان عدد سكان المدن من التادجيك يبلغ ٢٠٥ ٠٠٠ نسمة أى ما نسبته ٣١٪، وعدد الأوزبك والتركستانيين الآخرين ٣٤٠ ٠٠٠ نسمة، بزيادة قدرها ٢٧٨ ألف شخص عن عدد الروس فيها. وفى عام ١٩٦٨ زاد عدد سكان المدن بمقدار ٣٧٥ ٠٠٠ شخص كان ١٢٥ ٠٠٠ منهم نتيجة النمو الطبيعى والباقى نتيجة هجرة السلاف. وارتفع عدد السلاف فى المدن التادجيكية الى ٥٠٠ ٠٠٠ شخص.

خامساً: فى جمهورية تركمانيستان

زاد عدد السكان التركمان فى تلك السنوات التسع الى ٢ ٠٣٠ ٠٠٠ نسمة بفرق قدره ٥٠٠ ٠٠٠ عن تعداد ١٩٥٩. وكان النمو فى عدد سكان المدن من ٧٠٠ ٠٠٠ شخص فى عام ١٩٥٩ الى مليون واحد فى عام ١٩٦٨. والنمو فى عدد سكان الريف فى نفس الفترة من ٨١٦ ٠٠٠ الى ١ ٠٣٠ ٠٠٠. وكان هذا النمو طبيعياً نتيجة لزيادة المواليد. وفى نفس الفترة وصل الى البلاد أكثر من ١٠٠ ٠٠٠ مهاجر سلافى، إذ زاد عددهم من ٢٦٧ ٠٠٠ الى حوالى ٤٠٠ ٠٠٠ من المستوطنين السلاف معظمهم من الروس.

وطبقاً للمعلومات التى نشرت عام ١٩٦٤ كان هناك فى الاتحاد السوفييتى أسر مختلطة فى عام ١٩٥٩ بلغ عددها ٥ ملايين أسرة، خص التركستان منها ٥٥٩ ألف أسرة، منها ١٣٨ ألف أسرة فى اوزبيكستان و٣٨ ألفاً فى تادجيكستان و٥٨ ألفا فى قيرغيزستان

و ٢٧ ألفاً فى تركمانيستان و ٢٩٨ ألفاً فى قازاقستان. ويبدى الاتحاد السوفييتى إهتماماً بالغاً بتلك الأسرة المختلطة. إذ يعتبر ذلك من أنجح الوسائل فى تطبيق سياسة ترويس التركستان.

أسس تنظيم الدولة

مرت أسس تنظيم الدولة فى جمهوريات التركستان السوفييتية بأطوار متعددة خضعت فيها لتطورات السياسة السوفييتية العامة. فالفترة من ١٩١٨–١٩٢٤ هى الفترة التى إنتظمت فيها جمهوريات التركستان السوفييتية إنتظاماً فعلياً ورسمياً تحت حكم روسيا الفيدرالية، وان كانت قد تميزت بخصائص الدول ذات الكيان الذاتى والحقوق الدولية. ثم الفترة من عام ١٩٢٥–١٩٥٤، وهى الفترة التى مرت خلالها البلاد التى قسمت الى جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتى شكلياً، فى مرحلة توجيه أمورها توجيهاً ضمنت به موسكو إبقاء صلتها بها مع وضعها تحت رقابتها. ثم الفترة الثالثة من ١٩٥٤–١٩٦٢ التى نلمس فيها آثار بعض التوسع من السلطات المحلية بالجمهوريات نتيجة لتناقص السيطرة المركزية. وفى عام ١٩٦٣ بدأت مرحلة جديدة عادت فيها البلاد الى حظيرة السيطرة المركزية المتشددة مرة أخرى.

تستمد جمهوريات التركستان السوفييتية أنظمتها الدستورية من مواد دستور الاتحاد السوفييتى المصدق عليه فى عام ١٩٣٧ وهو الدستور المعمول به للآن. وكل من هذه الجمهوريات تتمتع بدستورها الخاص وان كانت جميعها قد أتت فى نفس الصياغة وفى نفس الإطار الذى رسمه الدستور السوفييتى لعام ١٩٣٧.

والدستور السوفييتى كدستور عام يتمتع بقوة الشمول التى تحتوى الدساتير المحلية فى ظلها، ويمكنه تعطيل تلك الدساتير تعطيلا كاملا فى كثير من الأحيان. فمثلا المادة ١٥ من دستور اوزبيكستان (وهناك شبيهات لها فى دساتير الجمهوريات الأخرى) تنص على ان "لهذه الجمهوريات" الحق المطلق فى الانفصال عن الاتحاد السوفييتى، فى حين ان المادة ١٤٦ من دستور الاتحاد السوفييتى تتعارض مع أهداف هذه المادة، وتعطل ذلك الحق فى الانفصال تعطيلا تاماً. إذ تنص على أنه يجب موافقة ثلثى أعضاء المجلس السوفييتى الأعلى للاتحاد السوفييتى على إجراء أى تعديل فى أى مادة من مواد الدستور. فإذا كان هذا فيما يختص بتعديل مطلوب من مادة من مواد الدستور، فما بالك بالرغبة فى الانفصال عن الاتحاد السوفييتى. ان مجرد التلميح بمثل هذه الرغبة يُعد فى شرع القانون السوفييتى "جريمة وخيانة" عظمى لا تغتفر[١٨٢]

تنص المادة ١٦ فى دساتير الجمهوريات السوفييتية التركستانية على ان الأرض بما فيها وما عليها ملك للدولة. ولكنه لم يوضح من هى الدولة صاحبة هذه الملكية. ولكن التفسيرات السوفييتية توضح بما لا يجعل مجالا للتأويل ان الدولة المعنية هى دولة الاتحاد السوفييتى.

وأما المجالس السوفييتية العليا بالجمهوريات، وهى أعلى أجهزة الحكم فليس لها من وظيفة إلا محاكاة القوانين التى يصدق عليها المجلس السوفييتى الأعلى للاتحاد السوفييتى أو نقلها بحذافيرها. وكذلك الحال مع الوزارات المختلفة فى الحكومات المحلية[١].

وهناك نظام قضاء واحد مطبق فى جميع أرجاء الاتحاد السوفييتى ومنها الجمهوريات التركستانية أيضاً. والمحكمة العليا للاتحاد السوفييتى هى صاحبة السلطة فى إعادة النظر فى أى أحكام تصدر عن المحاكم فى الجمهوريات القومية، وأما سلطة تطبيق القانون وتنفيذ أحكامه فمسندة الى النيابة العامة بصفتها جهازاً مركزياً للاتحاد السوفييتى. وجاء فى المادة ١١٦ من دستور جمهورية اوزبيكستان السوفييتية ومثلها فى ذلك مثل باقى الجمهوريات التركستانية، ان: "تؤدى فروع النيابة العامة فى الاتحاد السوفييتى وظائفها مستقلة عن سائر أجهزة الحكومات المحلية". وبذلك تخضع فروع النيابة العامة لسيطرة السلطة المركزية فى موسكو مباشرة، حتى ان وكلاء النيابة المحليين يتم تعيينهم عن طريق النائب العام للاتحاد السوفييتى فى موسكو، ويسألون أمامه مباشرة. ويترتب على هذا الوضع ان السلطات التشريعية فى الجمهوريات القومية "المستقلة" لا سلطان لها على أجهزة النيابة العامة فى بلادها على الاطلاق ولا حتى من الناحية الادارية[١٠].

أما الاتجاه نحو منح أجهزة الحكم المحلية فى الجمهوريات القومية سلطات أوسع، وهو الاتجاه الذى نشأ عقب وفاة ستالين ولفترة محددة، فلم يكن الدافع إليه عشق الحرية أو الايمان بحقوق الانسان. ولكن الدافع الحقيقى هو ان النظام الستالينى الذى طال تطبيقه فى الاتحاد السوفييتى كان نظاماً بالياً لا يتفق مع التطور الذى حدث فى الاتحاد السوفييتى ولا يتلائم مع المصالح السياسية للقادة الجدد فى الاتحاد السوفييتى. فقد اعترف خروشتشوف نفسه، وهو صاحب هذا الاتجاه والدافع له، فقال فى إحدى المناسبات:

"... لقد وصلنا الى مرحلة لا يمكن معها ان نتحمل ما يظهر من نتائج لتطبيق تلك النظم والقواعد العتيقة التى وضعت أصولها فى عهد عبادة شخص ستالين، حيث قد أخذت تلك النظم والقواعد تعرقل حركة الشيوعية وتقف عائقاً فى سبيل تقدمنا.

ومن المعروف ان توصيات الحزب وأجهزته المختلفة لها تأثير فعال فى ضمان وحدة الحركة والرأى فى إدارة دفة الأمور فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى. وقد أكد هذه الحقيقة

مرة أخرى قصر عمر التشريعات الجديدة التى كانت قد وسعت من حدود السلطات المحلية نسبياً فى الجمهوريات القومية.

النظام السياسى وإدارة الدولة

ان بلاد التركستان المقسمة الى خمس جمهوريات سوفييتية يقال أنها تتمتع بإستقلال داخلى، تخضع فى الواقع لسيطرة موسكو المطلقة، وفرضت عليها البلشفية فرضاً تاماً، فتحولت بذلك الى مستعمرات ضمن الامبراطورية الشيوعية السوفييتية .

وعندما نناقش مسألة "حقوق السيادة" التى تتمتع بها جمهوريات التركستان السوفييتية ونبحث عن أوجهها الحقيقية مع طرح الديماجوجية البلشفية وشعاراتها الزائفة جانباً، فأن الأمر يتكشف أمامنا عن الموقف التالى: فالحقوق التى تتمتع بها السلطات التشريعية من الجمهوريات حقوق شكلية، وما تصدره من قوانين وتشريعات تكون دائماً قد صدر بها تكليف مسبق من موسكو وتكون قد تمت صياغتها بمعرفة الحزب الشيوعى السوفييتى. ثم هناك حقوق تكفلها نصوص الدساتير المحلية ولكن نصوصاً أخرى فى الدستور السوفييتى تعطل العمل بها، مثل حق الانفصال وحق تولى أمور السياسة الخارجية وحق قيادة وتوجيه القوات المسلحة. ثم هناك حقوق السلطات التنفيذية المحلية التى تقع مسؤوليتها على عاتق أجهزة الادارة المدنية المحلية. وهى لا تزيد عن تنفيذ ما يصدر إليها من أوامر من أجهزة الحزب التى يسيطر عليها الجهاز المركزى فى موسكو.

وأما حقوق اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية نفسها وكذلك أعمالها ووظائفها، فأنها تحدد بحسب التدرج الهرمى المعمول به فى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى. فلائحة الحزب حين تتعرض لأعمال اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات واختصاصاتها وسلطاتها، تنص على الآتى:

ان تنظيمات الحزب على مستوى الجمهوريات وعلى مستويات الأقاليم والمحافظات والمدن والأحياء يتحدد نشاطها فى إطار اتخاذها من برامج الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى مرشداً لها. ويكون نشاطها فى مجال الأعمال العامة بهدف تطبيق سياسة الحزب داخل الجمهوريات والأقاليم والمحافظات والمدن والأحياء، وتعمل على تنفيذ توجيهات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى.

والاختصاصات المنوطة بها اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات الاتحادية "المستقلة"، وهى اختصاصات صورية، تتلخص فى التالى:

١ــ تأكيد الرقابة السياسية الجماعية لجهاز الحزب على الأهالى المحليين.
٢ــ صبغ الأهالى المحليين "بالصبغة الشيوعية" عن طريق نشر ثقافة "قومية الشكل إشتراكية المحتوى".
٣ــ تربية موظفين محليين قوميين شكلاً موسكوفيين عقلاً.
٣ــ التأكيد على ابراز خصائص الدولة القومية الشكل مع تأكيد سيطرة الحزب والدولة السوفييتية ودعم سلطانها الحقيقى.

وفيما عدا ذلك فان أعمال اللجان المركزية للحزب فى الجمهوريات الاتحادية واختصاصاتها فى بقية المجالات هى نفس ما تقوم به اللجان المماثلة للحزب فى الأقاليم الروسية المختلفة المستويات. وتسرى عليها نفس اللوائح التنظيمية. كما ان تعيين المكلفين بمسئوليات وظائف السكرتيرين الأول والثانى وغيرها من مناصب الحزب القيادة يتم عن طريق الأجهزة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، وليس لتنظيمات الحزب المحلية حق سوى الانصياع التام لما تفرضه موسكو عليها[١]

وحتى تضمن موسكو بقاء سيطرتها التامة على الأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات الاتحادية، فهى لا تسمح بان يبقى أحداً فى مناصب الحزب القيادية فيها فترات طويلة قد تسمح لهم بتوطيد علاقاتهم وتثبيت سلطاتهم داخل الحزب. ولذلك فهى تلجأ دائماً الى تغيير الأشخاص الذين يشغلون هذه المناصب. وهذه السياسة ليست حديثة، ولكنها سياسة قديمة وضعت أصولها فى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى عام ١٩١٩ الذى جاء فى مقرارته فى هذا الشأن ما يلى:

تقتصر عملية تحديد جميع إختصاصات الحزب وتوزيعها على الأجهزة الحزبية المعنية إقتصاراً تاماً على اللجنة المركزية للحزب (الشيوعى للاتحاد السوفييتى). وقراراتها ملزمة لجميع البلاد. وهى التى تتحمل مسئولية إستعمال القوة المسلحة فى قمع الحركات الانفصالية الاقليمية من أى نوع كان. وهى التى يوكل إليها أيضاً أمر نقل الموظفين من إختصاص الى آخر ومن منطقة الى أخرى بصورة مستمرة وذلك للاستفادة من طاقات الحزب على أحسن وجه.

الوضع الجغرافى والسياسى والاستراتيجى

ان عملية استيلاء روسيا على التركستان الغربية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، قد فتح لروسيا القيصرية آفاقاً جديدة واسعة فى المجالات السياسية الخارجية. فقد

أصبحت حدود الامبراطورية تتاخم حدود ايران وافغانستان والصين الغربية (أى التركستان الشرقيـة)، ثم أصبحت على مقربة من الهند أهم المستعمرات البريطانية آنذاك.

واليوم، بعد مرور خمسين سنة، نجد امبراطورية جديدة قد حلت محل الامبراطورية الروسية القيصرية القديمة، وتربعت فوق عرش مستعمراتها وفى حوزتها أقوى الأسلحة وأشدها فتكاً.

ولقد صفت الامبراطورية البريطانية نفسها بنفسها، ونالت الهند استقلالها، وانسحب الانجليز من مسرح السياسة الاستعمارية فى جنوب شرقى آسيا. وانقسمت بلاد الهند الى دولتين تناصب أحداهما الأخرى العداء بسبب مشكلة كشمير. وبذلك حدث فراغ عند الحدود الجنوبيـة للتركستان السوفييتية. ومنذ عشرين سنة والاتحاد السوفييتى يحاول ملء هذا الفراغ وان يجد لنفسه فى هذه المنطقة من العالم موضعاً لقدم عن طريق عرض المساعدات الاقتصادية والعسكرية. ولا شك فى ان الدور الذى يمكن ان تلعبه التركستان فى عمليـة التسلل الشيوعى الى تلك البلاد الواقعة على حدودها، أى ايران وافغانستان والهند، دور هام جداً. ويبذل الاتحاد السوفييتى اليوم جهوداً مضاعفة لاختطاف دور "الوصى" الذى كـانت تقوم به بريطانيا العظمى فى يوم ما فى مناطق جنوب آسيا والشرق الأوسط، ويتذرع بالأسباب التالية:

١ــ ان الاتحاد السوفييتى، على عكس ما كـانت عليه روسيا القيصرية، دولة أوروبية وآسيوية فى الوقت نفسه.

٢ــ ان الاتحاد السوفييتى دولة "رائدة فى تحمل واجب انقاذ المستعمرات من حكم الامبريالية، وفى حمل لواء حركـات التحرير الوطنى ضد الاستعمار والامبريالية".

٣ــ ان وضع زعامة الحركـات المعادية للاستعمار فى العالم فى يد الاتحاد السوفييتى يعطيها كياناً أيديولوجيا ويرفع من شأنها ومنزلتها لدى شعوب العالم كـلها.

والوضع العسكرى الاستراتيجى للتركستان السوفييتية وضع هام جداً فى الاستراتيجية السوفييتية العامة. فهذه المنطقة الاستراتيجية العسكرية التى كـانت تسمى فيما سبق بمنطقة التركستان العسكرية وتسمى الآن بمنطقة آسيا الوسطى العسكريـة، يقع على عاتقها القيام بواجبات هامة فى الاستراتيجية السوفييتية العامة وفى مقدمتها ضمان اسعاف الهند بأنواع المساعدات العسكرية فى حالة نشوب نزاع مسلح جديد بينها وبين الصين. وكذلك ضمان المرور الى الهند عبر أراضى أفغانستان والباكستان، وبناء القواعد البحرية السوفييتية فى ايران والباكستان لضمان بقاء الأسطول السوفييتى فى المحيط الهندى مستقبلا وبصفة دائمة، وغزو التركستان الشرقية (التركستان الصينية) عند سنوح الفرصة.

ان الزيارات " الودية " التى تقوم بها وحدات بحرية من الأسطول السوفييتى فى المحيط الهندى، والتى كثرت فى السنوات الأخيرة، لموانىء الهند وسيلان وايران والعراق وعدن والصومال، قصدت بها قيادة الاسطول السوفييتى الحربى أعداد قواعد بحرية لها فى المحيط الهندى والخليج الفارسى.

ومن المعروف ان الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى تمتلكان قواعد فى اراضى أجنبية بفضل أساطيلهما الحربية والتجارية القوية، أما الاتحاد السوفييتى فلا يمكنه الاحتفاظ بقواعد فى المحيط الهندى والخليج الفارسى الا عن طريق وصوله إليها بالطرق البرية التى تظهر فيها قيمة التركستان وأهمية وضعها الاستراتيجى.

دور جمهوريات التركستان فى السياسة الخارجية السوفييتية

لقد ابرز زعماء الثورة البلشفية فى كل فرصة، مدى أهمية التركستان فى السياسة الشرقية لروسيا الشيوعية. ولقد صرح لينين فى هذا الشأن فى مقالة نشرت عام ١٩٢٠ بما يلى:

ان بلوغ آسيا الوسطى مرتبة يصح معها ان توصف بانها حامل مشعل الاشتراكية فى الشرق، سوف لا يعتبر أعظم حدث لى بالنسبة لقضايانا الداخلية الكبرى فحسب، بل سيكون له أثره الأكبر أيضاً بوصفه حدثاً دولياً ذو شأن عظيم(١٠).

ولا تزال الصحافة السوفييتية تردد أقوال لينين التى وصف فيها التركستان فقال " انها باب الشرق " وأنه أولاها " عناية خاصة " عندما قال فى رسالته فى ١٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٩ الى الشيوعيين التركستانيين:

ان تأسيس علاقات طيبة مستقيمة فى هذه الآونة مع شعوب التركستان، مسألة تحوز، دون أية مبالغة، أهمية تاريخية كبرى لصالح جمهورية روسيا الاشتراكية الفيدرالية السوفييتية(١١).

وما كان " الشيوعيين التركستانيين" الذين خاطبهم لينين الا الشيوعيين الذين كانوا يشغلون المناصب الهامة فى التركستان فى ظل احتلالها بقوات الجيش الأحمر. وهم الذين

---

(١٠) ايتوكى ناسيلينيا ١٩٥٩ غودا، مجلد الكازاكسكايا س.س.ر.، موسكو عام ١٩٦٢، ص ١٦٢/ ١٦٤/١٦٦/١٨٩.

(١١) اوبرازفانيه س.س.س.ر.، ص ١٣١.

وصفتهم وثائق احد الأحزاب فى حينه بأنهم "رجال تسممت عقلياتهم بسيكلوجية الاستعمار"(١٢).

وأما المنشور العام المؤرخ فى ١٢ فبراير (شباط) ١٩١٩ الذى وجههه ستالين الى ممثلى التركستان السوفييتية والى تشكيلات الحزب فقد جاء فيه ما يلى:

يجب ان ندرك ان التركستان بوضعها الجغرافى هى التى تصل روسيا الاشتراكية ببلاد الشرق وشعوبها المضطهدة. لذلك نرى ان مسألة استتباب النظام السوفييتى فيها مسألة هامة بالنسبة لامتداد الثورة الى الشرق كله(١٣).

ثم قال ستالين فى خطابه عند إفتتاح المؤتمر العام الثانى لشيوعى الشرق كله:

وإذا كانت جيوشنا الزاحفة وجنودنا المنتصرون قد أحرزوا لنا تقدماً سريعاً فى الجبهة الشرقية، فلا شك ايها الرفاق المندوبون فى انكم قد ساهمتم بجهودكم فى احراز هذا التقدم مساهمة كبيرة. وإذا كانت أبواب الشرق قد فتحت لنا الآن، فان الثورة مدينة بذلك أيضاً لما قام به رفاقنا المندوبون فى الآونة الآخيرة من نشاط(١٤).

ومنذ ذلك الوقت، استطاع الكرملين استخدام التركستان والجمهوريات السوفييتية الشرقية الأخرى فى تحقيق أهداف سياسته التوسعية التى اتبعها فى الشرق كله بنجاح وبعد نظر. وفى المؤتمر الأول لشعوب الشرق الذى عقد فى مدينة باكو فى ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠ والذى اشترك فيه ١٢٧٥ مندوباً عن ٣٧ دولة شرقية، قام ممثلوا الجمهوريات السوفييتية الشرقية ومنهم ممثلوا التركستان بجهود رئيسية لاظهار الطاعة والولاء للاتحاد السوفييتى الذى قدم المساعدات النزيهة غير المشروطة لهذه الشعوب لتتخلص من الاستعمار البريطانى. ويدعى السوفييت ان هذا المؤتمر قد "لعب دوراً كبيراً فى تطوير حركة التحرير الوطنى الايرانية"(١٥). وكذلك يقرر مؤلف تركستانى سوفييتى فيما كتبه عن موضوع العلاقات السوفييتية الافغانية فى ذلك العهد، ان ارسال جمهورية التركستان السوفييتية بعثتها الدبلوماسية الى مدينة كابول عاصمة أفغانستان، قد عزز موقف دولة أفغانستان دولياً(١٦)، ويعد ذلك من دواعى فخر التركستانيين. والواقع ان مهمة هذا المبعوث الدبلوماسى

---

(١٢) المرجع السابق، ١٣٤.
(١٣) المرجع السابق، ١٢٩.
(١٤) المرجع السابق، ص ١٣٢.
(١٥) "روسيا السوفييتية وحركة التحرير القومى لشعب الشرقين الأدنى والأوسط" ومجلة "مشاكل تاريخية"، العدد ١٠، موسكو عام ١٩٦٧، ص ٤٥.
(١٦) نفس المجلة، ص ٤٧.

فى كابول كانت أصلا لاقناع الأفغانيين بأن التركستان دولة مستقلة، ويسعى لديهم للاعتراف بها.

وبدأت المرحلة الجديدة من السياسة الخاصة بالتوسع الشيوعى التى استهدفت البلاد النامية فى عام ١٩٤٥/١٩٤٦. وسهل انتصار الاتحاد السوفييتى فى الحرب له احراز نجاح فى هذا الميدان بطبيعة الحال. وكانت القارة الافريقية الواسعة التى ظهرت فيها دول مستقلة جديدة بعد الحرب أفضل مجال للتوسع الشيوعى. ويلعب اليوم الشيوعيون التركستانيون دوراً كبيراً بصفتهم مندوبين سوفييت الى منظمات دولية كثيرة لها نشاط وتأثير كبيرين فى تلك الدول مثل "مجلس انصار السلام" و "لجنة التضامن السوفييتى بين الشعوب الافريقية الآسيوية". ونرى على رأس "لجنة التضامن السوفييتى مع البلاد الافريقية والآسيوية" الكاتب التاجيكى المعروف "ميرزا طورسون زاده" وان كان ذلك ليس الا إتماماً للمظاهر(١٧). وكان شرف رشيدوف رئيس الحزب الشيوعى الأزبكى والعضو المرشح للمكتب السياسى للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، هو الذى رأس الوفد السوفييتى الضخم الذى اشترك فى مؤتمر تضامن الشعوب الافريقية والآسيوية الذى عقد فى القاهرة فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٧. ثم فى مؤتمر هفانا فى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٦(١٨). كما ان اختيار مدينة طشقند مكاناً لمباحثات السلام بين الهند وباكستان، حيثما لعبت موسكو دور الوسيط بينهما، لم يكن من سبيل الصدفة.

ويستغل الشيوعيون رجال الدين الاسلامى لجمهوريات التركستان السوفييتية. استغلالا ناجحاً فى خدمة جهودهم الهادفة الى نشر أفكارهم الشيوعية فى البلاد الاسلامية فى الشرق بصفة خاصة وفى البلاد النامية بصفة عامة. ومن المعروف ان الحكومة السوفييتية التى تجاهر بعدائها للأديان وتحاربها بأساليب متشددة، قد أخذت فى سنوات الحرب العالمية الثانية فى استغلال عامل الدين عامة والاسلامى خاصة فى تحقيق أغراضها السياسية. فعندما تحرج موقف الحكومة السوفييتية أثناء الحرب، بادرت الى انشاء "ادارات الشؤون الدينية" بحثاً عن الأمل فى انتصارها فى المناطق الشاسعة التى يقطنها المسلمون فى الاتحاد السوفييتى، وفى مقدمتها البلاد التركستانية السوفييتية. فأمرت بالافراج عمن بقى حياً من رجال الدين الذين كانوا فى معسكرات الاعتقال، وطلبت منهم تأييد الحكومة السوفييتية.

كما ان الاتحاد السوفييتى اتجه بعد تلك الحرب الى انشاء العلاقات مع الدول الشرقية الاسلامية وتقوية أواصر الصداقة معها من خلال المؤسسات الاسلامية ورجال الدين فيها.

---

(١٧) "كوميونست تادجيكستانا"، ١٩٦٦/١/١١.

(١٨) البرافدا، ١٩٥٧/١٢/٢٩ وفى ١٩٦٦/١/١٧.

وتمشياً مع نفس هذه السياسة سمحت الحكومة السوفييتية بافتتاح بعض المدارس الدينية على الا يقبل الدارسون فيها الا بعد استيفاء شروط خاصة، على رأسها شرط ان يعمل الخريجون فيها لحساب الدولة السوفييتية. فنجد مثلا ان بين الدعاة الشيوعيين الذين يمارسون نشاطهم فى الدول العربية واندونيسيا والباكستان عدداً كبيراً من خريجى " الأكاديمية الدينية فى بخارى" .

وتمشياً مع نفس هذه السياسة، سمحت السلطات السوفييتية بافتتاح جامع واحد فى كل من المدن الكبرى فى الجمهوريات التركستانية. وجعلت لهذه الجوامع مهمة خاصة، الا وهى ان تكون من الأماكن التى يزورها ضيوف الاتحاد السوفييتى القادمون من البلاد الاسلامية. وكذلك أخذت السلطات الشيوعية منذ عام ١٩٤٦ اعادة تعمير كثير من المساجد التى تهدمت وهجرت، كما سمحت لبعض أفراد من مسلمى الاتحاد السوفييتى بأداء فريضة الحج، ولكن ذلك كله ليس الا لغرض الدعاية والتظاهر أمام مسلمى العالم بأن مسلمى الاتحاد السوفييتى يمارسون حرياتهم الدينية.

ان المادة ١٢٢ من قانون العقوبات السوفييتى تحرم تدريس الدين للناشئين الذين تقل أعمارهم عن سن الرشد القانونية، سواء فى المدارس الحكومية أو المدارس الخاصة. وليس من حق إدارة الشؤون الدينية الاسلامية انشاء مدارس أو تنظيم دراسات للدين. كما انها ليس من حقها امتلاك وسائل النشر والاعلام. واما " التسامح النسبى" الذى ظهر فى الحياة الثقافية للشعوب غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى عام ١٩٥٦، لم يمتد الى حياة المسلمين السوفييت الدينية. بل على النقيض من ذلك، نجد ان موظفوا ادارات الشؤون الدينية مطالبون " عند الطلب " بتأييد الحكومة السوفييتية فى سياستها الداخلية والخارجية.

فمثلاً يقول فضيلة المفتى الشيخ " ايشان بابا خان " رئيس ادارة الشؤون الدينية لمسلمى آسيا الوسطى والقازاق فى تصريح له أدلى به لصحيفة " ازفيستيا " ما يلى :

ان الدول الامبريالية التى تبحث عن أعوان، قد تمكنت من ضم تركيا والعراق والباكستان، الى حظيرتها. وهى تحاول بالوعود الكاذبة جر البلاد العربية المحبة للسلام إلى تكتل عسكرى كذلك، أملا فى استخدامها وسائل لتحقيق أغراضها(١٩).

. . . ونحن مسلمى آسيا الوسطى والقازاق نؤيد بالاجماع بيان المجلس السوفييتى الأعلى

---

(١٩) الازفستيا، ١٨/٣/١٩٥٥.

فى ٩ فبراير (شباط) ١٩٥٥، والذى يسعى لتحقيق النجاح للقوى المحبة للسلام العالمى. ونحن مسلمى آسيا الوسطى والقازاق نهيب بالعالم الاسلامى ان يخف لتأييد بيان المجلس السوفييتى الأعلى المؤيد للقوى المحبة للسلام التى تدعوا الى عقد معاهدة لتحريم صنع الأسلحة النووية ومنع استعمال واعدام المخزون منها(٢٠).

ولا شك أنه لا أقل حرج أو غرابة فى ان يطالب رجل الدين فضيلة المفتى بالسلام والطمأنينة وان يؤيد سياسة تنادى بهما. ولكن لا ينبغى ان ننسى ان الحكومة السوفييتية التى أخذت تناشد جميع دول العالم وشعوبها فى عام ١٩٥٥ " بتحريم الأسلحة النووية واعدام المخزون منها " كانت فى الوقت نفسه تواصل تنفيذ برنامج تجاربها النووية. وحدث ذلك فى وقت دارت فيه المحادثات بين ممثلى الدول النووية سنوات طويلة. وهى المحادثات التى أخذ المندوبون السوفييت فيها موقفاً متعنتاً يقضى على أى أمل فى الوصول الى اتفاق فى هذا الشأن. ورفضوا اى اقتراح منطقى بوجود " تفتيش جوى " لأحكام الرقابة على ذلك المنع لصنع وتجربة الأسلحة النووية. وهكذا لم نر من فضيلة المفتى باباخان أى محاولة للتحدث عن هذا السلوك وهذا الموقف الباطل من الحكومة السوفييتية فى هذه المحادثات. ولم ينطق فى بيانه بكلمة واحدة عن تلك التفجيرات النووية الهائلة التى قام بها السوفييت فى سلسلة تجاربهم لصنع أشد وافتك أنواعها.

الحالة الاقتصادية فى التركستان وصناعتها الرئيسية

ان التركستان بما تملكه من ثروات طبيعية واسعة تؤلف الركن الاساسى فى الاقتصاد السوفييتى مقسماً على بلاد القازاق (التركستان الشمالية) وآسيا الوسطى (التركستان الجنوبية). وتحتل صناعات الحديد والصلب والمعادن والفحم والغاز الطبيعى أهمية كبرى فى الاقتصاد السوفييتى بوجه عام. فحجم انتاجها من المواد الخام يأتى فى الترتيب الثالث فى الاتحاد السوفييتى كله. وبالتفصيل تأتى التركستان فى انتاج الرصاص فى الترتيب الأول، وفى انتاج النحاس والزنك فى الترتيب الثانى، وفى انتاج الفحم فى الترتيب الثالث. وبخلاف هذه العناصر يتوفر فيها البوكسيد والبترول، والحديد والمنجنيز والكرمايتات والذهب والفضة ومركبات الفوسفور والبوتاس والملح والاسبست ومواد البناء وغيرها(٢١).

---

(٢٠) نفس المرجع السابق.

(٢١) كازاكستانسكايا برافدا، آلما آتا فى ١/٢/١٩٧٠.

حجم الانتاج فيها عام ١٩٦٩ كما أعلنته جمهوريات التركستان السوفييتية كالآتى :

فى جمهورية القازاق :

١٠٦٠٠٠٠٠	طن من البترول	٦٨٠١٠٠٠٠٠	متر مكعب من الغاز الطبيعى
٥٧٤٠٠٠٠٠	طن من الفحم	١٦٨٧٠٠٠	طن من الحديد المطاوع
١٣٢٥٤٠٠	طن من الصلب	١١٢٣٧٠٠	طن من الأسمدة الكيماوية
١١٤٤٢٠٠	طن من ألواح المعادن غير الحديدية		

وفى جمهورية الازبك :

١٧٩٩٠٠٠	طن من البترول	٣٧٠٠٠٠٠٠٠	متر مكعب من الغاز الطبيعى
٤٢١٢٠٠٠	طن من الفحم	٣٨٨٠٠٠	طن من الصلب
٣٤٩١٠٠٠	طن من الأسمدة الكيماوية	٣١٧٧٠٠	من ألواح المعادن غير الحديدية(٢٢)

وفى جمهورية التركمان :

١٣٦٨٣٠٠٠	طن من البترول	٦٥٠٠٠	طن من الأسمدة الكيماوية(٢٣)

وفى جمهورية القيرغيز :

٢٨٥٩٠٠	طن من البترول	١٣٤٠٧٠٠	متر مكعب من الغاز الطبيعى
٣٥٦٠٠٠٠	طن من الفحم		

وفى جمهورية القادجيك :

١٥٥٤٠٠	طن من البترول	٤٣٧٨٠٠٠٠٠	متر مكعب من الغاز الطبيعى
٨١٨٣٠٠	طن من الفحم	١٣٤٣٠٠	طن من الأسمدة الكيماوية(٢٤)

وبالاضافة الى ذلك توجد مؤسسات صناعية اخرى مثل مصانع النسيج والأغذية وغير ذلك مما يدخل فى مجال الصناعات الخفيفة.

الزراعــة فى التركستان

والمحاصيل الزراعية فى التركستان عظيمة الأثر أيضاً فى الاقتصاد السوفييتى. وتمثل زراعة القطن التركستانى الذى يمد مصانع الغزل والنسيج فى الاتحاد السوفييتى بالقطن الخام المكـان الأول بين الزراعات التركستانية. ولذلك تنفق أموال طائلة وتبذل جهود عظيمة للتوسع فى تلك الزراعة وتحسين إنتاجها. ولذلك يلاحظ فى مقابل ذلك تناقص مطرد فى محاصيل الحبوب ومحصول التبغ.

(٢٢) برافدا فوستكـا، ١٩٧٠/١/٢٨.
(٢٣) تركمانسكـايا اسكرا، ١٩٧٠/٢/٤.
(٢٤) سوفيستكـايا قيرغيزيا، ١٩٧٠/١/٣٠.

ولقد بلغ محصول القطن فى عام ١٩٦٩ الأرقام الآتية:
٤٠٠٠٠٠٠ طن من الازبك، ٦٩١٠٠٠ طن من التركمان، ٦٢٥٦٠٠ طن من القادجيك(٢٥). وذلك بينما انتجت جمهورية القازاق فى نفس العام ٢٠٢٠٠٠٠٠ طن من الحبوب، وانتجت القيرغيز ٩١٤٠٠٠ طن منها، وانتجت القادجيك ١٩٤١٠٠ طن، والتركمان ٨٠٨٠٠ (٢٦).

لغــة التركستان وآدابهــا

التركستان هى الموطن الأصلى للغة التركية ومهد آدابها. وهى بفضل موقها الجغرافى الاستراتيجى عند ملتقى طرق التجارة العالمية، قد احتكت بكثير من الحضارات القديمة وأستوعبت ثقافاتها. ثم ما لبث ان جاءها الاسلام فى القرنين السابع والثامن الميلادى بأفكار وثقافه جديدة، وجاء معه أيضاً بلغة القرآن الكريم. وعلى أرض التركستان امتزجت اللغات الثلاث، العربية والفارسية والتركية القديمة، وتطورت عنها اللغة التركية الحديثة، التى هى لغة الأدب الكلاسيكى التركى المكتوب. على اننا نجد فى التركستان أدباً فولكلوريا غنياً أقدم من الأدب الكلاسيكى المكتوب، كان منه الملاحم والحكايات والأساطير وما الى ذلك من أنواع الفولكلور القديم. وكانت الملاحم يغنيها الفنانون المعروفون باسم "بخشى" بمصاحبة آلات موسيقية مثل "القوبوز" و "الدومبرا". والكثير من هذه الملاحم يسجل تاريخ التركمان القدامى وأمجادهم وبطولاتهم. ولا زالت ذكرى الشعراء المغنين التركمان الذين عاشوا فيما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر حية الى عصرنا هذا.

ومن أشهر الملاحم القديمة، السابقة لعصر الاسلام، ملحمة "الباماش" الازبكية، وملحمة "ده‌ده‌كوركوت" التى تعد من أعظم مخلفات قبائل البدو الاتراك الاوغور، وملحمة "كوراوغلو" وقصائد "ماناس" القيرغيزية وملاحم "كوبلاندى باطير" و "قمير باطير" عند القازاق، وغيرها مما يسجل تقاليد وعادات وأسلوب حياة التركمان وتاريخهم القومى.

ومن التراث الأدبى التركى القديم "النقوش الارخونية" التى تنتمى الى القرن السادس الميلادى. وهى عبارة عن نقوش بلغة منثورة متطورة معاصرة للخاقانية التركية. ومن أحسن نماذج الأدب ما عرف باسم "فالنامه".

---

(٢٥) كوميونست تادجيكستانا، ١٩٧٠/١/٢٩.
(٢٦) برافدا فوستكا، ١٩٧٠/١/٢٨ وسوفستكايا قيرغيزيا، ١٩٧٠/١/٣٠.

ويعد الكتاب المسمى "ديوان لغة الترك" الشهير الذى وضعه عالم اللغات محمود الكشغرى فى القرن الحادى عشر من أهم مراجع الأدب التركى فى ذلك العصر. ومن الأدباء الشهيرين الآخرين يوسف خاصحاجب (١٠٦٩–١٠٧٠) الذى ألف الكتاب المعروف باسم "كوراتكو بيليك" فى مدينة الكشغر عاصمة الدولة القارخانية التركية الاسلامية فى ذلك العصر. كما أنه يعتبر منشىء مدرسة الشعر التركى الكشغرى الكلاسيكى.

وبعد استيلاء المغول على بلاد التركستان فى القرن الثالث عشر، ظهرت نهضة عظيمة فى العلوم والآداب وفروع الحضارة الأخرى كانت التركستان مركزاً لها. وعندما قامت الدولة التيمورية فى القرن الخامس عشر، تطور الأدب الأوزبكى الجغتائى تطوراً عظيماً، وظهر من بين أدباء ذلك العصر السكاكى السمرقندى ولطفى الهراتى ومير على نوائى (١٤٤١–١٥٠١) الذى يعد أحسن معبر عن تلك المرحلة من الأدب وأشهر أعماله كتاب "محاكمة اللغتين" الشهير. وكانت آثاره الأدبية موضع اهتمام ودراسة عشرات من الأدباء ورجال العلم الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده.

ولقد سجل الأدب التركستانى تقدماً عظيماً وتطوراً ملحوظاً فى العصر السوفييتى برغم تقسيمه الى أدب اوزبكى وأدب قازاقى وغيره قيرغيزى وتادجيكى وتركمانى، وبرغم تضييق الخناق على نشاط الادباء وعلى قدراتهم الخلاقة الحرة.

والأدب البروليتارى السوفييتى لم يتمكن من إفساح مجال لنفسه فى التركستان حتى عام ١٩٢٥. فقد قاوم الأدباء التركستانيون الأيديولوجية الشيوعية مقاومة عنيدة وتمسكوا بتقاليد الأدب القومى تمسكاً كاملا. وكانت معارضتهم لسياسة الأدب السوفييتية علنية فى بادىء الأمر. ولما أشتد الضغط والارهاب لجأوا الى أساليب ملتوية مموهة كثيرة. وكان الأديبان عبد الحميد سليمان تشوليان وماهجان جومباى على رأس هذه الحركة. ولقد أعدم الاثنان عام ١٩٣٨.

وفى العصر السوفييتى تحولت مهمة الأدب الى ان صار وسيلة للدعاية الأيديولوجية الشيوعية ونشر الأفكار والآراء السوفييتية والترديد المستمر لفكرة فضل موسكو على الشعب التركستانى و "العرفان بالجميل" للشعب الروسى الشقيق. وكان من أثر ذلك ان هبط المستوى الفنى للانتاج الأدبى. واعترفت مجلة سوفييتية بأن السوق يضم سيلا من المؤلفات التى لا لون ولا ذوق لها مما يدعو الى القلق والنفور. وقالت المجلة ان مشاهير الأدباء لا يحاولون إنتاج شيء له قيمة تذكر(٢٧).

---

(٢٧) كازاكستانسكايا برافدا، ١/٢/١٩٧٠ وسوفستكايا قيرغيزيا، ٣٠/١/١٩٧٠.

وبرغم ذلك لم تخلو التركستان من أدباء يتمسكون الى اليوم بتقاليد الأدب التركستانى العريقة ويحافظون عليها. والحكومة السوفييتية تسير على سياسة خنق حريات شعوب التركستان وتفتيت وحدتها وكيانها والقضاء على ثقافتها القومية. ويسير هذا جنباً الى جنب مع سياسة الاستغلال الاقتصادى التى تتمثل فى المبدأ " قومية الشكل واشتراكية المحتوى".

ومن دواعى الأسف، فان الدعاية الشيوعية السوفييتية تستخدم مثل هذا المبدأ بمهارة فائقة لتوسيع آفاق النفوذ السوفييتى بين دول " الكتلة الثالثة "، مما يحقق فى الواقع نجاحات لا ينبغى الاستهانة بها للسياسة التوسعية الشيوعية.

فنون الشعوب الاسلاميـة

فى الاتحاد السوفييتى

بقلم: بيرم رضـا

[الجزء الأول]

آذربيجـان

بدايات تاريخ الموسيقى الآذربيجانية

يرجع تاريخ ابتداء الحضارة الموسيقية فى آذربيجان الى فترة تقع بين ثلاثة آلاف الى خمسة آلاف سنة قبل عصرنا الحالى. والاكتشافات الأثرية التى تمت فى منطقة كوبستان لها شأن عظيم فى التدليل على هذا. فقد اكتشفت نقوش على الصخور لرقصات تشبه رقصة "ياللى" الجماعية المنتشرة فى آذربيجان فى عصرنا هذا(١). واكتشفت كذلك عند سفح جبل "جنكيرداغ" صخرة ضخمة يطلق عليها الأهالى هناك اسم "كافال تشالان تاش"، أى الحجر الرنان. والسبب فى اطلاق هذه التسمية ان هذه الصخرة إذا نقر عليها بقطعة من الحجر أصدرت صوتاً له رنين معدنى. والمعتقد ان هذه الصخرة كانت تستخدم فى اصدار أصوات تصاحب رقصات العبادة(٢). وهناك اكتشاف آخر يتعلق بالحضارة الموسيقية فى آذربيجان فى العصور الأولى، قد يكون أهم مما ذكرناه قبلا. وهذا الاكتشاف هو رسم يبين موسيقياً يجلس على "سيتولا" (دلو من العصر البرونزى) ويعزف

---

(١) ل. كاراجيتشيفا، جمهورية آذربيجان الإشتراكية السوفييتية، الطبعة ٢، موسكو عام ١٩٥٧، ص ٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

آلة موسيقية يحملها على صدره بنفس الطريقة التى يعزف بها الآذربيجانيون الآن آلة "التار". ولذلك بالذات يعتبر هذا الرسم ذو دلالة عظيمة لدى عدد كبير من الباحثين، إذ يرون فيه قيمة كبيرة تساعد فى الكشف عن عادات الآذربيجانيين القدماء(٣). وما لدينا من معرفة بموسيقى الآذربيجانيين فى العصور الأولى قليل جداً، لأن أعمال البحث والاستكشاف فى هذه المناطق لا تزال قاصرة. ويمكن ان يقال بكل اطمئنان أنه بعد دخول الاسلام الى آذربيجان فى القرن السابع الميلادى على أيدى العرب، حدثت حالة من الركود الحضارى الذى استمر الى ان جاءت نهضة شاهات شيروان فى القرن الحادى عشر، التى بلغت قمة رقيها وتطورها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وأول ما يمكن استخلاصه مما قيل فى وصف الحياة الموسيقية فى تلك الحقبة هى أعمال الشاعر الآذربيجانى الأشهر " نظامى" (١١٤١–١٢٠٣). عاش نظامى فى مدينة كانت تسمى " غنجه " (وهى الآن مدينة كيروفاباد) كانت المركز الحضارى لكل آذربيجان فى ذلك الزمن. وكانت الموسيقى تحتل مكاناً هاماً فى اشعار نظامى الغنائية. وكان يدون فوق هذه الأشعار كيفية ادائها موسيقياً والأثر المطلوب أحداثه لدى السامع. وكانت هذه الأغانى تتناول مختلف أنواع المشاعر الانسانية، من أغانى الغرام والشكوى والحماس والحرب الى أغانى الرثاء وبكاء الموتى. كما انها كانت تتناول الآلات الموسيقية التى تصاحب الغناء. ومن أمثلة هذه الأشعار الغنائية قصيدة " هوسروف وشيرين " التى يعرض فيها نظامى منافسة بين المغنيين الشهيرين " باربد " و" ناغى"، اللذين كانا قد دعيا الى مأدبة عند هوسروف وقاما بغناء قصائد تناولت ألحانها ثمانية مقامات موسيقية(٤).

وكل هذه الدلائل برغم وضوحها ليست سوى اشارة عابرة الى المستوى الراقى الذى بلغته الحضارة الموسيقية فى آذربيجان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. ومن المؤسف حقاً ان ما لدينا من معلومات لا تتعدى حدود المعرفة النظرية فقط ولا تصل الى درجة ان تعطينا أمثلة عملية ملموسة. ومع ذلك فاننا قد لا نكون أخطأنا التقدير اذا قلنا ان الموسيقى الآذربيجانية فى العصور الوسطى لم تختلف كثيراً على ما لدينا من نماذج من الموسيقى الآذربيجانية فى العصر الحالى. والسبب فى ذلك هو ان الشعب الآذربيجانى قد حافظ على تقاليده الموسيقية وتمسك بطابعها، ولأن المقامات الموسيقية التى ذكرت فى مخطوطات العلماء الذين عاشوا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تتفق مع مقامات الموسيقى الآذربيجانية الحالية.

---

(٣) المرجع السابق، ص ٦.

(٤) ف. بيليايف، دراسات فى تاريخ موسيقى شعوب الاتحاد السوفييتى، موسكو عام ١٩٦٣، ص ٦٠.

أخذت علوم الموسيقى بعد ذلك فى الفترة بين القرن الثالث عشر والخامس عشر فى الازدهار والتطور والامتداد الى كل آفاق المشرق. وكثر العلماء الذين اهتموا بالموسيقى وعلومها وآلاتها، وكان منهم عدد غير قليل من الآذربيجانيين نذكر منهم على سبيل المثال " صفى الدين عبد المؤمن الارماوى " (توفى عام ١٢٩٤) و " عبد القادر المراغى" (توفى عام ١٤٣٥). دخل صفى الدين باب التاريخ الموسيقى وفى يده عملين عظيمين هما: "كتاب الادوار" الذى يتناول فيه المقامات الموسيقية، و " رسالياتى اشى اشادفيه " (رسالة فى تناسب الألحان)(٥). أما عبد القادر المراغى فقد كان يعيش فى بغداد حتى غزاها تيمورلنك عام ١٤٠١ ثم أخذه معه ضمن من أسرهم من العلماء والفنانين الى سمرقند حيث أمضى فترة من حياته فى بلاد التركستان. وكتب عبد القادر المراغى كثيراً من الرسالات الاختصاصية فى الموسيقى نذكر منها مخطوطاً بقى سليماً جزئياً يتضمن القوالب الموسيقية. وهناك مخطوط أثرى آخر له أهمية خاصة يعتقد ان تاريخ كتابته يرجع الى القرن السابع عشر قد تضمن نفس المقامات الشائع استعمالها اليوم فى آذربيجان وهو " رسالاى موسيقى " أى رسالة فى الموسيقى. وهناك اعتقاد بأن صاحب هذه الرسالة هو عالم آذربيجانى يسمى " سلطان عبد الحسن على بن موسى الرضا "(٦).

كذلك كان للدور الذى قام به الشاعر الآذربيجانى الشهير " فيظولى " أهمية كبيرة فى تاريخ تطور الموسيقى الآذربيجانية. وتتميز أعمال فيظولى بأنها على خلاف أعمال نظامى، مكتوبة باللغة التركية الآذرية. وهى لا تزال تلحن وتغنى فى آذربيجان حتى اليوم(٧).

الموسيقى الآذربيجانية فى العصر الحديث

تنقسم الموسيقى الآذربيجانية التقليدية الى أربعة أنواع رئيسية:

١ــ الموجامات.

٢ــ موسيقى الاشوجة.

٣ــ الأغانى الشعبية.

٤ــ موسيقى الرقص.

---

(٥) المرجع السابق، ص ٦١.

(٦) ج. غاجييف، الموسيقى الآذربيجانية، موسكو عام ١٩٦١، ص ٥٨.

(٧) المرجع السابق، ص ١٢.

الموجات مقطوعات موسيقية يختص بعزفها أساساً نوع من الموسيقيين يسمى "هاننذز". وتتألف فرقة الهاننذز عادة من عازف كمنجة (آلة وترية ذات قوس تشبه الكمان شبهاً قليلا وتوضع على الركبة لعزفها) وعازف "تار" (آلة وترية تعرف بالنبر) وعازف "الدف" (تمبورين) ثم المغنى. وتسمية "موجام" التى يطلقها الآذربيجانيون على هذا النوع من الموسيقى المعروف لدى شعوب اسلامية اخرى كثيرة مثل العرب والاتراك والايرانيين وغيرهم، مأخوذة من الكلمة العربية "مقام". وهذا النوع من المقطوعات الموسيقية يمكن اعتباره من الموسيقى الكلاسيكية عند مجموعة الشعوب الاسلامية. وبرغم وجود اختلافات كثيرة هامة بين أساليب اخراج وقوالب المقامات عند كل من هذه الشعوب، الا أنه لا يمكن للباحث ان يخطىء الطابع الأساسى المشترك الذى يميز هذه الموسيقى عندهم جميعاً. وبمرور الزمن اختص كل من هذه الشعوب بأنواع معينة من المقامات الموسيقية تتفق مع الأمزجة الخاصة لكل من هذه الشعوب. وفى آذربيجان كانت المقامات المفضلة التى شاع استعمالها هى:

مقام راست ومقام سيكاه ومقام شوشتر ومقام شاركاه ومقام بياتى شيراز ومقام همايون. وتعتبر هذه المقامات العنصر الأساسى فى الموسيقى الآذربيجانية القومية.

وكلمة "موجام" هذه تعنى بالنسبة للموسيقى الآذربيجانية عدة أشياء مختلفة: فهى تعنى مقطوعة موسيقية فى قالب خاص يتميز بطابع التلاوة (الرسيتاتيف). وهى تعنى غير ذلك المقام الموسيقى (مثل مقام راست أو مقام سيكاه... الخ) أى السلم الموسيقى، كما يقال فى الموسيقى الأوروبية مقام دو الكبير أو مقام فا الصغير وهكذا. ثم هى تعنى بوجه عام مقطوعة موسيقية من مقام معين. والتحليل السليم للأعمال الموسيقية للمؤلفين الموسيقيين الآذربيجانيين فى القرن العشرين تؤكد استيعابهم لهذه المقامات ومعرفتهم بها معرفة طيبة. فان مقامات الموسيقى الشرقية تدرس الى جوار علوم الموسيقى الأوروبية الحديثة كنظريات الهارمونى والكونترابونت وغيرها الى طلبه كونسرفاتوار "عسير حاجى بيلى" فى آذربيجان. وتحليل الموسيقى الآذربيجانية حسب مقاييس الموسيقى الأوروبية المعروفة غير ممكن الا فى بعض الحالات النادرة.

ويأتى بعد ذلك فى الأهمية بالنسبة للحياة الموسيقية فى آذربيجان ما يسمى "الاشوجه" (أى مغنى العواطف) الذين ينتشرون فى الريف بوجه خاص، وكانوا ولا يزالوا الى اليوم يغنون الحكايات أو الملاحم الشعبية، ان صح التعبير، التى تتغنى بعظمة الحب والوفاء ومنها ما فى البطولة والشجاعة فى الحق وما الى ذلك. ومن أشهر هذه الملاحم (وتسمى

بلغة أهل البلاد " دستان ") ملحمة "كور–اغلو" التى تعرفها جميع الشعوب التركية. والاشوجه، على خلاف الهانندز الذين يختصون بالمقامات ويقدمون فنهم لخاصة الناس فى قصور عليه القوم، كانوا ولا يزالوا فنانى الشعب المحبوبين الذين يقدمون فنهم لجميع الناس. كان الاشوج (مفرد اشوجه) يسمى فى القرنين العاشر والحادى عشر " اوزان "، (ومما هو جدير بالذكر ان بطل الملحمة التركية المعروفة المسماة "كتابى دده قور قوط" كان اوزاناً محبوباً من الناس). ثم أخذت كلمة أوزان تندثر شيئاً فشيئاً حتى اختفت تماماً فى القرن السادس عشر وحلت مكانها كلمة " اشوج" المنحدرة من كلمة " عاشق " العربية. والاشوج يصاحبه أثناء الغناء آلة موسيقية وترية شبيهة بالعود تسمى " صاز" وتعزف بالنبر على اوتارها بريشة مصنوعة من لحاء شجرة الكرز. ويوجد ثلاثة أحجام من هذه الآلة: صار ذو أربعة أو خمسة أوتار، وآخر ذو ثمانية أو تسعة أوتار، ثم ثالث أكبر كثيراً فى حجمه ويزيد كثيراً فى عدد أوتاره مما كان سبباً فى صعوبة عزفه، وبالتالى إهماله.

والاشوجه يقدمون فنهم فى صور متنوعة ولكنها يمكن تصنيفها تحت ثلاثة أساليب:

١– يظهر الاشوج كمغنى يصاحب نفسه بالعزف على الصاز.

٢– يظهر الأشوج كما سبق ومعه عازف على " البعلبان " (البعلبان آلة نفخ خشبية ذات صوت ناعم يتميز بالاتصال) يدور حوله اثناء العزف. وهذا الاسلوب هو الأكثر شيوعاً، وان كان فى أحيان كثيرة يضم ثلاثة أشخاص هم الاشوج يصاحبه عازفان على البعلبان.

٣– وفى الأسلوب الثالث يلتقى اشوجان ويتباريان فى الغناء والعزف ويحاول كل منهما اثبات تفوقه على الآخر.

وتسير المباراة أو النزال بين الاشوجين على النحو التالى: يلقى الاشوج الأول لغزا مرتجلا منظوماً ملحناً، ثم يعيده مرة ثانية للتوضيح والتأكيد. ثم ينبغى على الاشوج الثانى ان يحل اللغز بنفس الطريقة. ثم يأتى دور الاشوج الثانى ليلقى لغزه ويكون على الاشوج الأول حلة، وهكذا الى ان يعجز احدهما. وجرت العادة ان تتناول هذه الألغاز أو الاحاجى مسائل فى الطبيعة والبيولوجيا والتاريخ وغيرها. ويحكى انه فى حالة عجز كلا الاشوجان عن ان يغلب واحد منهم الآخر، فان النزال بينهما يتطور الى نوع آخر يسمونه " دوداقديميز"، (أى عدم تلامس الشفتين)، ويثبت بين شفتى الأشوج دبوس لكى يمنع تلامس شفتيه أثناء الغناء ويطلب منه ان يلقى لغزاً أو يجيب على اللغز بعد ان يحور فى صياغة الكلام

بشكل يتحاشى معه استخدام حرفى الباء والميم اللذين يدميان شفتيه اذا نطق بأحد منهما. وهكذا الى ان يظهر الغالب والمغلوب. والمشقة الهائلة فى هذا الاسلوب من النزال لا يمكن ان يتصور قدرها الا من يعرف الكثرة التى يدخل فيها حرفى الباء والميم فى لغة الآذربيجانيين. اما الشعر الغنائى الذى يلقيه الاشوجه فهو غالباً فى هذه القوالب: " نغمة " (وهى أغنية صغيرة)، "كهرمانى" (وهى أغنيه حماسية)، " جنكى" (وهى أغنية قتال)، " غزليمة " (وهى أغنية غزل) ثم " اوستاد ــ داما " (وهى أغنية فى الشجى وشكوى الزمان)(٨).

وأهل البلاد يسمون هذا النزال بين اشوجين " دييشمه ". واللغز يسمونه " باكلامه " ومعناه تقريباً " العقدة "، أو قد يكون الأصح كلمة " الدوخة ". وجرت العادة حتى اليوم ان يقدم الاشوج المغلوب صازه الى غريمه علامة على رضوخه(٩). ومن أشهر اللقاءات بين الاشوجه فى تاريخ هذا الفن لقاء هاستا قاسم مع لسغى أحمد، ولقاء اشوج بيرى (وهى امرأة) مع ميرزاجان ميديتوف، ثم اشوج العسكر مع شاهد ولى(١٠).

جاء فى مقالة قيمة للعالمة الموسيقية أمينة الداروفا عن تاريخ فن الاشوجه فى وصف الاشوجه بأنهم ينقسمون الى الفئات الثلاث الآتية:

١ــ اشوج شاعر وملحن ومغنى وعازف صاز وبقدر محدود راقص أيضاً.

٢ــ اشوج مغنى وعازف صاز وراقص. وهذه الفئة لا تستطيع التلحين ولا قرض الشعر وانما الاداء فقط.

٣ــ أشوج شاعر ومغنى فقط ولا يتمتع بالقدرات الأخرى(١١).

ولقد نجح الاشوجه فى المحافظه على طابعهم وتقاليدهم الخاصة منذ أول اشوج اطلق عليه هذا الاسم ــ وهو اشوج " عباس طوفار غانلى " الذى عاش حتى بداية القرن السابع عشر ــ(١٢) الى عصرنا الحالى، وذلك برغم ما لاقوه من ضربات كثيرة اتتهم من جهات مختلفة. فقد جرت محاولات لانشاء اوركستر من الاشوجه، خاصة بعد ضم آذربيجان الى الاتحاد السوفييتى. وأكثر من ذلك فقد كانت هناك محاولات لا تتوقف لادخال آلات إيقاع وغيرها مما يعد غريباً على أسلوب الاشوجه بحجة تقويته، ولكنهم

---

(٨) ل. كراجيتشيفا، السابق ذكره، ص ٣٨.

(٩) "الفنون فى آذربيجان"، اصدار أكاديمية العلوم الآذربيجانية السوفييتية، معهد الفنون والعمارة، الجزء ٨، باكو عام ١٩٦٢، ص ٤٤.

(١٠) المرجع السابق، ص ٤٥.

(١١) المرجع السابق، ص ٤٣.

(١٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

كانوا بذلك يفسدونه ويبتدعون فيه(١٣). واسلوب اداء الاشوجه يتنوع من جهة لأخرى. فبينما الاشوجه من مناطق التخوم مثل "شمهور" و"طوفوز" و"كيروفاباد" و"كاساه" و"كوكشه" و "كيليجار" وغيرهم قد حافظوا على أسلوب الاشوجه الأصيل، يميل الاشوجه من ساماهى وسلبيان الى مزج موسيقاهم بالحان مقتبسة من المقامات التى يؤديها الهانندز(١٤).

ويتمتع الاشوجة بتقدير الأهالى وخاصة فى المناطق الريفية. وليس من السهل ان يقدر بدقة مدى تأثيرهم فى الحياة الثقافية فى الريف. ولكن مالا شك فيه أنهم يقدرون على ان ينقلوا أهل الريف الى أوسع آفاق السعادة والنشوة. فمثلا كتب "ه. زرديبى" فى جريدة "حياه" بتاريخ ٨ يناير (كانون الثانى) ١٩٠٦ يصف تأثير الاشوجه فى جمهورهم فقال:

لا توجد كلمة تكتب أو تقرأ لها مثل ذلك التأثير على القوقازيين المسلمين مثل الكلمة المنظومة وخصوصاً تلك الملحنة التى يرددونها عن طيب خاطر. واذا راقبنا مرة جمهور المستمعين الى الاشوجه فى المحافل، رأيناهم تنتابهم حالة ينطبق عليها قول الاتراك: لا يضنيهم شىء ان تقطع أبدانهم. وعندما ينتهى الحفل وينصرف الاشوجه يظل الأطفال أياماً طويلة بعده يرددون فى الطرقات ما سمعوه من الاشوجه من كلام والحان(١٥).

ان الدستانات (جمع دستان) وهى الملاحم الشعرية التى يغنيها الاشوجه والتى يعرفها أهل الريف معرفة جيدة، يمكن اعتبارها "اوبرا لمغنى واحد"، فالدستان يضم جميع العناصر الفنية المكونة للأوبرا وان كانت فى صورة بسيطة جداً. فهو يحتوى على: الاداء التمثيلى والموسيقى والرقص ثم القصة. وربما كان هذا هو سبب ان هذا الفن له مثل هذا التأثير العميق فى أهل البلاد. ويتقاضى الاشوجه أجورهم عينيا (أى ليس نقداً وانما أغراضاً).

وفى الماضى لعب الاشوجه دوراً فى القضايا السياسية والاجتماعية والدينية، مما كان سبباً فى اضطهادهم. ولاقى البعض منهم السجن والنفى والتشريد. ومن أمثلة هؤلاء اشوج "عزيز" واشوج "آى الدين"(١٦). واليوم يسعى الحزب الشيوعى الى فرض سياسته

---

(١٣) المرجع السابق، ص ٤٥.
(١٤) المرجع السابق، ص ٤٦.
(١٥) نقلا عن "الفنون فى آذربيجان" السابق ذكرها، ص ٤٧.
(١٦) المرجع السابق، ص ٥٠.

على الاشوجه واكراههم على تمجيد الدولة الاشتراكية وتقدمها بقيادة الكرملين الرشيدة والتغنى " بالصداقة الروسية الآذربيجانية الخالدة ".

كان تعليم الاشوج يسير على النحو التالى: جرت العادة ان يأتى التلميذ الذى يريد ان يصبح اشوجاً الى احد الاشوجة (المعلمين) ويقيم عنده سنين عدة كصبية أو مساعدة ويلازمه فى كل تنقلاته الى ان يتعلم منه كل ما يمكنه. وفى النصف الأخير من القرن الماضى وجدت بعض مدارس للاشوجة كانت تمنح المتخرج شهادة(١٧). ويعتبر اشوج "العسكر" (١٨٢١–١٩٢٦)، أعظم الاشوجة فى القرنين التاسع عشر والعشرين وأكبر من علم من الاشوجة، وكذلك ابنه " طالب " الذى لا يزال الى اليوم معلماً شهيراً، وسنه يزيد على الثمانين بينما يواصل تقاليد أبيه ورسالته(١٨). وأشهر الاشوجة أيضاً امرأة لمع اسمها فى القرن التاسع عشر (وهذا أمر يعتبر بحق غريب جداً، فكما هو معروف يندر فى الشرق ان يسمح للنساء بأن يسلكوا دروب الحياة العامة كالرجال). وكانت هذه السيدة هى اشوج " بيرى" التى أثارت أعجاب الناس وهى لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها بصوتها العذب وجمالها الساحر وحضور بديهتها وسرعة خاطرها التى لم يدانيها فيها أحد(١٩). ويقال انها اشتركت فى مباريات كثيرة مع اشوجة مختلفين من عصرها(٢٠).

اما الدستانات فان أشهرها ولا شك "كور اغلو" و " اصلى كريم " و " اشوج غريب " و " لطيف شاه " و " تلى حسن " و " نوروز" و " شاه اسماعيل " ثم " هاستا قاسم ".

ويعد الاشوجه حالياً فى آذربيجان بالعشرات حتى اننا لا نستطيع ان نذكر أسماءهم جميعاً. وهم ما زالوا يقومون بدور كبير فى الحياة الموسيقية للبلاد. والدستانات التى يقدمونها لم تكن فقط مادة طيبة قامت على أساسها الأوبرات الآذربيجانية الأولى، بل ان فنها ساعد على الاحتفاظ بالمستوى الراقى من الحضارة الموسيقية التى رعاها أهل آذربيجان.

تتميز الأغانى الشعبية الآذربيجانية بتنوع وفير فى اللحن والايقاع. فالأغانى والرقصات تقوم فى الغالب على إيقاع $\frac{٦}{٨}$ حيث تقع الدوم على الكروش الأول والخامس، والبناء يبدأ من نغمة الأساس ثم يصعد الى الخامسة ثم يعود الى الأساس. ومن العادة ان يتبع المقطع المعلق مقطع إيقاعى. ويسود فى ايقاع $\frac{٦}{٨}$ التقسيم $\frac{٣}{٨}$ $\frac{٣}{٨}$. والتغيير فى الايقاع من

(١٧) المرجع السابق، ص ٥٤.
(١٨) المرجع السابق، ص ٥٥.
(١٩) ا. برجيه، فى مقدمه الطبعة الألمانية لكتابة "المجلة الآذربيجانية للشعر"، ليبزج عام ١٨٦٧.
(٢٠) "الفنون فى آذربيجان" السابق ذكرها، ص ٦٥.

تقسيم ٣/٨ ٣/٨ الى تقسيم ٢/٨ ٢/٨ ٢/٨ من الأساليب الشائعة والمفضلة. ومن أمثلة هذا أغنية الرقص المسماة "تريكيمة"(٢١). فنى هذه الأغنية تتميز المازورتان ١٥، ١٦ فى ايقاعهما عن باقى الأغانى بأنهما فى ايقاع ٣/٤ مما يكسبهما طابعاً خاصاً. وتأتى ألحان الأغانى عادة فى المقامات الموسيقية السبع التى سبق لنا الحديث عنها. والايقاعات الشاذة مثل ايقاع ٤/٥ و ٧/٨ يندر وجودها فى الموسيقى الآذربيجانية، وان وجدت فاصلها يعود على الأرجح الى الموسيقى التركية.

وعادة تؤدى أغانى الرقص بطريقتين خاصتين: رقص الجماميع المسمى "ياللى" الشائع فى الريف بنوع خاص، ثم الرقص الانفرادى الذى يؤديه فى أغلب الأحيان راقصتان وغالباً ما يكونان راقص وراقصة، وهو على خلاف الرقص الأوروبى المشترك لا يلمس الراقصان بعضهما.

الآلات الموسيقيـة

ان "التار" هو بغير منازع ملك الآلات الموسيقية الآذربيجانية. وهو آلة وترية صندوقها الصوتى مكسى بجلد السمك (وليس بجلد الخنزير كما تذكر موسوعة ريمان)، ويعرف بطريقة النبر على أوتارة بريشة، وكثيراً ما تعزف هذه الآلة انفرادياً الى جانب اشتراكها فى التخت. وهى تقوم فى الحياة الموسيقية الآذربيجانية مقام الجيتار فى الموسيقى الاسبانية مع فارق واحد هو ان عازف التار لا يغنى أثناء العزف.

ومن الآلات الشائعة الأخرى "الكمنجة"، وهى آلة وترية تعزف بالقوس وتشبه الفيولينه شبهاً بعيداً وتوضع على الركبة أثناء عزفها، كما ان صندوقها الصوتى مكسى بالجلد.

ومن بين آلات النفخ الكثيرة المستعملة فى آذربيجان نذكر "الزورنة"، وهى شبيهة بآلة الاوبوا ولها صوت حاد ومرتفع جداً حتى انها لا تعرف الا فى الأماكن المكشوفة ويصاحبها عادة الطبل الكبير. ثم هناك آلة "البعلبان" وهى آلة نفخ خشبية تتميز بصوتها الناعم المتصل (لجاتو) وسبق الحديث عنها عند ذكر موسيقى الاشوج والصاز. ثم آلة نفخ خشبية أخرى تسمى "توتيك" وهى ناى الرعاة ويشيع استعمالها فى الريف خاصة.

---

(٢١) ل. كاراجيتشيفا، السابق ذكره، ص ٢٧.

ويعتبر الاكورديون من الآلات الموسيقية الشعبية الشائعة فى آذربيجان ولكنه اكورديون يختلف عن الاكورديون الأوروبى المعروف من عدة وجوه: فأول شىء ان أصواته مضبوطة على نغمات المقامات الشرقية الشائعة فى آذربيجان، ثم ان صوته يختلف فى نوعيته من حيث أنه أقرب الى صوت الأرغن — ويسمى هذا فى آذربيجان " جورمون "، وبهذا يكون الآذربيجانيون قد جعلوا منه آلة آذربيجانية شعبية أصيلة.

ومن آلات الايقاع نذكر الطبلة الكبيرة ذات الجانبين، والدف (تمبورين) الذى لا يمكن الاستغناء عنه فى اداء موسيقى باستثناء موسيقى الاشوجة. والدف الآذربيجانى يختلف اختلافاً محسوساً عن التمبورين الأوروبى حتى ان استخدام نفس علامات التدوين للآلتين يسوق الى الخطأ.

الأوبـرا

تعتبر سنة ١٩٠٧ هى سنة ميلاد الأوبرا الآذربيجانية، بل انها سنة ميلاد الأوبرا فى بلاد العالم الاسلامى بأجمعه(٢٢). فنى تلك السنة خرجت الى الوجود أوبرا " ليلى والمجنون " للموسيقار الآذربيجانى " عسير حاجى بيلى " (بالروسية: حاجى بيكوف، ١٨٨٥—١٩٤٨) التى أحرزت نجاحاً منقطع النظير عند عرضها الأول برغم ان غالبية المغنين والعازفين لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا العمل. وكما صرح حاجى بيلى نفسه فأنه وضع الموسيقى التى تلائم نص الأوبرا الذى كتبه الشاعر فيظولى والتى تلائم الحركة المسرحية فى نفس الوقت. ويعود الفضل فى نجاح تلك الأوبرا لا الى ظروف اشتراك عدد من المغنين المحبوبين لدى الجمهور مثل " جبار كارياجدى " (١٨٦١—١٩٤٤) و " حسين ك. سارابسكى " (١٨٧٠—١٩٤٥) من الذين لعبوا الادوار الرئيسية وكان غناؤهم بطريقة الهاننذز، وانما الفضل فى ذلك النجاح يعود فى الدرجة الأولى الى ادائهم التمثيلى الذى صاحب الغناء. هذه الخطوة المتواضعة فى حد ذاتها فى تطوير أسلوب الأداء الغنائى كان لها فى جمهور المشاهدين الذين لم يسبق لهم مشاهدة مثل ذلك الأسلوب تأثيراً كفعل السحر. وفى الفترة من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٥ لحن حاجى بيلى خمس أوبرات أخرى هى بالترتيب: " شيخ سنان " (١٩٠٩) و " (١٩١٠ و " شاه عباس وخورشيد بانو " (١٩١١) و " اصلى وكريم " (١٩١٢) ثم " هارون وليلى " (١٩١٥). وفى هذه الأوبرات اتبع

(٢٢) ج. غاجييف، المذكور سابقاً، ص ٢٩٥.

حاجى بيلى نفس الأسلوب الذى اتبعه فى " ليلى والمجنون " تقريباً، وان كان قد حاول دائماً الاختصار فى الارتجالات الحرة فى الغناء التى كثرت فى " ليلى والمجنون " لصالح الاريات. فى ليلى والمجنون كثر هذا الأسلوب: يبدأ الموسيقيون بعزف مقام معين ثم يتبعهم المغنون بالغناء يرتجلون ألحاناً على نفس المقام. وبخلاف الأوبرات التى ذكرناها لحن حاجى بيلى عدداً من التمثيليات الغنائية أو الأوبريتات مثل " ارشين مال الان " التى تعتبر أكثر أعماله الموسيقية شعبية وانتشاراً. ولكن قمة أعماله ولا شك هى أوبرا "كور اوغلو" التى انتهى من تلحينها عام ١٩٣٦، وهى تختلف إختلافاً كبيراً عن كل أعماله التى ذكرناها لخلوها تماماً من الارتجالات الحرة حتى أنه يمكن اعتبارها من نوع الأوبرا " الدورشكومبونيرت "، التى لا تتوقف فيها الموسيقى عن العزف وتحتوى على اريات والحان مميزة ومجاميع (كورس) وبالية، أى أنها باختصار تحتوى على جميع عناصر " الجراند أوبرا ". اما الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩٣٦ فقد اشتغل فيها حاجى بيلى بهمه بوضع قواعد ونظريات للموسيقى القومية الآذربيجانية. ولقد استحق هذا العمل الرائد بالفعل ما بذل فيه من جهد، وافادة وعاد عليه بخبرة هائلة ظهرت آثارها جلية فى أعماله بعد ذلك. لم يستعمل حاجى بيلى الألحان الشعبية المعروفة فى موسيقاه الا نادراً، ومع ذلك فقد كان يعرف كيف يخلق لحناً طابعه آذربيجانى خالص ويتناوله حسب أصول الموسيقى الشعبية بمقدرة تامة حتى ان كثيراً من الاريات (أغانى الاوبرات) تبدو وكأنها ألحاناً شعبية. كان حاجى بيلى يحلم فى صباه بأن يضع فى يوم من الأيام أوبرا قومية آذربيجانية، ولقد تحقق ذلك الحلم بالفعل فى عام ١٩٣٦. فأوبرا "كور اغلو" تعنى بحق بالنسبة للآذربيجانيين ما تعنيه أوبرا " العروس المباعة " للموسيقى سميتانا بالنسبة للتشيكيين، أو أوبرا " الحياة للقياصرة " للموسيقى جلينكا بالنسبة للروس. ولقد واجه حاجى بيلى كثيراً من الصعوبات غير العادية التى نشأت من جراء سعيه الى وضع موسيقى آذربيجانية متعددة الأصوات مع المحافظة على الطابع الآذربيجانى الخاص. وكانت انجازاته فى ذلك المجال بحق عملاً جسوراً ورائداً.

والرائد الثانى للأوبرا الآذربيجانية هو بغير جدال الموسيقار " مسلم محمديف" (١٨٨٥–١٩٣٧) الذى كان قد التحق هو وحاجى بيلى بدراسة موسيقية فى جورجيا وبذل جهداً كبيراً من أجل الموسيقى الآذربيجانية. ومن بين مؤلفاته العديدة تعتبر أوبرا " شاه اسماعيل " (١٩١٦) ذات أهمية خاصة فى تاريخ الأوبرا الآذربيجانية(٢٣).

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٣٣.

ولقد عكف محمديف على اعادة كتابة هذه الأوبرا بعد ذلك ثلاث مرات: فى عام ١٩٢٠ وفى عام ١٩٢٣ ثم فى عام ١٩٣٠ الى ان اتخذت الهيئة الملائمة التى جعلتها تحافظ على مكانها بين برامج الأوبرا الآذربيجانية بنجاح كبير. ولقد سلك محمديف ذات الطريق الذى سلكه حاجى بيلى وان كان قد حقق نتائج تختلف. فالألحان الشعبية المعروفة يكثر وجودها فى موسيقاه(٢٤)، كما أنه عند المقارنة بحاجى بيلى نجده قد بكر عنه بالحد من استخدام الارتجالات الحرة لصالح الألحان الموضوعة، وهذا ما يجعل لهذه الأوبرا " شاه اسماعيل " تلك الأهمية الخاصة فى تاريخ الأوبرا الآذربيجانية(٢٥). اما موضوع الأوبرا فمقتبس من الدستان المحببة لدى الجمهور التى يؤديها الاشوجة مثل "كور اوغلو". وآخر أعمال محمديف هى أوبرا " نرجس " التى اتم تلحينها عام ١٩٣٥، وموضوعها يتناول أحداث تلك الفترة من الزمن وعرضت فى باكو عام ١٩٣٥ لأول مرة ثم فى موسكو عام ١٩٣٨ حيث لاقت إهتماماً ونجاحاً كبيرين (٢٦).

ومن الأوبرات الآذربيجانية الهامة الأخرى، أوبرا " شاخزينيم " للموسيقار " جليرز". وكان جليرز قد لحن هذه الأوبرات بتكليف من قوميسارية الشعب فى آذربيجان عام ١٩٢٣ ثم اعاد كتابتها عدة مرات حتى أخذت صورتها الحالية عام ١٩٣٤، واستخدم فيها جليرز كثيراً من الألحان الشعبية الآذربيجانية التى سمعها من المغنين والموسيقين الآذربيجانيين. وبرغم ما بذله جليرز من اهتمام وجهد، لم يستطيع ان يدرك جوهر الطابع الآذربيجانى ومواضع الجمال فى اللحن الشعبى الآذربيجانى، فجاء عمله للأسف غير موفق(٢٧).

ومن الأوبرات الآذربيجانية الأخرى أوبرا " سيفيل " للموسيقار " ف. اميروف " التى عرضت للمرة الأولى فى باكو عام ١٩٣٥، وموضوعها مقتبس من مسرحية بنفس الاسم للشاعر " جعفر جبارلى " ويدور حول مشاكل الزواج وموضوعات اجتماعية اخرى.

وبعد فترة العشرينات والثلاثينات التى زخرت بالانتاج فى ميدان الأوبرا، تلت فترة قحط وركود وقل اهتمام الملحنين بفن الأوبرا حتى ان طرحت هذه الظاهرة للبحث فى اجتماع رابطة الملحنين الآذربيجانيين الأخير عام ١٩٦٩. والمسببات الحقيقية لهذه الظاهرة غير معروفة. ولكن الأمور فى تلك الفترة سارت كما يلى: فى العشرينات ثارت مناقشات

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٣٨.
(٢٥) المرجع السابق، ص ١٤٣.
(٢٦) المرجع السابق، ص ١٤٩.
(٢٧) المرجع السابق، ص ١٧٠.

عنيفة بين أنصار الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية وبين أنصار الاوبرا الآذربيجانية القومية. ونادى بعض المتطرفين باسدال الستار على الأوبرا الآذربيجانية بكاملها ووضعها على ارفف التاريخ(٢٨). ومما يكشف عن ابعاد ذلك الخلاف الحاد بين وجهات النظر المختلفة، ذلك الجدل العنيف حول آلة "التار" وعما إذا كان ينبغى استخدامها فى اوركسترا الأوبرا الآذربيجانية أم لا. وكان المتطرفون يرون فى هذه الآلة الشعبية الآذربيجانية رمزاً للنظام الاجتماعى القديم الذى ينبغى تقويضه. وكتب الشاعر الآذربيجانى الراديكالى المعروف بميوله الروسية شعراً وضع كلمتى "تار" و"برولیتاریا" فى قافيته:

آن ان يسكت التار
كما شاء البروليتار(٢٩)

ولحسن الحظ باء تدبير أولئك المتعصبين بالفشل ولم تتحقق آمالهم، فقد وقفت إرادة الشعب بدافع من فطرته السليمة وحرصه على حضارته وقوميته بقوة فى وجه تلك المحاولات الحمقاء وأثبت أنصار الأوبرا الآذربيجانية أنهم أقوى من ذوى الاتجاهات الجديدة الذين كانوا على استعداد عند أى أشارة تصدر إليهم من موسكو ان يحيلوا حضارة أمة وتاريخها القومى بكامله الى زاوية النسيان.

الباليه

بالمقارنة بفن الأوبرا فان اهتمام الملحنين الأذربيجانيين بفن البالية جاء متأخراً نوعاً. فأول باليه آذربيجانى هو باليه "كيز قلعاسى" للموسيقار "افراسياب باد البيلى" الذى أتم تأليف موسيقاه عام ١٩٤٠(٣٠). وموضوع الباليه مأخوذ عن حكاية من الحكايات الشعبية تسمى "برج الفتاة". ومن الباليهات التى تتمتع بشهرة عالمية، باليه "السبع فتيات الجميلات" للموسيقار "كاراكاراييف" (مولود عام ١٩١٨) وموضوعه مأخوذ من حكاية خيالية للشاعر "نظامى". ومن مؤلفى الموسيقى الشباب، نذكر الموسيقار "عارف ملكوف" الذى وضع موسيقى باليه "اسطورة الحب" (١٩٦١) وموضوعها مأخوذ من

---

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٥٦.
(٢٩) "تاريخ الأدب الآذربيجانى السوفييتى"، باكو، ١٩٦٧، ص ٩٥.
(٣٠) ج. غاجييف السابق ذكره، ص ١٨٨.

قصيدة للشاعر التركى الشيوعى " ناظم حكمت " (١٩٠٢–١٩٦٣)، وهو الباليه الذى عرض فى بلاد كثيرة فى العالم بنجاح كبير.

الموسيقى السمفونيـة

أهمل مؤلفوا الموسيقى الآذربيجانيون فن الموسيقى السيمفونية زمناً طويلا. وكـان أول من أقدم على اقتحام هذا المجال هو الموسيقار "عساف زيناللى" (١٩٠٩–١٩٣٢) الذى ألفَ عدة مقطوعات للأوركسترا السيمفونى. ويعتبر عمله المسمى " فراجمنت " (شذرات) أول عمل موسيقى من نوع الموسيقى السيمفونيـة فى تاريخ الموسيقى الآذربيجانيـة عمومـاً. وهو عبارة عن مقتطفات مختارة من أعمال سابقة لـه كـان قد ألفها للمسرح، قام بجمعها وإعادة صياغتها للأوركسترا السيمفونى (فى شكـل موسيقى الـكونسير) عام ١٩٣١(٣١). وحينما جاء الجيل الثانى من مؤلفى الآذربيجانية فى الثلاثينات، كتبت بعض أعمال سيمفونية مثل " سويت أذربيجانى" للموسيقار "كـاراكـاراييف"، وعمل آخر يحمل نفس الأسم للموسيقار " جودت حاجييف". وفى الأربعينات زاد عدد مؤلفى الموسيقى المهتمين بايجاد موسيقى سيمفونية أذربيجانية قومية ، نذكر منهم الى جانب من سبق ذكرهما ، الموسيقار " فكرت امير وف" (مولود عام ١٩٢٢) والموسيقار " سلطان حاجى بيلى " (مولود عام ١٩١٩) والموسيقار " نيازى زاده " (مولود عام ١٩١٢) والذى يعتبر أشهر قادة الأوركسترا فى آذربيجان.

ولـكن الموسيقى السيمفونية الآذربيجانية لم تصادف نجاحاً حقيقياً الا ابتداءاً من الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية. ومن الأعمال السيمفونية التى يجدر ذكرها " السيمفونية الثانية "، والقصيد السيمفونى " ليلى والمجنون " للموسيقار "كـاراكـاراييف"، والسيمفونية الثانية والسيمفونية الثالثة للموسيقار " جودت حاجييف"، و " الـكونشرتو المزدوج" للفيولينه والبيانو والاوركستر و " السيمفونية للوتريات – الى ذكرى نظامى " للموسيقار " فكرت امير وف"، والسيمفونية "كـارافان " (القافلـة) و " السيمفونية الثانية " للموسيقار " سليمان حاجى بيلى ". ويثير الموسيقار كـاراييف انتباهاً خاصاً بعملين من أعماله، هما سيمفونية من سيمفونياته والـكونشرتو الأول للفيولينة والأوركستر. إذ أنه كـان قد بدأ منذ عام ١٩٦٤

(٣١) المرجع السابق، ص ٢٠٠، ٢٧٨.

فى استخدام " الاثنى عشر تون " وان كان مع الكثير من الحيطة والتهيب. وكاراييف بحق يمثل بالنسبة للآذربيجانيين ما يمثله شوستاكوفيتش بالنسبة للروس، ولغته الموسيقية يحتويها احساس دفين ينبعث منه عبير بارد.

ويمكن اعتبار جودت حاجييف ندا لكاراييف فى درايته وتمكنه بمختلف فنون التأليف الموسيقى. وهو يعتبر بحق فارساً لا يبارى فى براعته فى استغلال الألحان الشعبية الآذربيجانية. ويتمتع فكرت اميروف باسم طيب على الأخصص بسبب " المقامات السيمفونية " التى عزفت فى بلاد كثيرة ولاقت نجاحاً طيباً، وهى أعمال سيمفونية أصيلة فى نوعها وتعتبر أعمال رائدة. ولذلك يحظى هذا المؤلف الموسيقى بكثير من الاهتمام والاستحسان لا داخل الاتحاد السوفييتى فحسب، وانما فى بلاد كثيرة أخرى فى العالم وخصوصاً دول الشرق التى توجه إهتماماً بهذا الأسلوب من الكتابة للأوركستر السيمفونى.

التعليم الموسيقى

فى بداية القرن العشرين، انشأ " ا. ن. ارمولوفا " مدرسة خاصة للموسيقى فى باكو التحق بها فى أول سنة دراسية ١٨٣ تلميذ لم يكن بينهم آذربيجانى واحد قط(٣٢) فالمدرسة كان قد انشأها روس من أجل الروس. ولم يلتحق بها تلاميذ آذربيجانيون قبل عام ١٩٠٩/١٩٠٨ . وفى عام ١٩١٢ بلغ عدد الآذربيجانيين فى تلك المدرسة سبعة. ولا يعرف أحداً للأسف العدد الاجمالى لتلاميذ المدرسة فى تلك الفترة. وفى عام ١٩١٦ حولت المدرسة الى مدرسة ثانوية موسيقية، وعين " ى. ا. ريسينسكى " مديراً لها بدلاً من مديرها السابق " س. ر. كرينجولد "(٣٣). والمصادر السوفييتية تتكتم حقيقة ان كونسرفاتوار باكو انشىء أصلا عام ١٩١٩، أى فى وقت كانت آذربيجان فيه دولة مستقلة(٣٤)، وبعد استيلاء الجيش الأحمر على آذربيجان عام ١٩٢٠ حول ذلك المعهد الى كونسرفاتوار(٣٥) وهو يضم بخلاف المعهد المركزى فى باكو ستة معاهد فرعية أخرى فى عواصم الأقاليم. وفيما بعد قسمت الدراسة فى هذا الكونسرفاتوار الى ثلاث مراحل: المدرسة الابتدائية

---

(٣٢) المرجع السابق، ص ٢٧٨.
(٣٣) المرجع السابق، ص ٢٧٩.
(٣٤) درجى، رقم ٢، ميونيخ عام ١٩٥٥، ص ٩٠.
(٣٥) ج. غاجييف السابق ذكره، ص ٢٨٠.

والمدرسة الفنية والمدرسة العليا. وفى بداية عام ١٩٢١ الغى الكونسرفاتوار الأهلى ثم انشىء فى أغسطس (آب) من نفس السنة الكونسرفاتوار الحكومى الذى لا يزال قائماً لليوم. وهذا الكونسرفاتوار لم يلتحق به من الآذربيجانيين غير عدد قليل جداً، الى ان انشىء قسم ملحق به سمى "القسم الآذربيجانى" تولى ادارته الموسيقار الآذربيجانى "عسير حاجى بيلى"، حيث كانت تدرس الآلات الموسيقية الآذربيجانية. ففى عام ١٩٢٢ كان عدد الطلبة الآذربيجانيين فى الكونسرفاتوار لا يزيد عن ١٧ فقط من المجموع وقدره ٣٦٦ طالباً فى الكونسرفاتوار(٣٦). ومن ثم أرغم هذا الوضع غير الملائم قوميسرية الشعب للتعليم ان تنشىء مدرسة موسيقية تركية حولت فيما بعد الى مدرسة فنية موسيقية، واسندت ادارتها الى ع. حاجى بيلى. وفى عام ١٩٢٦ ضمت هذه المدرسة الى الكونسرفاتوار الحكومى وأصبح حاجى بيلى نائباً لمدير الكونسرفاتوار(٣٧). وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٣٩ حين عين مديراً للكونسرفاتوار، وكان بذلك أول آذربيجانى يتولى هذا المنصب. ولا عجب فى ذلك، فقد حاز حاجى بيلى على ثقه وتقدير المسئولين فى الكرملين بأوبراه "كور اوغلو"، وأصبح منذ ذلك الوقت الموجه للتعليم الموسيقى فى آذربيجان. ونظراً لما قام به حاجى بيلى من خدمات جليلة وما أنجزه من أعمال من أجل الموسيقى الآذربيجانية، فقد سمى كونسرفاتوار باكو باسمه بعد وفاته عام ١٩٤٨. وخلفه فى ادارة الكونسرفاتوار الموسيقار كاراكاراييف(٣٨). وفى عام ١٩٤٩/١٩٥٠ كان عدد الآذربيجانيين من طلبة الكونسرفاتور قد بلغ ٤٠٪(٣٩).

وبجانب الكونسرفاتوار وجد ما سمى "كلية العمال الموسيقية" التى أنشئت عام ١٩٣٣، ولكنها الغيت عام ١٩٣٦. وفى عام ١٩٤٠ انشئت مدرسة ثانوية موسيقية حكومية ضمت ٥٢٥ تلميذاً، منهم ٣١٧ آذربيجانياً، أى ما يعادل ٦٠٪(٤٠). ويذكر الكاتب الآذربيجانى "صفر عليف" بفخر كبير ان "م. اوروجيف"، سوليست الاوبوا فى اوركسترا البولشوى و "ب. ا. صادقوف"، سوليست الاوبوا فى اوركسترا لينجراد الفيلهارمونى، هما من آذربيجان ومن خريجى هذه المدرسة(٤١). وتخرج فى هذه المدرسة

---

(٣٦) المرجع السابق، ص ٢٨١.
(٣٧) نفس المرجع السابق.
(٣٨) المرجع السابق، ٢٨٧.
(٣٩) نفس المرجع السابق.
(٤٠) المرجع السابق، ص ٢٩٠.
(٤١) نفس المرجع السابق.

" م. زينالوف" (ترومبون) و " ا. باشاييف" (كورنو)، وهما الآن سوليست فى اوركستر البولشوى. ولكن مما يؤسف له ان الكاتب " صفر عليف" لم يذكر عدد طلبه كونسرفاتوار حاجى بيلى ولا عدد الطلبة الآذربيجانيين فيه آنذاك، مما يحيط هذا الأمر بشىء من الغموض. وأغلب الظن ان عدد الآذربيجانيين فى الكونسرفاتوار لا يزال أقل من غيرهم من الأجناس الأخرى، وهو ما يكشف عن الوضع غير الملائم بالنسبة للطلبة الآذربيجانيين.

المسرح

المسرح بالمعنى الأوروبى لم يعرف فى آذربيجان قبل النصف الأخير من القرن الثامن عشر. ولكن هذا على أى حال لا يعنى أنه لم يوجد أى نوع من النشاط التمثيلى الشبيه بالمسرح. فقد عرفت آذربيجان ما يشبه مسرح " هانز فورشت " الألمانى أو " هارلاكان " الفرنسى، وهى ما كانت تسمى فى آذربيجان " قوس قوسى " و "كلام اراسى " و " كاراوفيلى " وغيرهم والتى كان هدفها تسلية الناس. وكانت تقدم على تلك المسارح تمثيليات مثل " حليق الذقن وحرمه " أو " الأخ الكسلان " التى كانت تحظى باقبال كبير من الجماهير. والى جوار هذا النوع من التمثيليات وجد مسرح دينى، وبالأخص فى القرن السادس عشر. وكانت الموضوعات التى يتناولها دينية فقط. ثم بدأ المسرح الآذربيجانى عهداً جديداً منذ ظهور الكوميديات الستة التى قدمها " ميرزا فتالى اخوند زاده " (بالروسية: اخوندوف، ١٨١٢–١٨٧٨). وقد قدمت هذه الكوميديات كذلك فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا باللغة الروسية حيث ان الأذربيجانيين لم يكن يتوفر لهم المقومات والامكانيات اللازمة ليكون لهم مسرحهم الخاص. وفى بادىء الأمر نشرت هذه المسرحيات باللغة الروسية، ولو ان اخوندزاده كان قد كتبها باللغة التركية الآذرية عام ١٨٥٣ فى هيئة كتاب عن طريق مجلة "كافكار" (القوقاز) التى تصدر فى تفليس. ثم مثلت هذه المسرحيات باللغة الروسية فى تفليس وبعدها فى سان بطرسبورج ونالت كثيراً من النجاح(٤٢). هذه المسرحيات التى ظهرت فيما بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٥ كان عليها ان تنتظر طويلا حتى ان تقدم للجمهور بلغتها الأصلية. إذ قدمت أول مسرحية باللغة الآذربيجانية، وهى

(٤٢) هـ. و. براند، "الحياة الشعبية الآذربيجانية والاتجاهات الحديثة فى تمثيليات ميرزا على اخوندزاده"، فيز بادن عام ١٩٥٨، ص ١٥.

مسرحية " قصة وزير الخان صراب " فى عام ١٨٧٣، وكان ذلك فى حياة مؤلفها، فى باكو، ومثلها طلبة المدارس الثانوية وأحدثت دوياً هائلا فى أوساط الناس(٤٣). وفى نفس العام قدمت نفس مجموعة الشباب رواية " حاجى كارا "، التى تعتبر بلا شك أحسن كوميديات اخوندزاده، تحت رعاية " نجف بك وزيروف" (١٨٥٤–١٩٢٦) الذى أدى دوراً جليلا فى ترقية وتطور المسرح الآذربيجانى(٤٤).

وكانت مهمة النقد الاجتماعى البناء من الواجبات الأولى التى انيط بها الى المسرح الآذربيجانى. وكان يحارب التخلف والخرافات والرياء وما الى ذلك. وبعد تقديم روايات اخوندوف بنجاح فى باكو، قدمت فى مدن أخرى فى آذربيجان. وكانت للجهود التى بذلها فى ذلك الحين نجف بك وزيروف وحسن بك زردابى وعبد الرحيم بك اكفاردوف أبلغ النفع فى دفع عجلة تطور المسرح الآذربيجانى. وقرب نهاية القرن التاسع عشر ازداد عدد المشتغلين بالتمثيل والاخراج المسرحى وكانت لهم جهود طيبة فى دعم المسرح وتثبيت أقدامه. وكان من ابرزهم فى هذا الشأن " جانكير زينالوف" (١٨٦٥–١٩١٨)، وكان ممثلاً ومخرجاً عبقرياً. كان زينالوف يتقن من اللغات بجوار الآذربيجانية الروسية والفارسية والعربية. ويعتبر هو بحق واضع أسس وتقاليد المسرح الآذربيجانى. وتتبلور أهمية ما قدمه زينالوف من فن، أنه وقف بصلابة وثبات ضد العقلية المتخلفة التى كانت ترى فى المسرح انه ليس الا وسيلة للهو والتسلية الرخيصة. وفى نفس طريق زينالوف سار " حسين عربلينسكى" (١٨٨١–١٩١٩). وكان زينالوف – مثله كمثل زملائه – لم ينل أى قسط من الدراسة لفنون المسرح والتمثيل. ولكنه اجتهد بكد ودأب لكى يتعلم بنفسه ويدرس هذا الفن(٤٥).

بدأت أول فرقة آذربيجانية للتمثيل تتكون فى عام ١٩٠٥(٤٦). وبالتدريج أخذت تظهر فرق وجماعات مختلفة للتمثيل وكانت كلها تسعى فى طريق تطوير وتدعيم مسرح قومى آذربيجانى. ومنها على سبيل المثال " جمعية المسرح البلخانية " (١٩٠٦)، وجمعية " نجات " (١٩٠٦)(٤٧). وكان لكل منها فريق تمثيل خاص. وقبل هذه الجمعيات كانت هناك مثلاً " جمعية الممثلين المسلمين". وفى عام ١٩١٠ أنشئت جمعية " صفا "

---

(٤٣) ج. جعفروف، المسرح الآذربيجانى، موسكو عام ١٩٥١، ص ٢٩.
(٤٤) نفس المرجع السابق.
(٤٥) المرجع السابق، ص ٣٩.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٥٥.
(٤٧) المرجع السابق، ٦٨.

التى تولى زينالوف ادارتها من عام ١٩١٤. وقد قامت هذه الجمعية بتنظيم رحلات فنية عديدة لفرق التمثيل الآذربيجانية فى كثير من مدن القوقاز الأخرى وفى تركستان وايران واستراخان وقازان(٤٨). ويلاحظ هنا ان تأثير المسرح الآذربيجانى فى الحياة المسرحية فى تركستان بنوع خاص كان تأثيراً قوياً لا يزال واضحاً حتى اليوم.

ويعتبر "حسين عربلينسكى" (١٨٨١–١٩١٩) آخر الرواد الأوائل فى المسرح الآذربيجانى الذين كافحوا كفاحاً فردياً رائعاً وعلموا أنفسهم بأنفسهم ومهدوا الطريق امام المسرح الآذربيجانى من بعدهم. وكانت وفاة حسين عربلينسكى لغزاً لم تفك رموزه الى اليوم ففى عام ١٩١٩ أطلق أحد أقاربه الرصاص عليه فأرداه قتيلا. وكان ذلك خسارة جسيمة للمسرح الآذربيجانى. والدوافع الحقيقية لهذه الجريمة لا تزال مجهولة للآن، وأن كانت أبواق الدعاية الشيوعية تزعم ان الحركة القومية الآذربيجانية — تعنى حكومة آذربيجان الوطنية التى انتخبت انتخاباً حراً فى ذلك الوقت — هى المسئولة عن الجريمة.

وفى عام ١٩١٧ كانت مدينة باكو تضم دارين للمسرح تعملان بصورة شبه منتظمة. وهما "مسرح تاغييف" و "مسرح مايلوف"، وكانت الفرق التمثيلية الآذربيجانية كثيراً ما تقدم رواياتها فى هذين المسرحين. كما ان فرقة "اخوان حاجى بيلى" قدمت عديداً من الأوبرات والأوبريتات(٤٩). وفى عام ١٩١٩ حول مسرح مايلوفسكى بقرار من الحكومة الى مسرح حكومى(٥٠). وعلقت مجلة "تاريخ المسرح الدرامى السوفييتى" التى تصدر فى موسكو على هذا الحدث بهذا الأسلوب الخاص:

> ان الهدف من إفتتاح هذا المسرح هو "تمجيد" حكومة الشعب التى تسعى لحماية الفنون القومية(٥١).

وماذا تعنيه عبارة "تمجيد" الحكومة سوى ان السلطة الشيوعية الأجنبية فى آذربيجان قد هبطت بالمسرح الى مستوى أدوات الدعاية السياسية. فقبل ثورة اكتوبر (تشرين الأول) كان المسرح الآذربيجانى لا يقدم تقريباً الا روايات للكتاب الآذربيجانيين مثل م. ف. اخوندزاده، ون. وج. وزيروف، وا. اكفردوف، وج. محمد قولازاده وغيرهم. وهناك تطور ملحوظ طرأ على الحياة المسرحية يمكن التعرف عليه بوضوح من الاخراج

---

(٤٨) المرجع السابق، ص ٧٣.
(٤٩) تاريخ المسرح الدراسى السوفييتى، اصدار: أكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو عام ١٩٦٦، الجزء ١، ص ٢٧٠.
(٥٠) نفس المرجع السابق.
(٥١) نفس المرجع السابق.

المسرحى لروايات "آية محمد شاه كاجار" لاكنردوف (١٩٠٧) ورواية "الموتى" لجليل محمد قولازاده (١٩١٦).

وفى عام ١٩٢٢ انشئت فرقة "عزيز بيكوف" المسرحية الموجودة للآن. وانشئت فى عام ١٩٢٤ فرقة أوبرا "م.ف. اخوندزاده". وكانت الأهداف الدعائية الخالصة هى المقصودة من وراء المسرح الروسى الذى انشىء عام ١٩٢٠ والمسرح الآذربيجانى الذى انشىء عام ١٩٢١ فى باكو. وكان العمل الأساسى لهذه المسارح هو تقديم روايات ترمى الى الدعاية للشيوعية. وفى عام ١٩٢٧ حول ذلك المسرح فى باكو الى مسرح عمالى تركى (يقدم رواياته باللغة التركية الآذرية). وفى عام ١٩٢٨ انشىء مسرح الشباب (الروسى). ثم فى عام ١٩٣٠ انشىء مسرح الشباب (الآذربيجانى). وبالاضافة الى ذلك قام المسرح الكوميدى الموسيقى فى باكو عام ١٩٣٨، وانشىء فى دار الأوبرا والباليه فى باكو قسم آذربيجان الى جوار الروسى. اما المسرحين التمثيليين فى باكو، فقد خصص أحدهما لفرقة "عزيز بيكوف" بالآذربيجانية والآخر لفرقة "صامد فورجون" بالروسية.

ويعتبر يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ من الأيام الهامة فى تاريخ المسرح الآذربيجانى. إذ شهدت خشبة المسرح لأول مرة اخراج وتقديم مسرحية "ابليس" للكاتب الآذربيجانى "حسين جويد". ولقد أحدث تقديم هذه المسرحية صدى هائلاً فى أوساط المسرح الآذربيجانى وجمهوره. وقام بدور ابليس الممثل القدير "عباس ميرزا شريف زاده" وكان دوره شبيهاً بدور "مفيستوفوليس" فى "فاوست" لجوته(٥٢). وبعد ذلك بعام، أى فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٢١ قدمت تراجيديه "شيخ سنان" لنفس الشاعر (حسين جويد). وكان قد كتبها قبل ذلك فى عام ١٩١٢—١٩١٤. ولأول مرة فى تاريخ المسرح الآذربيجانى تقدم رواية هملت بترجمة "ا. اكفرديف"، ونالت فى الحقيقة نجاحاً عظيماً رغم انها كانت أبعد ما تكون عن هملت الأصلية لشكسبير. فان نصوص وحوارات المسرحية — وان كانت قد ترجمت ترجمة صادقة — الا ان مكان احداث الرواية لم يكن الدانمارك وانما فى بلد ما فى الشرق، وأعطيت اوفيليا اسماً شرقياً(٥٣).

وهناك نقطة تحول هامة فى تاريخ المسرح الآذربيجانى يشير إليها اخراج روايتى "عروس النار" و "سيفيل" للمخرج المسرحى الشاب "جعفر جبارلى" (١٨٩٩ إلى ١٩٣٤) فى عام ١٩٢٨، وكانتا من أشد الأعمال المسرحية جاذبية بين برامج المسرح

---

(٥٢) المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٥٣) تاريخ المسرح الدرامى السوفييتى المذكور سابقاً، الجزء ٢، موسكو عام ١٩٦٦، ص ٣٠١.

فى ذلك الوقت(٥٤). وفى عام ١٩٣٨ قدمت لأول مرة الرواية التاريخية " وجيف " للكاتب " صمد فرجون "، وكانت حدثاً فذاً فى تاريخ الحركة المسرحية الآذربيجانية فى ذلك الوقت. وتتناول هذه الرواية حياة الشاعر الآذربيجانى " وجيف " (١٧١٧–١٧٩٧). واستمر تقديمها ٧٥٠ ليلة، ولا زالت الى اليوم محتفظة بجاذبيتها(٥٥)، فلغتها السليمة وأشعارها الخلابة ومضمونها الوطنى كانت من العوامل الرئيسية فى ان صارت هذه المسرحية رمزاً قومياً آذربيجانياً، على النقيض من الأعمال الجوفاء التى تقدمها الواقعية الاشتراكية.

العمارة

من بين الآثار الآذربيجانية الكثيرة التى تعطى المرء صورة — وان كانت باهته — عن العمارة فى الماضى، أثر شهير قائم عند باكو ويطلق عليه اسم " برج الفتاة ". بنى هذا البرج فى القرن الثانى عشر الميلادى، وهناك اعتقاد بأنه كان جزءاً من حصن المدينة(٥٦). وهناك اسطورة تروى عن هذا البرج، مضمونها ان فتاة اسما " جولياناك " ساقها قدرها لأن تتزوج أباها الخان الذى لم يكن يعرف ان الفتاة ابنته. وطلبت جولياناك من عريسها ان يبنى لها برجاً قبل ان تزف إليه. وبنى البرج كطلبها. فما كان منها عندما صعدت الى أعلاه الا ان ألقت بنفسها من فوقه الى الماء. ويقع هذا البرج اليوم بعيداً نوعاً ما عن بحر قزوين، ولكنه كان ولا بد يقع على ساحل البحر مباشرة فى ذلك الوقت.

ومن أهم ما يلفت الأنظار بين آثار القرن الثالث عشر، " أحجار بيلوف " الموجودة عند خليج باكو والتى تكون جزءاً من جدران بناها المهندس " زين الدين بن ابى رشيد الشروانى "(٥٧). وهناك اعتقاد بأن هذا المكان كان فى الماضى محلة تنزل فيها قوافل التجارة المارة بباكو، إذ يوجد بين ما بقى من نقوش على هذه الجدران صورة جمل(٥٨)، ومن المعروف ان الابل كانت فى القرون الوسطى وسيلة النقل والسفر الأساسية عبر الصحارى

---

(٥٤) المرجع السابق، الجزء ٣، موسكو عام ١٩٦٧، ص ٣١٨.
(٥٥) المرجع السابق، الجزء ٤، موسكو عام ١٩٦٨، ص ٣١٥.
(٥٦) آذربيجان السوفييتية، اصدار: أكاديمية العلوم الآذربيجانية السوفييتية، المعهد الجغرافى، باكو عام ١٩٥٨، ص ٤٠٢.
(٥٧) نفس المرجع السابق.
(٥٨) ل. بريتانيتشكى، باكو–موسكو عام ١٩٦٥، ص ٤٦.

والقفار، ومن المعروف أيضاً ان آذربيجان، وبالأخص مدينتى باكو وعنجة، كانت مركزاً هاماً للتجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. وكانت محلات القوافل هذه تلعب دوراً فى تلك العصور كالدور الذى تلعبه الفنادق اليوم فى السياحة.

ومن أروع أمثلة فن العمارة فى القرن الثانى عشر أيضاً، ضريح "مؤمنه حتون" الموجود عند "ناخجيوان" ولا تزال بعض أجزاؤه قائمة للآن. وكان قد بناه المهندس "عجمى بن أبى بكير". وهذا الضريح الذى تهدم جزء منه، يكشف عن براعة فى التصميم وذوق هندسى راق لذلك البناء.

اما موضع الفخر لفن العمارة الآذربيجانية فى الماضى فهو ولا شك "قصر شيروان شاه" فى باكو. بنى هذا القصر فى القرن الخامس عشر وهو يضم عدة أجنحة. "ديوان خانة" وبه مسجد (١٤٤٢)، ثم ضريح "شيروان شاه" وكذلك ضريح "السيد يحيى الباكوفى"(١٥٨٥). ومن المعتقد ان هذا القصر لم يصمم بناؤه بالحالة التى هو عليها الآن. فقد بنيت أجنحته وملحقاته واحداً تلو الآخر. ولكن تمت هذه العملية بطريقة تحفظ الانسجام فى التصميم والبناء بين كل أجزائه. وأهم ما يميز القصر تصميمه الداخلى وزخارفه التى تعد بحق نموذجاً لفن العمارة والزخرفة فى ذلك العصر.

ومن أجمل الأمثلة لفن العمارة فى القرن الرابع عشر، "حصن مردخان" بجوار باكو. وهذا الحصن يثير الاعجاب بهندسته التى تنطق بحسن الذوق وروعة التصميم والمهارة فى اختيار واستخدام مواد البناء(٥٩).

ثم مرت بفن العمارة الآذربيجانية مرحلة ركود امتدت بطول القرن الثامن عشر(٦٠). إذ كان من أثر غزو الروس لآذربيجان ان تعطلت مشاريع البناء ثم اهملت تماماً. ومن أمثلة عمائر هذا القرن "قصر الخان شكوانى" عند بلده "نها"(٦١).

ثم بدأت عناصر من العمارة الأوروبية تغزو فن العمارة الآذربيجانية ابتداء من القرن التاسع عشر وخصوصاً فى مبانى مدينة باكو التى أصبحت مركزاً عالمياً بعد اكتشاف آبار النفط والبدء فى استغلالها. وفى تلك الحقبة امتزجت مبانى باكو بطرز مختلفة من فرنسا وموريتانيا وفينيسيا. ومن أمثلة ذلك مبنى "دار التوثيق" فى باكو التى بنيت على الطراز القوطى الفرنسى(٦٢)، ثم دار "الفيلهارمونى" فى باكو التى تحمل زخارفه طابعاً

---

(٥٩) المرجع السابق، ص ٥٥.
(٦٠) تاريخ المسرح . . .، السابق ذكره، الجزء ٤، موسكو عام ١٩٦٨، ص ٤٠٦.
(٦١) نفس المرجع السابق.
(٦٢) ل. بريتانيتشكى السابق ذكره، ص ١٦٤.

موريتانيا، نعم المبنى الرئيسى لأكاديمية العلوم بجمهورية آذربيجان الاشتراكية السوفييتية الذى يتميز بطراز قوطى فينيسيانى(٦٣). وتكشف هذه الأمثلة وغيرها عن فوضى الطراز التى دخلت الى العمارة الآذربيجانية فى القرن التاسع عشر.

وفى العصر السوفييتى تدهورت العمارة الآذربيجانية أكثر مما كانت عليه فى القرن التاسع عشر. وأول شىء كان الطراز الستالينى الذى عم فى كل أنحاء الاتحاد السوفييتى، والذى عرف باسم "عمارة الحلوانى"، وكان اتباعه الزامياً. وبعد وفاة ستالين أخذ المعماريون الآذربيجانيون فى التخلص من اغلال ذلك الطراز الستالينى والتحرر من تأثيره الذى أفسد ذوقهم وأعمى عيونهم. وأكبر دليل على هذا الأمر، ذلك المقهى فى باكو المعروف باسم "زمتشوزينا" (محاره اللؤلؤ)، فقد صمم هذا المبنى فى هيئة المحاره ويبدو متأصلا ورشيقاً مما جعله مدعاة لفخر أهل باكو.

الحرف الفنية والتصوير والنحت

تتمتع صناعة السجاد الآذربيجانية بشهرة عالمية قديمة. وهى لا زالت حتى اليوم تحظى بكثير من الاهتمام والعناية. ومن الأسماء التى اكتسبت كثيراً من التقدير فى هذا الميدان فى العصر السوفييتى، "لطيف كريموف" (مولود عام ١٩٠٦) الذى صمم وصنع أنواعاً من السجاد لأغراض مختلفة. كما أنه هو الذى صمم الزخارف لمتحف نظامى (١٩٣٩—١٩٤٠). وهو الذى صمم السجادة التى صنعت بمناسبة الاحتفال بمرور ٨٠٠ عام على انشاء مدينة موسكو (١٩٤٧)(٦٤).

ان حب الزخرفة من الصفات اللازمة للآذربيجانيين، مثلهم فى ذلك مثل جميع شعوب الشرق الأخرى. ولذلك يلقى فن الزخرفة عناية خاصة من المسئولين فى الاتحاد السوفييتى.

ازدهر فن الرسم فى مدينة تبريز فى القرن الرابع عشر. وفى القرن السادس عشر أنتج الرسامون الآذربيجانيون الذين عملوا فى بلاط سلاطين الصفويين أعمالا رائعة احتلت مكاناً بارزاً فى تاريخ هذا الفن فى آذربيجان. وفى ذلك الوقت وجدت فى تبريز مدرسة

---

(٦٣) المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٦٤) تاريخ المسرح . . .، السابق ذكره، الجزء ٤، موسكو عام ١٩٦٨، ص ٤٥٠.

لتعليم الرسم والنقش الدقيق أنشأها المعلم " سلطان محمد التبريزى" وابنه " ميرزا على ". ولكن أول رسام بالمفهوم الأوروبى لهذه الكلمة هو ولا شك" ميرزا قاسم اريفانى" (١٨٢٥–١٨٧٩) . ومن أهم أعماله لوحة " صورة شاب " وأخرى " صورة إمرأة ". ثم بدأ فن الرسم فى أوائل القرن العشرين – كما حدث فى الأدب والمسرح – يهتم بموضوعات النقد الاجتماعى. ومن أهم الرسامين فى هذا الميدان " عظيم عظيمزاده " (١٨٨٠–١٩٤٣)، الذى اشتهر برسومه الساخرة. ولقد اشتغل عظيمزاده من عام ١٩٠٦ حتى عام ١٩١٩ كرسام لمجلة " ملة ناصر الدين ". وفيها انتج ما يزيد عن الف رسم كانت تدور حول التمسك بقيم واخلاقيات الاسلام(٦٥). وله رسوم توضيحية رسمها لقصائد للشاعر "م.ا. صابر" (٨٦٢–١٩١١) تعتبر من أعماله القيمة أيضاً.

ومن الرسامين الذين ظهروا بعد عظيمزاده، الرسام " ت. تاغييف "، وله لوحة بالفحم "كورأغلو" (١٩٤٦) ولوحة زيتية " باكو" (١٩٤٦). ثم الرسام "ب. ميرزا زاده" ولوحته " المايسترو نيازى" (١٩٥١). ثم أخيراً الرسام " طاهر صلاحوف" ومن أهم لوحاته " عامل الصيانة " و " الموسيقار كارا كاراييف " و " شاطىء بحر قزوين "، التى فازت جميعها بجائزة الدولة فى الاتحاد السوفييتى للرسم فى عام ١٩٦٨(٦٦).

ولم يظهر فنانون آذربيجانيون فى فن النحت الا بعد الثورة البلشفية فى اكتوبر (تشرين الأول). ومنهم " ف. عبد الرحمنوف " الذى أنتج تمثال " نظامى" فى باكو وكيروفاباد. ويوجد فى متحف نظامى تماثيل لستة من شعراء آذربيجان، نحت أغلبها فنانون غير آذربيجانيون.

ومثل جميع الفنون والآداب فى الاتحاد السوفييتى، يلتزم النحت والرسم باتجاه الواقعية الاشتراكية. وفى الآونة الأخيرة ظهرت عدة محاولات خصوصاً فى مجال الجرافيك للتحرر من قيود الواقعية الاشتراكية.

---

(٦٥) بولشايا سوفيستكايا انسيكلوبيديا، الجزء ١، موسكو عام ١٩٤٩، ص ٤٨٩ ف.
(٦٦) انجيسنيت وأدبيات، رقم ٤٦، باكو، نوفبر (تشرين الثانى) ١٩٦٨، ص ٦.

[الجزء الثانى]

القـوقاز الشماليـة

العمـارة

القوقاز الشمالية يقطنها شعوب عديدة تتحدث بلغات شتى. ومع هذا فان أكثرية هـذه الشعوب اتسمت مدنيتها أساساً بطابع واحد هو طابع الحضارة الاسلامية، وخصوصاً فى ميدان فنون العمارة والزخرفة. فجميع المساجد والجوامع فى القوقاز الشمالية تحمل نفس انماط وزخارف مثيلتها فى بلاد الشرق الأوسط. ويدلل على ذلك تدليلا واضحاً ما بقى من آثار واطلال المساجد برغم انها تعطى انطباعاً شاحباً عن العمارة فى العصور السابقة.

يعد مسجد قرية "قلعة قريش" فى داغستان نموذجاً رائعاً لفن الزخرفة الداخلية فى العصور الوسطى. إذ ان تصميمه الداخلى وزخارفه تنطق بجمال نادر أخاذ وخاصة محرابة المزين بزخارف ساحرة لها شكـل الجدائل(١). ويقول أهل البلاد ان الخامات المستخدمة فى تنفيذ الزخرفة الداخلية لهذا المسجد هى نوع من الأسمنت وحجر الطرابيش(٢). ثم اتضح مما توصل إليه الباحثون المختلفون ان هذه الخامات هى الأخشاب والأحجار والصلصال ثم المصيص. وهناك ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى ان هذه القطعة الفنية النادرة، وهى محراب مسجد "قلعة قريش"، لا يرى لها مثيل فى القوقاز الشمالية بأجمعها. ويبدو ان النسيان كـان قد طواها وأخفاها تحت ظلامه فحماها من عبث الأيدى فبقيت لـكى نراها اليوم(٣). كما ان هذه الحليات المصنوعة من المصيص الموجودة فى داغستان تعتبر حالة فريدة فى فن الزخرفة فى القوقاز الشمالية بوجه عام. فالخامات المستخدمة فى تنفيذ هذه الحليات بالذات متوفرة فى تركستان وفى جنوبى آذربيجان(٤). وحتى الآن تم اكتشاف آثار ثلاثة مساجد استخدم فيها هذا النوع من الحليات، وأقدمها هو مسجد قرية "قره قوره". ويحكى

---

(١) "اوتسينيه زابيسكى" (الأبحاث العلمية)، الجزء ١٤، مخاتشكـالا، ١٩٦٤–١٩٦٥، ص ٢٠٦، الصادرة عن: الشعبة الداغستانية للمعهد التاريخى السوفييتى.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٠٨.

عن هذا المسجد أنه أنشىء فى القرن العاشر الميلادى (أى الثالث الهجرى) وعلى وجه التحديد فى عام ٩١٣ الميلادى، وعرف حينذاك " بمسجد ابى مسلم "(٥). وبقايا حليات المصيص فى هذا الجامع لها أهمية خاصة وتمتاز بأنها تتشكل من دوائر ومثلثات يرى فيها المرء كذلك انماطاً مشتقة من أشكال النباتات. والجامع بداخله ستة أعمدة تحمل سقفه. والجزء الأسفل من العمود مركب عليه حليات من ذلك النوع من المصيص تشمل على ٢٤ تكوين زخرفى لها زوايا قائمة. وتبين ان الأجزاء الدائرية بهذه الأعمدة قد تم طلاؤها بعد ذلك فى القرن السابع عشر بالألوان المائية. ولكن مما يؤسف له ان المحراب المصيص الأصلى لهذا الجامع لم يبق، ووضع فى مكانه محراب مصنوع من الخشب . ويوضح ما بقى من حليات المصيص بين آثار هذا الجامع انها الصقت على الحجر مباشرة فى طبقات عديدة فوق بعضها(٦). وهى تحتوى على عناصر الجبس والالباستر. وفى أعلى كل من التكوينات الزخرفية الأربعة والعشرين الملصقة على قاعدة العمود، يوجد على الحافة العليا لها كنار أو باردورة تحتوى على نصوص بالخط الكوفى(٧)، تتشابك فى بعض الأحيان فى التكوين الزخرفى عند وسطه(٨).

والأثر الثانى هو ما سبق الإشارة إليه، وهو مسجد قرية " قلعة قريش " الذى ينقص اتساعه عن " مسجد أبى مسلم " فى " قره قوره " بحوالى النصف. ويحتوى تصميمه الداخلى على أربعة أعمدة لم يبق منها سوى أثنين فقط. وهى تحمل حليات معقدة التركيب(٩). وهنا يجد المرء علاقة مع جامع " بيرى حسين" فى آذربيجان وكذلك مع جامع " شير كبير" فى تركمانستان(١٠). ومن المعتقد ان مسجد قلعة قريش هذا قد شيد فى القرن الثانى عشر الميلادى (أى السادس الهجرى).

ومن أجود الأمثلة لفن الزخرفة فى العمارة الداغستانية بقايا محراب مسجد قرية "لوتكون". وبداخله أربعة أعمدة مصنوعة من خشب الجوز ومحلاه بزخارف متنوعة. والعمودان الواقعان على جانبى المحراب مزودان بأشكال هندسية مبرقشة، تشبه رقعة الشطرنج. وقد يظن المرء ان هذه الأعمدة بنيت مع الجامع عند بنائه. ولكن الحقيقة انها أقيمت فيما بعد ذلك. وعند مقارنة حليات وزخارف أعمدة هذا المسجد بالموجودة فى

(٥) نفس المرجع السابق.
(٦) المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٧) المرجع السابق، ص ٢١٠.
(٨) المرجع السابق، ص ٢٢٨.
(٩) المرجع السابق، ص ٢١١.
(١٠) المرجع السابق، ص ٢١٣.

مسجدى قره قوره وقلعه قريش، نرى تشابها كبيراً بينه وبين هذا الأخيرة مما يدعو الى الظن بأنه قد شيد كذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى(١١). ومن المرجح ان تكون الخامات التى استخدمت فى صب هذه الحليات قد أحضرت من منطقة وسط نهر سامور، لأن التحليل الكيميائى أثبت ان خام الالباستر المستخدم فى صب هذه الحليات هو من نفس النوع الموجود فى منطقة وسط نهر سامور(١٢). هكذا وبعد ان اكتشفت هذه الحليات المصبوبة من المصيص فى الآثار الداغستانية من العصور الوسطى وعرف كل شىء عنها، يوجد أمل فى ان تستخدم مثل هذه الحليات والزخارف بشكل ما فى العمارة الحديثة فى داغستان لكى تضفى على المبانى طابعاً محلياً.

ومما يجدر ذكره عن العمارة الحديثة فى داغستان انها تتميز بطراز منازلها ذات الأسقف المسطحة. وهى مصممة على شكل شرفات، إذ ان اسطح المنازل المنخفضة قد تستخدم كشرفات للمنازل المرتفعة(١٣).

الصناعات اليدوية الفنية

ان بلاد القوقاز الشمالية بلاد جبلية وعرة وأراضيها التى يمكن زراعتها قليلة وشحيحة الانتاج. ولذلك فقد اتجه سكانها منذ أقدم العصور نحو حرف أخرى غير الزراعة وأظهروا براعتهم فى فنون الصناعات اليدوية الفنية واهتموا بها إهتماماً كبيراً حتى يومنا هذا. والأبسطة والسجاد القوقازى تتمتع بشهرة عالمية، ومنها أنواع السجاد "اللغيرى" و "الكوميكى" و "الافارى" التى تتميز بالأشكال الهندسية والزخارف المشتقة من أشكال النباتات ومن صور الطيور(١٤).

ويعمل أهل البلاد بحرف اخرى بجانب حرفة السجاد مثل الحفر على الخشب وأشغال المعادن والحفر على العظام. والتحف والمشغولات الفنية ذات الزخارف الساحرة التى تفتن الأنظار والمصنعة فى "اونزوكول" تتمتع بشهرة واسعة. كما تعد التحف المصنوعة من الخشب المشغول بالمعدن من أحسن النماذج لما تخرجه اونزوكول(١٥). وفى هذا الميدان

---

(١١) المرجع السابق، ص ٢١٥.
(١٢) المرجع السابق، ص ٢١٦.
(١٣) "د. ترونوف داغستانسكى" (صناع داغستان)، موسكو، ١٩٥٩، ص ٩.
(١٤) "بولشايا سوفيتسكايا انسيكلوبيديا"، الطبعة ٢، الجزء ١٣، موسكو، ١٩٥٢، ص ٢٩٠.
(١٥) "د. ترونوف" السابق ذكره، ص ٦٣.

كان محمد يوسوبوف الذى رحل الى الولات المتحدة الأمريكية ماراً بتفليس وباديس، قد عرض تحفه وأشغاله الفنية فى معرض باريس الدولى عام ١٩٠٠، وبعدها انتقل بمعرضه الى سانت لويس فى الولايات المتحدة حيث لاقى رواجاً كبيراً(١٦).

ومنتجات "كوباتشى" فى هذا الميدان ليست أقل سحراً أو جمالا. ويتمتع صناع كوباتشى المهرة بسمعة طيبة ومنتجاتهم تعرض فى كثير من المعارض الدولية. ومن أمثلتهم " حاجى محمود محمدوف "، وهو حفار بارع. ومن أحد أروع أعماله قدر من الفضة المطعمة بحليات من العظم. والقدر مغطى كله بنقوش محفورة مشتقة من أشكال النباتات المتسلقة(١٧). وهناك فنان كبير آخر يدعى " رسول على خانوف ". ومن نماذج أعماله التى أبدع فيها صينية صغيرة مدهشة عليها نقوش محفورة مكونة نفس الشكل الزخرفى المنقوش على قدر محمدوف الفضى وترسم شكل الوردة(١٨). وكان على خانوف بالاشتراك مع محمدوف قد انشغل فى وقت ما بالتصوير وصنع — على سبيل المثال — علبة مجوهرات حفر غطائها منظر احد أبراج كاتدرائية سباسكي بالكرملين، ولكنه عزف عن ذلك الاتجاه الذى لم يلق فيه نجاحاً وعاد فكرس نفسه لفن الزخرفة وحدة. ويعد طقم أدوات الكتابة المحفوظ فى المتحف الوطنى الداغستانى من أروع أعماله(١٩).

ان الصناعات اليدوية الفنية فى القوقاز الشمالية وخصوصاً كوباتشى قد حظت فى الماضى، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بعناية كبيرة. فقد ترك لنا ذلك الزمن كثيراً من التحف الفنية النادرة، نذكر منها على سبيل المثال السيوف التى نقشت عليها مناظر وقائع الصيد والمبارزات وكذلك لوحات المقابر المزينة بأروع النقوش.

التصوير والنحت

التصوير والنحت بالمعنى الأوروبى يعتبران شيئاً جديداً على شعوب القوقاز الشمالية. وهناك فى الحقيقة عدد من الفنانين المختلفين لهم أعمالا لاقت نجاحاً كبيراً أو صغيراً فى اطار ما يسمى بالواقعية الاشتراكية. ونذكر منهم المثال " ك. ب. عسكر ساديجا "

(١٦) المرجع السابق، ص ٦١.
(١٧) المرجع السابق، ص ٢٤.
(١٨) المرجع السابق، ص ٣٢.
(١٩) المرجع السابق، ص ٣٣.

(مولود فى ١٩٠٠،) وكذلك زميله الرسام "م. ا. جمال" الذى تخصص أساساً فى صور الأشخاص (البورترية) وفى الموضوعات (السوجية). وهناك الكثير من أعماله المختلفة تخص بعض القادة السوفييت (كستالين مثلا) ولذلك يصبح من الصعب الوصول إليها مرة أخرى لمشاهدتها اليوم. ومن اللوحات الأخرى لهذا الرسام نذكر على سبيل المثال لوحة "فى مروج الصيف" (١٩٥١) وبورترية الشاعر الشعبى "حمزه تساداس" (١٩٤٧) وبورتريه "سليمان ستالسكى" (١٩٣٥) وهى جميعها من الأعمال التى يتوقع لها البقاء زمناً طويلاً محل أعجاب عام. ولكن فنون التصوير والنحت فى القوقاز الشمالية على العموم لا تزال فى مراحل البداية الأولى.

الموسيقى

تتميز موسيقى الشعوب الداغستانية عن بعضها تميزاً كبيراً. فمعظم الأغانى الداغستانية فى قالب الأغنية ذات المقاطع (الكوبليهات) وغالباً ما يكون اللحن من جزئين. ولكن أغانى الرجال الافاريه تتميز بأنها ذات ثلاثة أجزاء، يكون الجزء الأول والثالث فيها كمقدمة وختام. وهناك نوع آخر من أغانى الرجال الكوميكية التى لها طابع "التلاوة" (الرسيتاتيف) ويطلق عليها "ير".

وجميع الشعوب الداغستانية تستخدم فى موسيقاها المقام الايولى (يماثل المقام الصغير السليم حالياً)، والمقام اليونى (يماثل المقام الكبير حالياً). وسكان الجبال مثل الافارين والدارجين واللاكين تستخدم المقام الدورى (وهو مقام أساسه الدرجة الثانية فى السلم الكبير)، بينما فى الجنوب عند اللسغين التباسرانيين فان المقام الفريجى (وهو مقام أساسه الدرجة الثالثة من السلم الكبير) أو كذلك المقام الصغير الهارمونى هما المقامان المفضلان. كما ان الكوميكيين يفضلون المقام الميكسوليدى (وهو مقام أساسه الدرجة الخامسة من السلم الكبير). والموسيقى الداغستانية يندر ان يوجد فيها تعدد الأصوات، وان كان المرء يسمع من حين لآخر فى أغانى الرجال بعض لمحات ذات صوتين[٢٠]. إذ يستمر أحد الأصوات – غالباً نغمه الأساس – بينما يتحرك الصوت الآخر مؤدياً اللحن. ونفس هذه الطريقة تؤديها ثنائيات من آلات النفخ مثل "الزورنا" و"البالابان".

---

(٢٠) "بولشايا . . ." السابق ذكره، ص ٢٩٢.

يتميز الرقص الداغستانى بسرعة الحركة والخفة والبراعة والرقص القوقازى، وخصوصاً الشمالى، يندر ان يوجد مثله فى روح المرح والسرور والبهجة والانشراح التى يمتلىء بها. هذا وميزان $\frac{6}{8}$ فى تقسيم ٢×٣ ($\frac{3}{8}$ $\frac{3}{8}$) هو أهم ما يلاحظه المرء على ايقاع رقصات القوقاز الشمالية، وهو من الخصائص المميزة لها، وان كان يفضل تغييره الى تقسيم ٣×٢ ($\frac{2}{8}$ $\frac{2}{8}$ $\frac{2}{8}$) فى الأغانى. ويستخدم الافاريون ميزان ميزان $\frac{2}{4}$ الذى تكثر فيه نوتات " الدوبل كروس "(٢١).

من أكثر الآلات الموسيقية الشعبية ذيوعاً وانتشاراً بين شعوب القوقاز الشمالية آلة " الاجاتش كوموس " ذات الثلاثة أوتار، وتستخدم فى مصاحبه الغناء. وفى جنوب داغستان وخصوصاً عند اللسفيين التباسرانيين واللاكيين تنتشر آلتى " التارا " و" الكمنجة ". وعند أهل الجبال الافاريين، فان آلة " التشاجانا " (وهى فيولينه مسطحة) وهى مثل الكمنجة توضع فوق الركبة أثناء عزفها، هى الآلة المحببة. ومن آلات النفخ نذكر " الزورنا " و" الدودوك " (وهى نوع من الكلارينيت). اما آلات الايقاع فانها تعتبر بحق روح الرقص عند القوقازيين الشماليين. فهناك نوعان من الطبول " الخفال " و"الدولى" واللتين يفضلهما بنوع خاص شعبى الانخازيين والاجاريين. والاكورديون المضبوط على على الأصوات الشرقية من الآلات التى يحبها الكوميكيون ويعزفونها بمهارة(٢٢).

يغلب فن الغناء المنفرد فى موسيقى الآذيجانيين منذ العصور الوسطى الى اليوم. ويؤديه الرجال، وفى بعض الأحيان تصاحبه المجموعة (الكورس). ويردد الكورس بعض العبارات وراء المغنى وتنشأ فى هذه الحالة بطريق المصادفات بعض أجزاء من اللحن ذات صوتين فى مسافات خامسة ورابعة وثامنة. ومن المألوف فى غناء الكورس ان يكرر كلمة أو مقطع من كلمة بطريقة آلية بشكل يفقدها معناها اللغوى الأصلى. ولا يقصد بها سوى أحداث رنين خلفى. وذلك مثل عبارة " اورا " و " فوريرارا ". واللحن الأساسى غالباً لا يؤديه المغنى، وانما يؤديه العازفون على آلات " الشيتشيبشين" (وهى آلة وترية ذات قوس بها وترين) أو " الكميل " (وهى نوع من الفلوت) أو الاكورديون الشرقى. ويصاحب الرقص ايقاع على آلة " البخاتشيتش " (وهى نوع من الكستنيتا). والآذيجانيون يستخدمون التصفيق فى مصاحبة الرقص الى جوار الآلات ومع الغناء أيضاً.

قام م. ف. جنيسين (١٨٨٣–١٩٥٧) و ن. ن. ميرونوف بتنقيح واعداد مجموعة من الأغانى الآذيجانية. بل ان جنيسين الف سداسيا (سكستت) أسماه " اذيجيا "

---

(٢١) المرجع السابق، ص ٢٩٣.
(٢٢) نفس المرجع السابق.

(١٩٣٣)(٢٣). وهناك من اتخذوا بعض الخطوات لجمع وتدوين أغانى القوقاز الشمالية. وهكذا تم فى سنة ١٩٤٨ اصدار مجلد ضم مائة أغنية داغستانية(٢٤). ولقد بدأ ادخال التعليم الموسيقى الى داغستان بعد ان تم فتح القوقاز الشمالية على يد الجيش الأحمر الذى مهد للسيطرة السوفييتية. وفى عام ١٩٢٦ تم إفتتاح مدرسة ثانوية موسيقية ومعهداً عالياً للموسيقى فى مدينة " مخاتشكالا "(٢٥).

ويوجد اثنان من مؤلفى الموسيقى القوقازيين الشماليين يتمتعان بشهرة واسعة، لا فى القوقاز الشمالية وحدها وانما فى كل أنحاء الاتحاد السوفييتى ودول الكتلة الشرقية أيضاً. وهما " جوتفريد حسنوف عليفيتش " (١٩٠٠–١٩٦٥) وهو لسغى، ثم "كزلايف مراد محمدوفيتش " (١٩٣١) وهولاكى. وعليفيتش له اثنان من كونشرتو البيانو والاوركستر (١٩٤٩، ١٩٥٩)، وحصل على جائزة الدولة فى الاتحاد السوفييتى على كونشرتو البيانو والاوركستر رقم ١. وحصل على نفس الجائزة مرة أخرى على عمل آخر هو " الكانتاتا الداغستانية " التى اتم تأليفها عام ١٩٤٩(٢٦).

اما كزلايف مراد محمدوفيتش فهوالذى شق طريقه الى القمة بين الملحنين الداغستانيين. وله أعمال سيمفونية عديدة ناجحة نذكر منها على الأخص "كونشرتو لاوركسترا الجاز مع الطبلة "(١٩٦٤) الذى نال اعجاباً كبيراً(٢٧).

ومن الغريب فعلا ان نرى اهتمام الملحنين القوقازيين الشماليين بفن الأوبرا محدوداً جداً، فى حين ان المسارح فى تلك البلاد كثيراً ما تقدم مسرحيات فيها اداء موسيقى وتلقى من الجمهور استحساناً كبيراً يفوق المسرحيات الأخرى. وعلى أى حال فان كثيراً من المعاهد الموسيقية قد انشئت ولا زالت تنشأ فى جميع المدن القوقازية الشمالية، ولسوف يأتى وقت ولا شك تخرج فيه هذه المعاهد موسيقيين يكون لهم شأن أكبر. ففى عام ١٩٦٤ – على سبيل المثال – أتم مائتى طفل دراستهم فى مدارس الموسيقى، وثلاثون أتموها فى فى المدارس الموسيقية الثانوية فى داغستان(٢٨).

---

(٢٣) المرجع السابق، الجزء ١، موسكو، ١٩٤٩، ص ١٢٠.
(٢٤) المرجع السابق، الجزء ١٣، موسكو، ١٩٥٢، ص ٢٩٣.
(٢٥) "انسيكلوبيديتشيسكى موزيكالنى سلوفار" (القاموس الموسيقى الموسوعى)، موسكو، ١٩٦٦، ص١٤٠.
(٢٦) المرجع السابق، ص ١١٠.
(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٠٢.
(٢٨) ج. د. دانيالوف، "رازفيتيه اكونوميكى اى كولتورى داغستانا" (تطور الاقتصاد والثقافة فى داغستان)، موسكو، ١٩٦٦، ص ٣٠٢.

المسرح

لم يعرف المسرح بمعناه الحديث فى داغستان فيما قبل القرن العشرين. ويبدأ تاريخ المسرح الداغستانى من بداية هذا القرن حين قام الكوميكيون بالمحاولات الأولى لانشاء مسرح للهواة عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٦. ولم يكن لديهم داراً مسرحية بالمعنى الصحيح وانما كانوا يقدمون رواياتهم فى قاعات الاحتفالات فى المدارس. وكان أول عمل قدموه هو رواية "كالايبشتال" من تأليف ج. سعيدوف(٢٩). وكان أول معهد انشىء لفنون المسرح فى داغستان هو الذى انشأه الكوميكيون فى عام ١٩٢٥ والذى تولد منه بعد ذلك فن المسرح الغنائى. وبدأ أول جيل من الممثلين الذين تخرجوا من هذا المعهد عام ١٩٣٠ فى إنشاء مسارح للهواه فى أنحاء مختلفة من داغستان. وفى عام ١٩٣٥ تم إنشاء فرق مسرحية فى افار ولسغى ولاك وعملت جميعها بأساليب مسارح الهواة. أما أول مسرح للمحترفين انشىء فى داغستان فقد كان مسرح "ماخاتشكالا" الذى انشىء عام ١٩٣٠ وكانت الروايات باللغة الكوميكية. والى جانب الفرق المسرحية للهواة والمحترفين الكثيرة التى وجدت فى جميع المدن (على سبيل المثال فى مخاتشكالا وكراسنودار وجروسنى ونالتشيك واوردزونيكيدزه وسوخومى وديربنت)، وجدت أيضاً فرق مختلفة للغناء والرقص الشعبى مثل فرقة "لسغينكا" أو فرقة المنوعات الشعبية "جونيب" بقيادة م. كزلايف. ولقد حظت فرقة الرقص والغناء الداغستانية القومية بنجاح كبير فى كثير من دول العالم التى زارتها. ويرجع الفضل الأول فى احرازها ذلك النجاح الى ا. اوفانيسيان مصمم رقصاتها.

وفى عام ١٩٣١ أنشىء فى جروسنى معهد لفنون المسرح التشيتشينى، وهو الذى تطور بعد ذلك فى عام ١٩٣٣ الى المسرح الدرامى التشيتشينى. وعلاوة على ذلك فقد أنشئت عدة معاهد أخرى لفنون المسرح والتمثيل التشيتشينى، والحق احدهم بمسرح "روستافيلى" فى تفليس عام ١٩٣٤، وآخر فى جيتيس فى عام ١٩٣٨ (المعهد المسرحى الحكومى)، ثم ثالث ألحق بمعهد ليننجراد للفنون المسرحية فى عام ١٩٥٧. وكان المتخرجون من هذه المعاهد يمثلون العمود الفقرى للمسرح التشيتشينى والانجوشى.

ولكن المسرح التشيتشينى والانجوشى قدر له ان يتوقف عن نشاطه من عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٥٨. فمن المعروف ان شعوب التشيتشين والانجوش والكاراتش قد أبعدت

---

(٢٩) "بولشايا . . ." السابق ذكره، الجزء ١٣، ص ٢٩٣.

الى سيبيريا عام ١٩٤٤ بحجة أنهم أظهروا تعاطفاً مع المحتلين الألمان أثناء الغزو الهتلرى لروسيا فى الحرب العالمية الثانية. ولكن ما ان رد اعتبار هذه الشعوب وأعيدوا الى ديارهم وحصلوا على الحكم الذاتى عام ١٩٥٨، حتى استرد المسرح التشيتشينى والانجوشى مكانته وعاد نشاطه من جديد. وكان اسم دار المسرح قد تغير فى عام ١٩٤٢ وأطلق عليه اسم بطل الاتحاد السوفييتى "خان باشا نور الدينوف"(٣٠). ومما هو جدير بالذكر ان موسوعة المسرح السوفييتية قد أهملت — فيما ذكرته عن المسرح التشيتشينى والانجوشى — ذكر واقعة ابعاد هذه الشعوب الى سيبيريا واكتفت بالقول بأنه توقف عن نشاطه عام ١٩٤٤ ثم عاد إليه فى عام ١٩٥٨ عند اعادة تأسيسه. وكان هذا هو كل ما قيل رسمياً فى عام ١٩٦٧ عن جريمة ابعاد هذه الشعوب.

أسست أول فرقة مسرحية دارغينيه للمحترفين عام ١٩٦١ وهى الفرقة التى تكونت فى ابزرباش (فى داغستان). وكان الممثلون قد تلقوا تدريبهم فى أرمينيا وليس فى آذربيجان، وهذا مما يستحق الملاحظة(٣١). ومما هو جدير ملاحظته أيضاً أنه عندما أقام التشيتشيون والانجوشيون وحدة اقليمية بينهم فى عام ١٩٣٤، فرضت جمهورية جورجيا حمايتها على المسرح التشيتشينى والانجوشى، وعين ا. تشخادتيشفيلى مديراً لهذا المعرض(٣٢). وتلقى هذه الحقائق ضوءاً كاشفاً على سياسة موسكو فى هذا الميدان: فانها قد فعلت كل ما فى وسعها لكى تحول دون قيام أى اتصال بين شعوب القوقاز الشمالية (ومعظمهم مسلمين وبعضهم اتراك) وبين شعوب آذربيجان. ثم ان موسكو سارت على سياسة التغلغل الثقافى الروسى من بعد رد اعتبار شعوب التشيتشين والانجوش والكارتش واعادتهم الى أوطانهم. وتهدف موسكو من وراء هذه السياسة الى تجزئة هذه الشعوب وتفتيت كيانها القومى الخاص تمهيداً لتقويضه نهائياً. وهم يأملون على ما يبدو ان يأتى يوم تتلاشى فيه شعوب القوقاز الشمالية وتذوب داخل شعوب أرمينيا وجورجيا بتأثير ثقافتها. ولقد كان تأثير المسرح الآذربيجانى فيما قبل قوياً جداً فى هذا الشأن(٣٣). وفى عام ١٩٣٠ أسست فرقة مسرحية اوستينية فى فلاديكافكاز(٣٤). وبعد ذلك فى عام ١٩٣١ تم اختيار ثلاثين شاباً من بين

---

(٣٠) "تياترلنايا انسيكلوبيديا" (موسوعة المسرح)، الجزء ٥، موسكو، ١٩٦٧، ص ٧٦٩.
(٣١) المرجع السابق، الجزء ٢، موسكو، ١٩٦٣، ص ٣٠٠.
(٣٢) "استوريا سوفيتسكوجو دراماتييتشيسكوجو تياترا" (تاريخ المسرح الدرامى السوفييتى)، الجزء ٤، موسكو، ١٩٦٨، ص ٦١٤ ف.
(٣٣) المرجع السابق، الجزء ٢، موسكو، ١٩٦٦، ص ٤١٢.
(٣٤) المرجع السابق، الجزء ٣، موسكو، ١٩٦٧، ص ٥٤٧.

أربعين من الشباب الاوستينى من اوردزونيكيدزه، وأرسلوا الى موسكو لدراسة فن التمثيل. وكانت هناك صعوبة غير عادية لايجاد لغة مشتركة يفهمها الجميع، ولم تكن اللغة هى الصعوبة الوحيدة التى واجهتهم، فقد كانت هناك صعوبات أخرى ربما أشد تعقيداً وغرابة. قال احد اساتذة هؤلاء الطلبة، وهوف. ى. ستانيتسين، ما يأتى:

... فمثلا عند الكشف عن طبيعة المشاعر، شاهدت نتائج كانت مفاجأة تامة لى، فمثلاً أعطى أحد الطلبة الأوستنيين هذا التمرين: لقاء سعيد بين اب وابنه بعد فراق طويل. وقمت بتوضيح كل شىء حتى أدق التفاصيل. التمرين واضح كل الوضوح، ولكن فى اللحظة التى كان المخرج ينتظر فيها ان يكون التعبير عن هذا اللقاء احضاناً وقبلات، بقى الطلبة الذين يمثلون الموقف كل منهم بعيد عن الآخر. ايكون ممكناً انهم لم يفهموا التمرين؟ لقد فهموه ولا شك، وكانت مشاعرهم حقيقية. ولكن حقيقة الأمر ان طريقة التعبير عن المشاعر عند هذا الشعب طريقة خاصة تختلف فيها عن غيرة من الشعوب. فأنه إذا ألقى ابن اسيتينى بنفسه الى صدر أبيه كما نفعل نحن حسب تقاليدنا، فان ذلك يعتبر عند الاوستينين نوعاً من عدم الاحترام للوالدين يبلغ حد الاهانة(٣٥).

ان كلام ستانيتسين هذا يبين كيف يمكن ان تختلف وتتضارب بقوة تقاليد هامة كتلك، حينما يرغم شعب على ان يضع إمكاناته الثقافية داخل اطار ثقافى غريب تماماً عنه سواء كان ذلك بطريقة مسموحة أو غير مسموحة كما حدث هناك فى موسكو. ان عملاً فنياً صادقاً حقيقياً لا يمكن ان يخرج الى الوجود ويبقى الا إذا كان نابعاً عن ضمير الشعب ومن تقاليده وتاريخه الطويل عبر مئات السنين، ومرتبطاً بحياته ونضاله اليومى وآماله وآلامه ومعبراً عنها تعبيراً صادقاً وسليماً.

فى جميع مدن القوقاز الشمالية وفى بعض الكولخوزات (المزارع الجماعية) تقدم مسرحيات من كل نوع وتتراوح فى مستواها الفنى بين الجيد والردىء، ولكن أمراً واحداً لا يتغير أبداً، وهو الموضوعات التى تعالجها هذه الروايات. فانها كلها تدور حول فكرة محاربة التقاليد وأساساً محاربة شرائع الاسلام، وفكرة أخرى كذلك وهى تمجيد "الصداقة بين الشعوب". فى القوقاز الشمالية تعيش شعوب كثيرة، منها الصغيرة والكبيرة، بينها اختلافات شتى، وليس من الممكن تحاشى وقوع بعض التوترات بينها بشكل قطعى.

---

(٣٥) المرجع السابق، ص ٣٤٨ ف.

ولذلك يستخدم المسرح كاحدى الوسائل لبث روح الوفاق بين هذه الشعوب والقضاء على روح الخصام بينها. وهناك ولا شك اهتمام خاص بما يسمى " العرفان من جميع شعوب الاتحاد السوفييتى للأخ الأكبر روسيا ".

وخلاصة القول، فأنه أمر ثابت ويقين ان الجزء الأكبر من شعوب الاتحاد السوفييتى التى تدين بالاسلام تنتمى الى مجموعة الشعوب التركية. ولا يوجد فى حياة تلك الشعوب على الاطلاق شيئاً يربطها بموسكو. فطريقة معيشتهم وتقاليدهم وثقافتهم ولغاتهم ودينهم تختلف أساساً عن الشعب الروسى ولذلك فان عملية التذويب الثقافية التى تمارسها موسكو بين هذه الشعوب لا يمكن الا ان تكون أذى وضرراً وخسارة. والروس والاتراك سواء بسواء يعلمون هذه الحقيقة ويتعاملون فى ضوئها. وتحاول القيادة السوفييتية بجميع الوسائل ان تقوض الكيان المستقل لمن بقى من هذه الشعوب فى أراضيه طبقاً لخطط محكمة. وتأمل ان تفقد هذه الشعوب طابعها الثقافى الخاص بالتدريج الى ان ينتهى الأمر الى زوال شخصيتها القومية الخاصة وبذلك تذوب فى داخل الكيان السوفييتى الكبير ولا يبقى لها وجود على سطح الأرض. وهم للآن لم يحققوا فى هذا السبيل الا نجاحاً محدوداً لأن هذه الشعوب الأبية لا تترك فرصة تمر — فى حدود امكانياتها المحدودة — دون ان تنتهزها لتثبت وتؤكد من جديد إيمانها بقيم ثقافتها القومية وضرورة بقائها وتطورها. وتختلف السياسة السوفييتية فى هذا المجال فى الوقت الحاضر بين الشدة واللين تبعاً للظروف السياسية الداخلية والخارجية للاتحاد السوفييتى. ومن الصعب التكهن بما إذا كانت هذه السياسة السوفييتية فى مجال الفنون سوف تأتى بأثرها المطلوب. وعلى أى حال فمن المهم ومما يستحق العناء ان نبقى دائماً على قرب من الأحداث وان نتابع بحرص ويقظة ما يجرى فى مجال الفنون والثقافة بين شعوب الاتحاد السوفييتى المختلفة.

[الجزء الثالث]

التركستان

الموسيقى والمسرح والعمارة

لا يعرف عن موسيقى الشعوب التركستانية فى العصور القديمة الا النذر اليسير. ولقد عثر على بعض الأوانى الأثرية التى يرجع تاريخها الى ٢٠٠—٣٠٠ سنة ق.م. ومنها آنية فضية عليها نقوش تصور موسيقيين وآلات موسيقية. وفى منطقة خوارزم اكتشف رسوم على حائط تصور موسيقياً يعزف على آلة شبيهة بالهارب(١). وبينما يعتبر ذلك كله دليل على ان التركستانيين القدماء كان لهم اهتمام بالموسيقى، الا أنه لا توجد لدينا معلومات البتة عن طبيعة وأساليب موسيقاهم.

ويعد أول من تناول موضوع هذه الموسيقى بالكتابة هو نصر الدين الفارابى (٨٧٠ إلى ٩٥٠ م) ثم أبو على بن سينا (٩٨٠—١٠٣٧ م)(٢). ولقد اهتم الفارابى فى كتابه المسمى "كتاب الموسيقى الكبير" بموسيقى العصر العباسى (٧٤٩—٩٥٨)، أما ابن سينا فقد خصص بابا من كتابه المسمى "كتاب الشفاء" لمعالجة قضايا الموسيقى. ومن بعد الفارابى وابن سينا جاء العلامة عبد الرحمن جامع (١٤١٤—١٤٩٢) يبحث فى ايقاعات الموسيقى وتركيبها. وفى القرن السابع عشر وضع درويش على كتاباً عن أصل الموسيقى وأثرها فى الانسان. ولهذا الكتاب أهمية خاصة، إذ يتضمن معلومات عن الآلات الموسيقية وذوى الشأن من الموسيقيين فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر(٣)، مثل " الاستاذ على " الذى خلف أعمالا موسيقية كثيرة . . . لا يباريه فيها أحد من الأساتذة الآخرين"(٤). ولقد تناول الفيلسوف الآذربيجانى " عبد القادر" (من آذربيجان الجنوبية، وتوفى عام ١٤٣٥)

---

(١) ت. س. فيزجو، "اوزبكستان السوفييتية"، موسكو عام ١٩٥٧، ص ٤.
(٢) ف. بلياييف، "مقالات فى تاريخ موسيقى شعوب الاتحاد السوفييتى"، موسكو عام ١٩٦٢، ص ٢٦٩.
(٣) ب. س. شتاينبيرس و ا. م. بامبولسكى، "القاموس الموسوعى الموسيقى"، موسكو عام ١٩٦٦، ص ١٤٩.
(٤) ل. سينيافير، "التركمان السوفييتية"، موسكو عام ١٩٥٥، ص ٤.

موضوع القوالب الموسيقية بالشرح والتفصيل، وهى القوالب التى لا زالت الى اليوم(٥)، بعد ٥٠٠ عام، تستعملها شعوب الأوزبك والتادجيك.

وفى العصر التيمورى (١٣٦٥–١٥٠٧) حققت موسيقى الشعوب التركمانية تقدماً عظيماً. لقد كان تيمور لنك – الى جوار كونه محارباً جباراً – راعياً محباً للفنون. فقدم الموسيقيون من كل أنحاء امبراطوريته العظيمة يقصدون بلاطه ليعزفون ويغنون له. ومن الأمثلة على ذلك حفل كبير أقيم لتحيته فى عام ١٣٩٦، عزفت فيه موسيقى فارسية وعربية ومغولية وتركية وصينية وغيرها(٦). وكان من شأن مثل تلك اللقاءات بين حضارات أمم مختلفة ان امتزجت هذه الحضارات ببعضها وأدت الى ظهور قوالب موسيقية جديدة مثل ما يطلق عليه اسم "شاشمقام". وفى وصف تفصيلى للشاشمقام أعطاه الموسيقى والعلامة البخارى "نجم الدين قربقى" (توفى عام ١٥٧٦) نجد ان الشاشمقام شديد الشبه بالقوالب الموسيقية التى تستعمل حالياً فى تادجيكستان واوزبكستان(٧). ولما كانت الشاشمقامات وغيرها من المقطوعات الموسيقية لا تدون، فقد كان لزاماً على الموسيقين ان يعزفونها من الذاكرة وهو ما يعتبر دليلاً وبرهاناً على مهارتهم ومقدرتهم الموسيقية.

وحوالى عام ١٨٨٠ اخترع الموسيقى الشهير "ينجاس ميرزاباشى كامل" ما يسمى التدوين الموسيقى الخوارزمى(٨). وكان مدرج التدوين يتكون من ١٨ سطراً تقابل أوتار آلة الطنبور الثمانية عشرة. وبهذه الطريقة تحددت النغمات من حيث الحدة. أما زمن النغمة، أى المدة التى يستغرقها الصوت، فقد حدد بواسطة نقط تكتب على السطر تمثل عدد مرات الدق على الوتر. فنقطة واحدة تعنى الدق مرة واحدة على الوتر وهكذا. وباستخدام هذه الطريقة أمكن تدوين المقطوعات الموسيقية المختلفة مثل الشاشمقام وغيرها. وفيما قبل كان الشعر يقوم بديلا عن مدرج التدوين الموسيقى. فالموسيقى والشعر ارتبطا أحدهما بالآخر، وان كان الشعر له المقام الأول ولا شك لأنه كان من الممكن تدوينه.

وفى القرن السادس عشر استقر شعب الأوزبك فى تركستان بعد ان كانوا بدوا رحلا، وأسسوا مملكه الشعبانيين (١٤٩٩–١٥٩٨) ثم مملكة استراخان (١٥٩٩–١٧٥٩). أما سمرقند والحيرة، اللتين ظلتا على مدى مائتى عام العاصمتان السياسيتان والثقافيتان للإمبراطورية

---

(٥) بلياييف، المذكور سابقاً، ص ٢٧٦.
(٦) المرجع السابق، ص ٢٢٦.
(٧) المرجع السابق، ص ٢٢٧.
(٨) المرجع السابق، ص ٢٣١.

التيمورية التى فرضت طابعاً خاصاً على الأدب والفن، فقد فقدتا أهميتهما، وصارت بخارى وطشقند عاصمتين جديدتين تجذبان إليهما الفنانين والشعراء والفلاسفة. وفى القرن الثامن عشر تجزأت التركستان الى وحدات سياسية صغيرة مثل امارة بخارى وخانية خيوة وخانية خوقند.

وحتى عهد قريب كانت موسيقى التركستانيين عادة فى قالب الغناء الانفرادى بمصاحبة الآلات. ولم تكن التراكيب المتعددة الأصوات معروفة بعد. وفى الموسيقى الآلية كانت المسافات الغالب استخدامها أكثر من غيرها، المسافتان الرابعة والخامسة، ولو ان المسافتين الثانية والثالثة استخدمتا أحياناً وخاصة عند شعبى القيرغيز والقازاق. ومن الممكن اكتشاف مثل هذه المسافات فى المقطوعات المؤلفة لآلة "الكوموز"، ولو انها تحدث بالمصادفة ولم تكن محاولة مقصودة فى البوليفونية.

وكان "الدستان" واحداً من أهم وأكثر القوالب الموسيقية ذيوعاً وانتشاراً. والدستان عبارة عن دراما غنائية، ومنها دستان "كور اوغلو" الذى يعرفه الآذربيجانيون والاتراك، وكذلك اسطورة الحب "فرحات وشيرين"، و "ليلى والمجنون" و "وطاهر وزهرة" و "شاكسينم وغارب" و "أصلى وكريم" وغيرها مما لا يزال معروفاً فى كل أنحاء التركستان. هذه الحكايات الشعرية كانت فى الغالب مادة روائية لأول أوبرات قومية فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية. وكان الفنانون الذين يؤدون الدستانات يسمون عند الأوزبك والتركمان "باشكى"(٩)، وعند القيرغيز "ماناستشى"(١٠)، وعند التادجيك "جورجولوجو"(١١).

وجرت العادة ان يتولى المغنون مصاحبة أنفسهم بالآلات مثل آلة "الدومبرا" فى اوزبكستان وآلة "الدوتار" فى تركمانيا و "الدومبراك" فى تادجيكستان(١٢)، ولو ان القيرغيز يؤدونها بدون مصاحبة.

ومن الممكن تقسيم الموسيقى التركستانية الى مجموعتين:

(أ) موسيقى قبائل البدو الرحل مثل القيرغيز.

(ب) موسيقى الجماعات المستقرة مثل الأوزبك والتادجيك ثم التركمان الى حد ما.

---

(٩) سينيافير، المذكور سابقاً، ص ١١.

(١٠) شتاينبيرس، المذكور سابقاً، ص ١٤٩.

(١١) بلياييف، المذكور سابقاً، ص ١٩٥.

(١٢) نفس المرجع السابق.

وموسيقى القيرغيز يغلب عليها طابع الالقاء أكثر من الغناء، وهى تقرب الى البدائية أكثر من موسيقى الأوزبك والتادجيك، وتعكس حياة البدو الشاقة فى جميع صورها. فأغانى النساء تدور حول رعى الأغنام على مشارف القرى وحمايتها من الذئاب، وهى ما تسمى "بكبكاى" (بكسر البائين وتسكين الكاف). وأغانى الرجال تدور حول تربية الخيل وتسمى "شيريلدان"(١٣). وأغانى الرثاء والندب التى يسمونها "كوشوك" ذات أهمية من نوع خاص فهم لا يقومون بعنائها فقط فى مناسبات الوفاة ولكن فى مناسبات الزواج أيضاً، فهم يبكون ويندبون العروس عندما تزف الى بيت عريسها(١٤). ومن النواحى الهامة فى موسيقى القيرغيز هى ما يؤديه الـ "أكين" الذين يغنون مؤلفاتهم الخاصة ويعزفون بأنفسهم على الآلات الوترية. ولما كانت أشعارهم تدور حول مشاكلهم السياسية والاجتماعية فى القرن التاسع عشر، فان ذلك كثيراً ما كان سبباً فى صعاب واجهوها مع البوليس القيصرى. ومن أمثلة ذلك توكتوجول ساتيلجانوف (١٨٦٤– ١٩٣٣) الذى حكم عليه بالاعدام فى عام ١٨٩٨ ثم خفف الحكم عليه بعد ذلك الى سبع سنوات فى المنفى(١٥). و "ارتانبيك" (حوالى ١٨٢٤–١٨٧٤) كان شاعراً آخر هاجم الروس فى اشعاره وندد بغزوهم لقيرغيزيا وبكى على حرية شعبه المفقودة(١٦).

وشهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر بداية تطور الموسيقى الآلية فى قيرغيزيا. ومما يستحق التسجيل فى هذا المجال جهود "مورتالى كورنكاييف" (١٨٦٠–١٩٤٩). وتشكل أعماله الأساس للموسيقى الكلاسيكية القيرغيزية فى العصر السوفييتى(١٧). وعلى العموم فهناك فارق بسيط بين موسيقى القيرغيز وموسيقى القازاق. فالاكين كان لهم نشاط كبير كذلك فى قازاقستان خلال القرن التاسع عشر. وكانوا ينتقدون بشدة الأحوال السياسية والاجتماعية. ومن أشهرهم "ماخامبت اوتميسوف" (١٨٠٤–١٨٤٦)، و "اباى كونانباييف" (١٨٤٥–١٩٠٤) و "جامبول جاياييف" (١٨٤٦–١٩٤٥). وفى مجال الموسيقى الآلية كان القالب الشائع استعماله هو ما يسمى "كيوى" وهو مقطوعة تعزف على آلة الدومبرا فى قازاقستان وعلى الكوموز فى قيرغيزيا. هذه المقطوعة تبدأ بايقاع بطىء

---

(١٣) المرجع السابق، ص ٨.
(١٤) المرجع السابق، ص ١٠
(١٥) المرجع السابق، ص ٣٧.
(١٦) المرجع السابق، ص ٢٥.
(١٧) المرجع السابق، ص ٤٣.

ثم تسير أسرع فأسرع الى ان تبلغ أعلى السرعة. والمسافات المستعملة عادة هى المسافات الرابعات والخامسات المتوازية(١٨).

ان شعوب التركستان محبة للموسيقى الى درجة كبيرة ولها احساس قوى بالايقاع خصوصاً الأوزبك والتادجيك والتركمان. ولقد علق احد المهتمين بدراسة حضارة هذه الشعوب على هذا الموضوع بقوله:

ان كل منهم متحمس لعزف التمبورين. ان الساقى لا يحمل اناءاً أو طبقاً نحاسياً فارغاً الا وحمله كما يحمل التمورين وأخذ يدق عليه باصابعه إيقاعاً راقصاً(١٩).

والسبب فى ان الأوزبك والتركمان والتادجيك قد نما لديهم أحساس قوى بالايقاع الراقص وباللحن — بعكس القيرغيز — يمكن تفسيره بأنهم كانوا قد تركوا حياة البداوة والترحال منذ مدة طويلة واستقروا فى القرى والمدن حيث كانت حياتهم أطيب وأرغد عيشاً، ونمت لديهم الرغبة فى التسلية والترويح عن النفس، وبالطبع كان الموسيقيون والراقصون يوجدون حيث يمكنهم ان يكسبوا عيشهم، وهو الأمر الذى يستحيل حدوثه فى ظروف حياة البداوة والتنقل الدائم بحثاً وراء المراعى. وعندما اسست الامبراطورية التيمورية الهائلة ازداد الاتصال بين شعوب التركستان المختلفة، فأعطى ذلك دفعة إضافية لتطور الموسيقى والشعر. وقامت ممالك ثم زالت ولكن الاهتمام بالموسيقى ظل دائماً لا يزول. يقول فون شفارتس:

ان أمير بخارى كان لديه مجموعته الخاصة من "الباخا"، يدفع لهم مرتبات منتظمة. ولقد تولاهم معلم خاص للباليه، فبلغوا حداً من البراعة لا يجاريهم فيه غيرهم(٢٠). والباخا كانوا غلمانا يبداون تدريبهم على الرقص فى سن مبكرة جداً كما هو الحال فى مدارس الباليه حالياً.

ومع ان رجال الدين اتخذوا موقفاً معارضاً وأحياناً عدائياً من الموسيقى، فقد استمر الامراء والولاة فى اعطائها مكاناً بارزاً وقدر كثير من العلماء والشعراء فعلها وتأثيرها فى الأنسان، بل انهم لم يرضوا بالتوقف عند حدود الموسيقى الفولكلورية فدرسوا قواعد الموسيقى وابتكروا قوالب جديدة مركبة كان منها الشاشمقام السابق ذكرنا له، وهو قالب موسيقى شديد التعقيد من حيث أنه من الممكن تصوير كل مقام فى مفاتيح مختلفة(٢١).

---

(١٨) شتاينبيرس، المذكور سابقاً، صفحات ٢٥٧، ٢٥٨.
(١٩) فرانتس ف. شفارتس، "تركستان"، الصادر فى مدينة فرايبورج ايم برايسجاو عام ١٩٠٠، ص ٢٤٩.
(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٩٦.
(٢١) بلياييف، المذكور سابقاً، ص ٢٢٤.

والشاشمقام يشمل المقامات الآتية: مقام برزق (بضم الباء) وراست ونوا ودوكاه وسيكاه وعراق، وهى تمثل المفاتيح السبعة الأساسية لكل قسم من أقسام الشاشمقام. والمقام عند التادجيك "سويت" يتكون من قسمين: الأول آلى ويسمى "موشكولات" والثانى غنائى بمصاحبة الآلات ويسمى "نصر"(٢٢). ولتوضيح طول المقام، فان مقام "برزق" البخارى مثلا يحتوى قسمه الأول على سبعة مقاطع بينما قسمه الثانى يحتوى على عشرة. وكثير من هذه الأقسام يتكون من ٣٠٠ حقل (مازورة)(٢٣)، مما يجعله مشابهاً لحركة طويلة نوعاً من سيمفونية. وعلى النقيض تماماً من هذا القالب الموسيقى الراقى، فهناك نوع من الأغانى الفولكلورية المنتشرة فى وادى فرغانه يسمى "كاتا اشولا" تقدم بدون مصاحبة الآلات، وتؤدى فى ايقاع حر ويستخدم المغنى طبقاً أو صينية صغيرة يوقع عليها للتأكيد على معانى الكلمات. ويؤدى "الكاتا أشولا" عادة اثنان أو ثلاثة من المغنين يؤدون المقطع الأخير جماعة(٢٤).

تختلف التقاليد التركية التركستانية عن تقاليد الموسيقى الأوروبية إختلافاً تاماً، وبقى هذا الاختلاف حتى فى العهد السوفييتى. فالقوالب الموسيقية القديمة لا زالت تقدم فى الحفلات الموسيقية وفى البرامج الاذاعية، وفى الوقت نفسه فهناك اهتمام كبير بالموسيقى الأوروبية. وشعوب تركستان لم تعرف الموسيقى الأوروبية قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما سقطت طشقند فى يد الروس عام ١٨٦٥. وكانت الحاميات الروسية تضم فرقاً للموسيقى العسكرية تعرف للجمهور. وقام أحد قادة هذه الفرق الموسيقية العسكرية، وهو "ايشهورن" بجمع ألحان محلية وكتبها فى صورة جديدة تلائم الأوركسترا.

وفى عام ١٨٧١ بدأ تقديم حفلات الكونسير فى طشقند. وبعد ذلك بدأت تتكون الهيئات الموسيقية التى أشرفت على تنظيم حفلات منتظمة(٢٥). وقدمت الى طشقند اوركسترات من روسيا ومن أوكرانيا ومن آذربيجان وحتى من ايطاليا، ولكن الأهالى لم يظهروا إقبالا على الموسيقى الأوروبية. ولذلك فقد سار الاتجاهان الحضاريان جنباً الى جنب، ولم يحدث أى تغيير داخلى هام قبل الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين. ففى عام ١٩٣٤ أنشى كونسرفاتور فى طشقند، وبعد ذلك بعشر سنوات أنشىء معهد موسيقى مماثل فى آلما آتا. وقبله بخمس سنوات، أى فى عام ١٩٢٩ افتتح أول مسرح

(٢٢) المرجع السابق، ص ٢٠٦.
(٢٣) فيزجو، المذكور سابقاً، ص ٣٣.
(٢٤) بلياييف، المذكور سابقاً، صفحات، ٢٧٥، ٢٧٦.
(٢٥) فيتزجو، المذكور سابقاً، ص ٣٣.

موسيقى حكومى فى جمهورية الأوزبك. وكان من أول ما قدمه هذا المسرح اوبريت "ارشين مال الان" للموسيقار الآذربيجانى "عسير حاجيبيكوف"، وكان استقبال الجمهور لها حماسياً جداً(٢٦).

وفى عام ١٩٢٠ شكلت بعثة حكومية لدراسة الأغانى الشعبية التركستانية، وكان من أعضاء هذه البعثة "فيكتور الكساندروفيتش اوسبنسكى" (١٨٩٧–١٩٤٩) الذى كان يعيش فى هذه المنطقة من قبل ثورة اكتوبر (تشرين الأول)، ونيقولاى نازاروفيتش ميرونوف" (١٨٧٠–١٩٥٢) الذى تولى قيادة احدى فرق الموسيقى النحاسية(٢٧). وبعد الثورة قاموا بجمع الحان فولكلورية تركستانية وقدموا حفلات موسيقية عزفت فيها ألحان اوزبكية بواسطة الاوركسترات السيمفونية(٢٨). وفى عام ١٩٢٨ انشىء معهد للأبحاث الأكاديمية فى الموسيقى والكوريوغرافيا فى سمرقند، وتولى ادارته "ن. ميرونوف". واشتد الاهتمام بدراسة الأغنية الفولكلورية وبأعمال المؤلفين الموسيقيين الاوزبكيين المشاهير من أمثال "عطا جلال نظيروف" و "عطا قياس عبد الغنييف" و "دومولا حليم عبيدوف" و "ماتيوسوب خراطوف"(٢٩).

وبعد عام ١٩١٧ اشتغل عدد كبير من علماء الموسيقى الروس بنشر الأساليب والقوالب الموسيقية الأوروبية فى تركستان. فالى جوار اوسبينسكى وميرونوف و ى. ى. رومانوفسكايا (١٨٩٠–١٩٤٧) الذين كان لهم نشاط كبير فى مجال التعليم الموسيقى، قام "ر. جلير" (١٨٧٤–١٩٥٦) و "ج. موشل" بدور كبير فى تطوير الموسيقى الأوزبكية. وهناك كثير من المؤلفين الموسيقيين الروس والاوكرانيين قد استخدموا ألحانا فولكلورية اوزبكية فى مؤلفاتهم، مثل "ب. ا. بروسلوفسكى" و "ف. فلاسوف" و "ف. فيريه" و "ا. ج. شابوزنيكوف" و "ا. س. لينسكى" وغيرهم. ولكن بالرغم من ان عدداً هائلا من الخبراء الموسيقيين الموهوبين من الروس كان لهم نشاط كبير فى مجال الموسيقى التركستانية، فانهم لم يستطيعوا ان يدربوا موسيقيين من أهل البلاد يكون باستطاعتهم خلق موسيقى تركستانية حديثة بدون مساعدة خارجية. فبرغم جميع تلك الجهود لادخال الموسيقى الاوروبية الى تركستان، فقد جاءت ثمار تلك الجهود بطيئة مخيبة للآمال، كما ان "كونسيرفاتوار طشقند خلال عشر سنوات من عمره لم يتخرج فيه سوى ستة من الطلبة

(٢٦) المرجع السابق، ص ٣٨.
(٢٧) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٢٨) نفس المرجع السابق.
(٢٩) المرجع السابق، ص ٣٩.

الوطنيين"(٣٠) . وفى الوقت ذاته نجد عدداً صغيراً من الأطفال من أبناء البلاد قد ألحقوا بمدارس الموسيقى الأخرى فى طشقند(٣١). وهناك أسباب عديدة لذلك، أولها ان الروس والاكرانيين وغيرهم من المستوطنين المنحدرين من المناطق الأوروبية فى الاتحاد السوفييتى كانوا أقدر على دفع أثمان الآلات الموسيقية الباهظة نسبياً كالبيانو. وثانياً ان الموسيقى الأوروبية كانت مألوفة لديهم. وثالثاً ان لغة التدريس الأساسية فى الكونسرفاتورات كانت الروسية، وكان هذا ولا شك يجعل الأمر أكثر صعوبة أمام أبناء البلاد الذين لم يتقنوا هذه اللغة ولم تكن معرفتهم بها تسمح لهم بالالتحاق بالدراسة.

ولقد استخدم المؤلفون الروس أكبر قدر ممكن من الألحان الفولكلورية التركستانية فى مؤلفاتهم بقصد تقريب الموسيقى الأوروبية الى اسماع عشاق الموسيقى من أهل البلاد. فنى اوبرا "جولسارا" لجليير واوبرا "فرحات ويرين" لاسبينسكى وموشل، استخدم الكثير من التيمات والموتيفات التى يعرفها ويألفها أهل تركستان. ولقد فعلوا ذلك بأمل ان يأخذ الجمهور من ابناء البلاد تدريجياً فى الاعتياد على الأساليب والقوالب الأوروبية، وان تتحول الدستانات العتيقة الى اوبرات. وكان واضحاً ان هذه السياسة قد احرزت نجاحاً مبدئياً، ولكنه ما برح ان اتضح ان الروس قد وقعوا فى خطأ كبير. فباستثناء اوبرا "كور اوغلو" وقليلات غيرها، نجد ان جميع الحكايات الشعرية الفولكلورية كانت حكايات حب طاعنه فى الرومانسية والخيالية. وكان على المؤلفين الموسيقيين السوفيت حتى يسيروا على نمط الواقعية الاشتراكية، ان يضعوا فى الموسيقى موضوعات اشتراكية المضمون قومية الشكل. ولكن هذه العناصر لم تكن متوفرة فى الفولكلور المحلى. ولقد علق ف. فينوجرادوف وهو احد علماء الموسيقى المتخصصين فى موسيقى القوقازيين والتركستانيين فقال: "لا يوجد مسرح واحد من الخمسة مسارح فى آسيا الوسطى وقازاقستان يتضمن فى برنامجه أوبرا واحدة تتناول موضوعاً سوفيتياً(٣٢).

ولقد ابرز فينوجرادوف مشكلة أخرى تتعلق بمحاولات تقريب الموسيقى الأوروبية الى أهل البلاد فقال:

ان أسلوب الأوبرا المونودية (قصيدة رثاء طويلة يغنيها شخص واحد) الذى ابتكره ع. حاجيبيكوف فى عام ١٩٠٨ فى آذربيجان . . . قد انتشر فى اوزبكستان

---

(٣٠) ف. فينوجرادوف، "تطور الحضارة الموسيقية القومية فى الاتحاد السوفييتى"، مقالات مجموعة، موسكو عام ١٩٦١، ص ٢٧.

(٣١) نفس المرجع السابق.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

بسرعة حتى أنه أخذ مكان الأعمال الدرامية والموسيقى المكتوبة لأصوات متعددة. ان الغناء المهوموفونى (الوحيد الصوت) يعتبره مديرو المسارح على أنه أمر أساسى فى الثقافة الموسيقية القومية(٣٣).

وكانت هناك عقبة أخرى وهى ان الموسيقى البوليفونية كانت جزءاً من الثقافة القومية عند الروس الذين حرموا تركستان من حريتها واستقلالها، ومن الطبيعى أن يعرض عنها جمهور الوطنيين التركستانيين. ولذلك فقد فضل كثير من التركستانيين الاستمرار فى الغناء بطريقتهم التقليدية ولو ان لديهم الاستعداد الفطرى لأن يبلغوا حداً عالياً من الدراية بالأساليب الأوروبية فى الموسيقى اذا تلقوا تدريباً عليها. ولقد علق فينوجرادوف على ذلك بقوله :

فى اوزبكستان كان الوقت الضائع فى مناقشة الحاجة الى مدرسة اوزبكية قومية للغناء أكثر من الوقت المستغل فى الدراسة الجادة(٣٤):

وهناك أمثلة أكثر يمكن الاستشهاد بها على المقاومة العنيفة التى وقف بها شعب تركستان فى وجه الاجراءات المتعجلة نوعاً التى تتخذها موسكو. ولا شك هناك فى ان الموسيقى البوليفونية سوف تأخذ مكاناً بالطبع فى تركستان ولو أنها لم يظهر فيها للآن مؤلفوا موسيقى لديهم القدرة على الاستفادة من الخامات المحلية لتأليف موسيقى ذات دلالة عالمية.

ان الموسيقى الكلاسيكية القومية الصادقة لا يمكن خلقها الا عن طريق مؤلفى الموسيقى الوطنيين، ولكن فى تركستان فان مؤلفى الموسيقى الأجانب الذين وضعوا ما سموه موسيقى اوزبكية أو قازاخسية أو قيرغيزية، أو مؤلفى الموسيقى التركستانيين، فان كلاهما قد عمل مع شخص آخر فى تلك الموسيقى. ممثلا اشترك ف. ا. فلاسوف مع ف. فيريه وا. مالديباييف فى تأليف أوبرا " التين كيز". هذه لا تتعدى ان تكون مرحلة ابتدائية فى تطور الموسيقى الكلاسيكية التركستانية الحقيقية ولو ان هناك أكثر من ١٥٠ عمل سيمفونى قد ألفت فعلا(٣٥).

وهناك عدد هائل من الأوبرات والمسرحيات الموسيقية التى ألفها موسيقيون تركستانيون قد تم تعديلها لأن القصص التى تقوم عليها المأخوذة من الفولكلور لا تتفق مع خط الحزب. ففى عام ١٩٤٩ عندما عرضت أوبرا " طاهر وزهرة " لمؤلفى الموسيقى ت. جليوف

---

(٣٣) المرجع السابق، ص ٣٣.
(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٨.
(٣٥) المرجع السابق، ص ٤٩.

و ب. بروفزين على خشبة مسرح ا. نافوى فى طشقند، فقد انتقدت انتقاداً عنيفاً لأنها "جعلت الماضى الاقطاعى أمراً معقولا"(٣٦).

وأول أوبرا قازاخسية، وهى أوبرا "كيز جيبك" للموسيقى ا. بروسيلوفسكى، تعرضت كذلك لنفس التجربة مع الرقابة وكان لا بد من تعديلها(٣٧). وهوجم مؤلف الموسيقى القازاخى ا. ك. كوجاميباروف لأن مؤلفاته "... لا تشدد تشديداً كافياً على المعنى التقدمى لاتحاد قازاقستان مع روسيا"(٣٨). . و" والاتحاد " المقصود فى هذا الكلام هو بالطبع الاحتلال العسكرى لتركستان وليس كما يحلو للسلطات السوفييتية ان تسميه " اتحاداً اختيارياً مع روسيا ". فى مثل تلك الظروف لا يكون الأمر مما يدعوا للدهشة ان معظم المساعى الحميدة التى قام بها الموسيقيون الروس فى تركستان قد واجهها اعراض عنيد من أهل البلاد الوطنيين.

المسرح

فى الواقع لم يعرف المسرح بالمعنى الأوروبى فى تركستان حتى بداية القرن العشرين. وفى اوزبكستان وتادجيكستان كان هناك ما يسمى " مسخراباز" أى المضحكين والمهرجين والبهلوانات الذين كانوا يقدمون ألعابهم فى الأعياد والاحتفالات. وكان التادجيك يدركون أهمية التعبير بالاشارة والحركة والايماءات فى تصوير موقف أو حالة معينة الا ان مسرحاً كهذا لم يقم البتة.

وفى الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع عشر قامت " حركة جديدة " (حركة التجديد) التى أسسها التتارى القرمانى " اسماعيل كسبر" (كسبرينسكى)، ثم امتد نشاطها فى أوائل القرن العشرين الى تركستان. وكان هدف " حركة جديد " الأساسى هو الاصلاح والتجديد فى الاسلام. وكانوا يدعون لأفكارهم من خلال تمثيليات لها طابع تعليمى حاولوا بها محاربة الأمية والجهل اللذين كانا سائدين فى أرجاء تركستان. ويمكن اعتبار تقديم مسرحية " باداركوش " لمحمود خوجة بهبودى فى سمرقند عام ١٩١٤، بداية

---

(٣٦) فيزجو، المذكور سابقاً، ص ٦١.
(٣٧) ب. ارتساكوفيتش، "قازاقستان السوفييتية"، الطبعة ٢، موسكو عام ١٩٥٧، ص ٣٨.
(٣٨) المرجع السابق، ص ٣١.

المسرح الأوزبكى الحديث. يبين بهبودى، وهو من مؤيدى حركة جديد، فى هذه المسرحية ان أكبر خطر يهدد التطور الثقافى والاجتماعى والعلمى لتركستان هو الأمية. ويهاجم بحدة وعنف أساليب التعليم العقيمة ويطالب باصلاح المدارس التركستانية. كان المسرح فى رأى بهبودى هو المكان الذى يمكن ان يتباين فيه القديم والجديد تبايناً حياً أمام الجمهور، فيهز هذا التباين مشاعر الناس هزاً شديداً يكون له انعكاس قوى على تفكيرهم.

ولقد لعبت فرق التمثيل التتارية والآذربيجانية التى بدأت تقدم عروضها عام ١٩١١ دوراً هاماً أيضاً فى المسرح التركستانى(٣٩). وقبل ثورة أكتوبر (تشرين الأول) لم يكن هناك أى تأثير روسى ملحوظ. فقد ذكر ادوارد اولورث، وهو استاذ فى جامعة كولومبيا الأمريكية، ان الخمس وأربعين مسرحية واوبريت التى قدمت على مسارح تركستان قبل عام ١٩١٧، لم يكن بينها واحدة فقط أصلها روسى(٤٠). وأنه فى أوائل العشرينات من القرن الحالى كان جميع المسرحيين ينتمون الى مدرسة "جديد"(٤١). وفعل البلشفيك كل ما فى إمكانهم للافتراء على هؤلاء الكتاب واستبدالهم بآخرين يسيرون على هدى الحزب. ومن الكتاب الذين ازعجوا سادة موسكو وجروا على أنفسهم غضبها ا. فيترات الذى كان فى مسرحيته "ثوار الهند" يشكو الانتهاك الاستعمارى لسيادة الهند وان كان فى الحقيقة يهاجم التسلط الروسى على أمته. وتظهر مشاعر فيترات الوطنية هذه أيضاً فى روايته "قبر تيمور" وفى محاولة لتحطيم نفوذ هؤلاء الكتاب الوطنيين، قامت صحافة الحزب بحملة واسعة متواصلة لتطهير العناصر القومية من برامج فرق الهواة التى كانت لا تزال تعرض تمثيليات "جديد" من عهد ما قبل الثورة"(٤٢).

ومنذ البداية أدرك الشيوعيون قيمة المسرح كوسيلة دعائية. وخلال الحرب الأهلية حينما كان نصر البلشفيك نتيجة حتمية، كانت حركة جديد لا تزال صاحبه النفوذ الأكبر على المسرح التركستانى، ولكن الحال تبدلت بمجرد ان تمكن الشيوعيون من زمام الأمور. وفى عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٢٥ توقفت الدولة عن تقديم العون المالى لمسرح طشقند(٤٣)، بحجة نقص فى الاعتمادات المالية، واضطرت مسارح كثيرة أخرى فى تركستان الى اغلاق

---

(٣٩) "تاريخ المسرح الدراسى السوفييتى"، الجزء ١، موسكو عام ١٩٦٦، ص ٢٨٩.
(٤٠) ادوارد اولوث، "بدايات المسرح التركستانى الحديث"، "سلافيك ريفيو"، لندن، الجزء ٢٣، رقم ٤، عام ١٩٦٤، ص ٦٧٦.
(٤١) نفس المرجع السابق.
(٤٢) "تاريخ المسرح الدرامى السوفييتى"، المذكور سابقاً، ص ٢٩٢.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٣٠٣.

أبوابها فى خلال فترة " السياسة الاقتصادية الجديدة " لأنها فشلت مالياً. ولكن السبب الحقيقى لتوقف الحكومة عن تقديم العون المالى لهذه المسارح هو ان الشيوعيون كانوا يرون ان كثيراً جداً من المسرحيات التى كانت تقدم ذات طابع قومى. وقالوا ان مسرحيات " الحب الصادق " و " ثوار الهند " لفيترات، و " ياركين أوى " لشولبان، و " قاتل والديه " لبهبورى كانت تقدم على جميع المسارح فى حين ان مسرحيات الكاتب الشيوعى " حمزه نيازى" قد اختفت تماماً من برامج المسارح(٤٤). ولم يبدأ تقديم المسرحيات الروسية بانتظام على مسارح تركستان قبل عام ١٩٢٧، حينما عادت أول مجموعة من الأوزبكيين الذين كانوا يدرسون فنون الدراما فى موسكو الى أوطانهم.

وفى عام ١٩٢١ قررت قوميسرية الشعب للتعليم ان منظمات المسرح لا بد أن تظهر فائدتها(٤٥). وكان هذا يعنى النهاية بالنسبة للكثير من المسارح التركستانية. ولكن القوميسرية قامت بتشجيع بعض فرق مسرحية معينة بطريق غير مباشر، أى عن طريق اعانة العروض المسرحية التى تقدمها تلك الفرق لقوات الجيش الأحمر أو عمال المصانع. ولكن هذه الاعانة كانت مرتبطة بالولاء الأيديولوجى لموسكو(٤٦). وهذا المبدأ لا يزال قائماً، فالروايات يجب ان تكون " قومية فى شكلها اشتراكية فى مضمونها "، وهى سياسة قد تؤدى الى أى شىء الا الى الفن الحقيقى الصادق .

العمارة

ان الزائر لتركستان سوف يلقى فى كل مكان منها اطلال الجوامع والاضرحة والابراج وأسوار المدن وكهوف ما قبل التاريخ التى تحمل رسوماً على جدرانها، وكذلك الخزانات الصناعية للجليد والماء. ولكن هذه الاطلال المعمارية لا تعطى الا انعكاساً شاحباً عن الماضى الوضاء.

والبحوث الأثرية فى تركستان من أصعب الأمور لأنه ليس من السهل تحديد التاريخ المضبوط للمكتشفات، وخصوصاً لأن مادة البناء الأساسية فى الآثار القديمة كانت الطين

---

(٤٤) المرجع السابق، ص ٣٠٤.
(٤٥) المرجع السابق، ص ٣٠٦.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٣٠٧.

الذى يسهل تحلله، والسلطات السوفييتية يندر ان تسمح لفرق التنقيب عن الآثار الأجنبية بالتنقيب فى البلاد. والمصدر الوحيد للمعلومات الأثرية حالياً هو ما ينشره السوفييت.

وفى بداية القرن العشرين قامت البعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار برئاسة بومبيللى(٤٧) بالتنقيب فى تركستان واكتشفت فى ١٩٠٣ اطلالا بالقرب من قرية "اناو". وكانت النتائج التى توصلت إليها هذه البعثة وكذلك البعثة التى ترأسها الجنرال ا. ف. كوماروف فى تلال اناو القريبة من اشخباد قد اضافت الى قاموس الآثار لفظاً جديداً هو "الحضارة الاناوية"(٤٨). وكانت مجموعة بومبيللى تعتقد ان الحضارة قامت خلال الفترة بين القرنين التاسع والخامس قبل الميلاد، بينما قدر الأثريون السوفييت عمر تلك الحضارات بـ ٤٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وأدت أعمال التنقيب قرب كاخا الى اكتشاف مسكن عائلى ضخم متعدد الأقسام جدرانه من الطوب النىء وحجراته ذات شكل مستطيل أو معين منحرف والمبنى الرئيسى الذى يحتمل أنه كان يستعمل فى الاحتفالات الدينية كان مزخرفاً بألواح من الخشب بألوان حمراء وبيضاء وسوداء(٤٩).

كانت مادة البناء الأكثر شيوعاً فى تركستان هى الطين. اما قوالب الطوب الأحمر (المحروق) فقد كانت تستخدم فى الأبنية العامة مثل الجوامع ومحلات القوافل، فى حين ان استخدام الحجارة كان قليلا ويكاد مقتصراً على المناطق الجبلية. ولم يكن هناك مصانع للطوب، إذ كان يصنع فى مكان البناء حتى لا يكون هناك ضرورة لنقله. ومثل هذه الأساليب فى البناء ترجع الى عصور ما قبل التوراة، وهناك كذلك من يربطون بينها وبين حفريات عصر الاسكندر الأكبر(٥٠).

وفى العهد التيمورى بلغت العمارة التركستانية أوجها. فقد أحضر تيمور لنك المعماريين من جميع أنحاء امبراطوريته الواسعة الى سمرقند لبناء الجوامع والأضرحة وغيرها من الأبنية العامة، ولذلك كان هناك خليط من التأثيرات المعمارية المتنوعة. وبلغت العمارة التركستانية أوجها الحقيقى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر حينما برزت الأنماط المختلفة فى نمط واحد. فى تلك الفترة قامت بنايات مثل ضريح شاهى زيندا الذى يتميز بأعمال الحفر

---

(٤٧) "لاروس القرن العشرين"، باريس، ١٩٢٨–١٩٣٣، ص ٢١٤.
(٤٨) ج. ا. بوجاشينكوفا، "تطور فن العمارة فى تركمانستان الجنوبية خلال عصر العبودية والإقطاع"، موسكو عام ١٩٥٨، ص ١٢.
(٤٩) المرجع السابق، ص ١٣.
(٥٠) شفارتس، المذكور سابقاً، ص ٢٣٦.

العميق والبارز على أبوابه ونوافذه(٥١). ويوجد فى شاهى زيندا أضرحة أخرى تعتبر أفضل فى رشاقتها وتنوعها حتى من تلك الأضرحة الموجودة فى سمرقند نفسها.

وفى القرن الخامس عشر شيد " اولوغ بك " حفيد تيمورلنك " مدرسة " (معهداً دينياً). ولم يبق الآن من ذلك البناء الرائع الا خرائب مهدمة، ولكنها على أى حال دليل على نوع مواد البناء التى استخدمت والتى يتبين منها ان الموزايك الذى مضى عليه خمسمائة عام لا يزال يحتفظ بنضارته ولمعانه. وربما كان أروع عمل معمارى فى ذلك العصر هو ضريح " غور أمير " الذى بناه تيمور لنك لحفيده المختار " محمد سلطان ". وهذا الضريح ثمانى الشكل، وعلى مسافة قريبة منه بنى جامع ذو مئذنتين. وحرمه الذى أكمل بناؤه فى عام ١٤٣٤ يعتبر واحداً من أجملها فى العالم. فألوانه وتصميم قبته وأعمال الحفر الزخرفية كلها تتآلف فى إنسجام بارع الاتفاق والاتقان(٥٢).

وبعد العصر التيمورى زحف الركود على العمارة التركستانية ولم تبرأ منه الى اليوم. فالمبانى التى شيدت خلال العصر السوفييتى تعتبر أمثلة نمطية للطراز الموحد الذى اختاره ستالين، وهو ما يمكن ان يسمى بأى شىء الا ان يكون فناً معمارياً. ولا ينقذها الا شىء واحد وهو الزخرفة الداخلية التى نفذتها أساساً الأيدى المحلية وتعكس شعاعاً ضئيلا من الماضى المجيد.

---

(٥١) س. ن. بولوبانوف، "آثار معمارية فى سمرقند"، ١٩٤٨، صورة رقم ٧١.
(٥٢) دافيد تالبوت رايس، "الفن الإسلامى"، ميونيخ–زيورخ، عام ١٩٦٥، ص ٢١٠.

MAJALLAH

(Arabic Review)

No. 27/28, 1970

Editor: SÜLEYMAN MOHAMED TEKINER

This Issue is Devoted to the Condition of Moslem Peoples under Soviet Rule

Foreword 3

Azerbaidzhan 5
By SÜLEYMAN MOH. TEKINER

Crimea 30
By EDIGE MUSTAFA KIRIMAL

Northern Caucasus 49
By BARAZBI BAYTUGAN

Turkestan 68
By NUREDDIN MOHAMAD OLUGH BEK

Artistic Achievments of The Moslem Peoples of The Soviet Union 88
By BAYRAM RIZA

Chapter 1: Azerbaidzhan 88

Chapter 2: Northern Caucasus 112

Chapter 3: Turkestan 123

الآراء المنشورة فى المجلة هى آراء كتابها ولا يجوز إعتبارها بأى شكل
كان عقيدة سياسية أو وجهة نظر المعهد

المواد المنشورة هنا يمكن إعادة طبعها أو إقتباسها بشرط الإشارة إلى مصدرها